



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ- العرب والإسلام

موارد ابن الأثير في كتابه الباهر في الدولة الأتابكية

(555- 630هـ / 1160- 1233م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالبة:

لانا محمد رضوان خونده

إشراف:

الدكتورة حليلة عبد الهادي



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ- العرب والإسلام

موارد ابن الأثير في كتابه الباهر في الدولة الأتابكية

(٥٥٥ - ٦٣٠هـ / ١١٦٠ - ١٢٣٣م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالبة:

لانا محمد رضوان خونده

إشراف الدكتورة:

حليمة عبد الهادي

٢٠١٩هـ / ١٤٤٠م

إهداء

إلى قدوتي الأولى ونبراسي الذي ينير دربي، إلى من أعطاني ولم يزل يعطيني بلا حدود، إلى من رفعت رأسي عالياً افتخاراً به، إلى من أفنى زهرة شبابه في تربية أبنائه إلى من سعى وشقي لأنعم بالراحة والهناء

والدي العزيز أدامه الله ذخراً لي

إلى التي رآني قلبها قبل عينيها، وحضنتني أحشاؤها قبل يديها، إلى شجرتي التي لا تذبل، وإلى الظل الذي ألبأ إليه في كل حين. إلى معنى الحب والحنان والتفاني، إلى من كان دعاؤها سرّاً ناجحي

والدتي الحبيبة حفظها الله

إلى شريكاتي في الطفولة، والشباب، وفي المنزل، وأمام المرأة، وفي كل تفاصيل حياتي حلوها ومرّها وإلى الابتسامة التي كبرت ونشأت أمام عيني يوماً بعد يوم، إلى فرحة قلبي.

إخوتي لنا ولاء لمى و محمد بشر حماهم الله.

إلى نصفي الآخر، وشريك عمري، وساكن قلبي، إلى من جسّد الحب بكل معانيه، إلى من يجعل من ضعفي قوّة ومن يأسّي أمل.

زوجي محمد علي وفقّه الله

إلى الروح التي لم تفارقني، إلى الابتسامة التي سأذكرها ماحييت، إلى الحنونة الطيبة، إلى من ترافقني كل ليلة في الأحلام ، حبيبتي

جدتي خديجة رحمها الله

إلى من شاركوني همومي وأحزاني وضحكاتي، من تطيب بهم الأيام وتحلو معهم الأوقات

أصدقائي وفقهم الله

شكر وتقدير

أشكر الله رب العالمين الذي خلق وهدي وسدد الخطى فخرج هذا العمل بعونه وتوفيقه نحمده حمداً كثيراً في المبتدى والمنتهى.

أتقدم بجزيل شكري، وعظيم امتناني إلى أستاذتي القديرة الدكتورة حليلة عبد الهادي، التي غمرتني برعايتها، ومنحتني من علمها وصبرها طيلة مدة إعداد هذه الدراسة، التي لم توفر جهداً، ولم تبخل بعلماً، لك جزيل شكري وامتناني وجزاك الله عني كل خير وحفظك من كل مكروه.

كما أتقدم بالشكر إلى لجنة المناقشة، وإلى كل من أسدى إليّ يداً في إخراج هذا العمل،

وأقدم بالشكر لكل من ساعدني بفكرة أو بتقديم كتاب أو بكلمة نصيح، وأقول لهم :

مَنْ يَصْنَعُ الْخَيْرَ لَا يَعْدُمُ جَوَازِيَهُ

لَا يَذْهَبُ الْعِرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

ملخص الرسالة

تتضمن رسالة "موارد ابن الأثير في كتابه الباهر في الدولة الأتابكية" (٥٥٥ - ٦٣٠هـ / ١١٦٠ - ١٢٣٣م) شرحاً تفصيلياً عن المرحلة الزمنية التي عاش فيها المؤرخ ابن الأثير وأسرته، كما تتضمن صورة تفصيلية عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية في ذلك العصر مستعينة بأهم المصادر والمراجع التي تغطي هذه المرحلة المهمة من التاريخ العربي والإسلامي، فقد ورد فيها الحديث عن ابن الأثير المؤرخ منذ ولادته، ونشأته، وأسرته ودورها الكبير في تكوين ثقافته، ووالده الذي كان يخدم في البلاط الزنكي، مروراً بحياته الثقافية والعلمية ورحلاته في طلب العلم وتمّ الوقوف فيها على أهم مؤلفاته التي تركها في التاريخ، مع الإضاءة على هذه المؤلفات وأهميتها، واتخاذها منهجاً للكثير من المؤرخين الحديثين، وأضاءت على مدى التطور الذي وصلت له الكتابة التاريخية في تلك المرحلة من حيث الابتعاد عن الإطالة، والابتعاد عن الإسناد، الذي كان متبعاً في ما قبل، وعن الدور الذي قدّمه ابن الأثير للكتابة التاريخية وعن منهجه في مؤلفاته، و تتضمن القسم الثاني من الرسالة دراسة لكتاب ابن الأثير "الباهر في الدولة الأتابكية، هذا الكتاب الذي كان موضوعاً للرسالة من حيث التعرف على منهج ابن الأثير الذي اتبعه في كتابه هذا، والموارد التي استقى منها معلوماته وأخباره، فجاء على جزأين الأول تناول الحديث عن منهج ابن الأثير في كتابه الباهر، فتمّ الحديث عن أهمية هذا الكتاب بالنسبة للتاريخ العربي والإسلامي، ووقفت على مدى أهميته أيضاً في كونه مرجعاً للكثير من المؤرخين الذين عاصروا ابن الأثير أو الذين أتوا بعده، وتمّ تسليط الضوء في هذا الفصل عن سبب تأليف ابن الأثير لهذا الكتاب، وعن الموضوعات التي وردت بها من خلال تصنيفها وجمع أبرزها، وتحليلها، وعن أسلوب ابن الأثير في كتابته التاريخية بشكل عام، وفي كتابه الباهر بشكل خاص، و الحديث عن إبداعه اللغوي، وطرافته، و أسلوبه المتميز الذي لم يخلُ من المحسنات البديعية، والفنون الأدبية، والتي كانت دليلاً واضحاً على ثقافته، وسعة علومه.

وفي الفصل الأخير من الرسالة كان الحديث عن الموارد التي استقى منها ابن الأثير معلوماته، وحصل منها عن أخباره، وتصنيفها إلى موارد شفوية، وموارد مكتوبة، و كان الأثر الكبير واضحاً لوالده، والذي كانت معظم مادة الكتاب مأخوذة عنه، وذلك لما كان له من علاقة طيبة، تربطه بالأسرة الزنكية، ولأنّه خدم في البلاط الزنكي وحظي على مكانة مرموقة لدى الأمراء الزنكيين هو وأسرته، وأصابهم من عزّهم وجاههم ما يدفعه هو وأبنائه إلى الامتنان والاعتراف بالجميل لهذه الأسرة مدى حياتهم. فكان كتاب الباهر من أهم الكتب التي اختصت في تاريخ الأسرات، فلم يسبق لأحد من المؤرخين أن أفرد كتاباً كاملاً للحديث عن الأمراء الزنكيين، وحروبهم ضد الصليبيين، وتوسعاتهم في المنطقة، وأعمالهم وإنجازاتهم، فقدّم كتاب الباهر مادة غزيرة، ومهمة في تاريخهم، لم تكن موجودة عند غيره من المؤرخين، ولم يشملها كتابه الكامل في التاريخ. و تضمنت الرسالة قائمة لأهم المصادر التي تحدثت عن تلك المرحلة في كافة مجالاتها .

دراسة لأهم المصادر والمراجع:

1- تاريخ دمشق لابن القلانسي ت555هـ/1160م:

هو أبو يعلى حمزة ابن القلانسي، ولد في مدينة دمشق 364هـ/1701م وتوفي فيها، ودفن في سفح قاسيون⁽¹⁾، كتابه هذا هو الكتاب الوحيد الذي ألفه ابن القلانسي يتناول فيه دراسة حقبة من الزمن تزيد على قرن من الزمان وهو من أهم المصادر الأصلية التي أفاد منها من جاء بعده من المؤرخين المسلمين أمثال ابن سبط الجوزي وابن الأثير وأبو شامة حيث قدّم سرداً تاريخياً لأحداث مرّت بها الأمة الإسلامية كسقوط بيت المقدس بيد الفرنجة، حيث كان ابن القلانسي في تلك المرحلة شاهد عيان. عاصر ابن القلانسي مرحلة الحروب الصليبية وشهد الحملات الأولى والثانية، وقام بتوثيقها بشكل جيد، ما جعل من كتابه مادة علمية هامة في وقتنا الراهن، يبقى الإشارة إلى أنّ المؤلفين الأجانب تعاملوا مع الكتاب باسم (ذيل تاريخ دمشق) وهكذا كان يعرف إلى أن أعيدت طباعته باسم تاريخ دمشق. وأفاد هذا الكتاب البحث في الحديث عن الظروف التي عاشتها دمشق في ظل الحروب الصليبية.

2- معجم البلدان لياقوت الحموي ت626هـ/1299م:

هو شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، قيل أنه ولد سنة 574هـ/1187م⁽²⁾. كتابه هذا من أهم المراجع الجغرافية في وصف المدن، وهو من الكتب التي أغنت البحث بشكل كبير لما يحتويه من معلومات تاريخية وجغرافية دقيقة، فهو موسوعة شهيرة للأديب والشاعر الشيخ الإمام شهاب الدين أفاد الدارسة من خلال التعريف ببعض الأماكن والمدن الواردة في الرسالة، فضلاً عما يحتويه من معلومات تاريخية قيّمة. واهتم بذكر المدن والقرى والأصقاع في البلاد الإسلامية، وتحدث في ترجمته لكل موقع عن معنى الاسم لغة واصطلاحاً، كما تحدث عن تاريخ بعض البلدان أن توفرت المعلومات لديه توفي 626هـ/1229م⁽³⁾.

(1) الكتني، (ابن شاكر ت764هـ/1363م): فوات الوفيات، دار صادر، ط1، بيروت، 1973م، ج1، ص147؛ الزركلي، (خير الدين): الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، ط13، 1998م، ج2، ص281.

(2) ابن خلكان، (أحمد بن محمد ت681هـ/1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م، ج6، ص139؛ الزركلي: الأعلام، ج8، ص131.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج6، ص139.

3- الكامل في التاريخ لابن الأثير ت 630هـ/1232م:

علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين بن الأثير، ولد بجزيرة عمر سنة 555هـ/1113م⁽¹⁾. توفي في الموصل⁽²⁾. وكتابه الكامل في التاريخ واحد من أبعة مؤلفات تركها ابن الأثير الكامل في التاريخ كتاب في التاريخ الإسلامي، ألفه على نظام الحوليات وبدأه بالحديث عن بدء الخليقة، اعتمد بشكل كبير فيه على تاريخ الطبري، ذكر فيه الأحداث الصغرى وبعض الوفيات في نهاية كل سنة، أمّا الأحداث المهمة فكان يعطيها عناوين مستقلة ضمن السنة، فهو في كتابه هذا أكمل تاريخ الطبري، وأغنى كتابه الكامل الدراسة بشكل كبير .

بالإضافة على الاعتماد على باقي مؤلفاته مثل الباهر وأسد الغابة. الكتاب موسوعة كبيرة في التاريخ العام للعالم الإسلامي ابتداء بأول الزمان وأنهاء بستة 628هـ/1231م، وهو من أمهات الكتب في التاريخ الإسلامي أفاد البحث في الكثير من المعلومات السياسية والاقتصادية والاتماعية التي عاصرت ابن الأثير.

4- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ت 681هـ/1282م:

هو أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، ولد في مدينة أربيل في العراق سنة 671هـ/1111م⁽³⁾، كتابه وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، من أهم كتب السير التراجم وهو من أهم الكتب المختصة في علم التراجم، وهو معجم في التراجم العامة وأشهرها، أفيد من هذا الكتاب من خلال ضبط تراجم الكثير من الشخصيات الواردة في البحث.

5- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة ت 665هـ/1266م:

شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن اب اراهيم بن عثمان، ولد بدمشق سنة 555هـ/1174م ، ودفن في سفح قاسيون⁽⁴⁾، وكتابه الروضتين أفرد في ذكر السلطانين نور الدين زنكي، ومن بعده الملك صلاح الدين الأيوبي، واجتهد أبو شامة في ذكر فضلهم،

(1) السمعاني، (عبد الكريم محمد ت 562هـ/1133م): الأنساب، تج: عبد الرحمن المعلمي، دائرة المعارف العثمانية، ط1، حيدر آباد 1962م، ج3، ص269.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص348.

(3) الزركلي: بالأعلام، ج2، ص340.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص568.

وذكر دولتيهما النورية والصلاحية، معتمداً في ذلك على من سبقه ممن صنفوا في أخبار هذين السلطانين، يعتبر من أوسع الكتب التي أرخت لدولتي نور الدين وصلاح الدين وما تخللهما من حروب مع الصليبيين.

أفاد هذا الكتاب البحث وأغنى فصوله فابن الأثير أخذ عنه في مادته، وهو من المعاصرين له.

6- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ت 697هـ/1298م:

هو محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل ولد في مدينة حماة في سورية 673هـ/1171م⁽¹⁾، أقام مدة طويلة في مصر كتب العديد من المؤلفات منها هداية الألباب في المنطق ورسالة في علم المناظرة وشرح الموجز في المنطق ونظم الدرر في التاريخ والسير، أفاد البحث منها مؤلفه مفرج الكروب الذي يتحدث فيه عن الأيوبيين وعلاقاتهم وحروبهم والكثير من الأحداث التي وقعت في سنين حكمهم وهو مؤلف من ستة أجزاء، وقد أفاد هذا الكتاب البحث في الجزء المتعلق بالدولة الأيوبية وأوضاعها.

7- المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ت 632هـ/1331م:

هو عماد الدين اسماعيل بن علي ، صاحب حماة، ولد في مدينة دمشق سنة 601هـ/1103م ،وتعلم فيها⁽²⁾، التحق بخدمة الملك الناصر محمد بن قلاوون وأخلص له، فجعله أميراً على حماة ولقبه بالملك المؤيد، وقد خلدت حماة ذكراه ، فغالبا ما يطلق عليها مدينة أبي الفداء، كان أبو الفداء عالماً بالفقه والطب والتاريخ، والأدب والفلسفة له العديد من المؤلفات أغنى البحث مؤلفه المختصر، وهو اختصار لكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، مع تذييل عليه، وقد أفيد منه في إغناء البحث في بعض المعلومات التاريخية في الكثير من المجالات . وهناك كتاب تقويم البلدان

8-نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ت 733هـ/1333م:

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، درس في القاهرة، وتخصص في دراسة الحديث والتاريخ والأدب اتصل ببلاط الناصر محمد بن قلاوون ونال عطفه وتقلب في عدة وظائف إدارية ومالية وعدد هذه الوظائف في مقدمة كتابه نهاية الأرب: حيث كتب أنه مارس الكتابة وبسط الخرائط وأعمال الحسبة والمقاييسات والمحاسبة والتحصيلات والنظر في الغلات

(1) الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص257.

(2) أبو الفداء: المختصر، ج3، ص3.

والاعتصار⁽¹⁾ كتب كتاب نهاية الأرب وتفرغ له، وهو كتاب موسوعي، وأعطاه طابعاً، أدبياً، فلم يعالج فيه إلا ما كان له علاقة بالأدب بأوسع المعاني، والتاريخ، والجغرافية والسياسة، والبيان والبديع والأمثال، وقد تمت الاستفادة من كتابه في الحديث الأمور الأدبية .

9- البداية والنهاية لابن كثير 774هـ/1373م:

عماد الدين أبو الفداء اسماعيل، ابن كثير الدمشقي، ولد بمجدل من أعمال مدينة دمشق⁽²⁾، كتابه البداية والنهاية، في التاريخ العام، وهو عمل موسوعي ضخم .

كتابته عرض للتاريخ من بدء الخلق إلى نهايته، أرخ فيه بالسنوات، وأفاد البحث في إغنائه في سرد الأحداث السياسية والحوادث التي جاءت في دراسة العصر السياسي للمؤلف في الدراسة

10- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي 845هـ/1441م:

هو أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم، ولد بالقاهرة ونشأ فيها سنة 764هـ/1364م، جده كان من بعلبك الشام⁽³⁾، وكان من كبار المحدثين فيها، تخصص في الفقه والحديث وعلوم الدين وأجاد النثر وولي الحسبة في القاهرة له العديد من المؤلفات المهمة مثل المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار وكتاب المقفى وإغاثة الأئمة في كشف الغمة واتعاط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، وهو تاريخ دولة المماليك في مصر بما فيها من انتصارات، وقد أفاد البحث في بعض جوانبه، في الحديث عن الناحية السياسية من عصر المؤلف

أهم المراجع العربية:

أمّا المراجع المعتمدة في هذا البحث، فهي كثيرة، ومتنوعة، وعالجت العصر الزنكي من كافة نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية وغيرها، وأعطت معلومات على قدر كبير من الأهمية .

(1) النويري، (شهاب الدين أحمد ت 732\1323م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: محمد مصطفى زيادة وفؤاد الصياد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، دت، ج 1، ص 3.

(2) الزركلي: الأعلام، ج 1، ص 320.

(3) السخاوي، (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت 902هـ/1497م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، القاهرة، ج 2، ص 25.

أهم المراجع التي تمّ الاعتماد عليها يمكن ذكرها مرتبة معجمياً على الشكل الآتي:

- 1- زكار، (سهيل): مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، للمؤلف العديد من الكتب، وتمت الاستعانة بالعديد من مؤلفاته في هذه الدراسة أفيد من كتابه هذا في معرفة الأوضاع السياسية و أوضاع الحملات الصليبية التي عاصرت زمن الزنكيين.
- 2- شلبي، (أحمد): التربية والتعليم في الفكر الاسلامي، أفاد هذا المرجع البحث في المعلومات التي تعكس الواقع الفكري والتعليمي في الدولة الزنكية.
- 3- طرخان، (ابراهيم): النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، كان الكتاب على قدر كبير من الأهمية فيما قدمه من معلومات اقتصادية وخاصة عن النظم الاقطاعية التي كانت سائدة في تلك المرحلة.
- 4- طقوش، (سهيل): تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام 511-647هـ / 1110-1144))، مؤلفاته كثيرة وتمّ الاستعانة منها بما يخدم موضوع البحث، كتابه هذا عالج تاريخ الدولة الزنكية من جميع جوانبها، وخاصة السياسية، فأفاد بذلك الدراسة وأغناها كثيراً حيث أنه اعتمد على امهات الكتب
- 5- عاشور، (سعيد): الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، أفيد من كتابه هذا معرفة تاريخ الحملات الصليبية وسيرها، وقدم وصفاً دقيقاً، للاحداث على الساحتين العربية والغربية.
- 6- عوض، (محمد مؤنس): في الصراع الإسلامي - الصليبي - السياسة الخارجية للدولة النورية 531- 565هـ / 1136- 1130م، أفاد هذا الكتاب في الإطلاع على علاقات الدولة الزنكية، وحروبها مع الصليبيين.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يوزعنا بمواصلته حمده، الحمد لله العلي الأعلى الذي خلق فسوّى وقدر فهدى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلاد كانت الخلافتان العباسية والفاطمية مجرد قوّة اسمية، أمّا القوّة الفعلية كانت للسلاجقة الذين كان ملكها يمتد حينئذٍ من حدود الأفغان شرقاً إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية غرباً، وبقيت هذه الدولة موحدة وقوية تحت حكم طغرل بك (429-455هـ / 1037-1063م) وألب أرسلان (455-465هـ / 1063-1072م) وملكشاه (465-485هـ / 1072-1092م) ولكن بعد موت الأخير بدأت تتفكك أوصالها وتفرقت إلى دويلات سلجوقية متعددة ثمّ لم تلبث هذه الدويلات أن ورث ملكها دولة الأتابكة، برز مؤسس دولة أتابكة الموصل عماد الدين زنكي (521-541هـ / 1127-1146م) وسطع نجم ابنه نور الدين محمود في الشام (541-569هـ / 1146-1173م)، وكان لهما دوراً كبيراً في الجهاد ضد الفرنجة، وهنا كان الوهن والضعف قد دبّ بجسد الخلافة الفاطمية بمصر واتجهت أنظار الفرنجة لهم.

وفي هذه المرحلة شهدت الكتابة التاريخية تطوراً ملحوظاً على أيدي نخبة من المؤرخين العرب المسلمين، كان من أبرزهم عز الدين ابن الأثير الجزري والذي كان له دور كبير في كتابة التاريخ الذي سار عليه في مؤلفاته، قدّم ابن لأثير أعمالاً ضخمة تمثلت في أربع مصنفات في التاريخ وهي الكامل في التاريخ وهو في التاريخ العالمي، والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية الذي كرّسه لأخبار دولة الأتابكة الزنكيين، واللباب في تهذيب الأنساب، والذي قدّم فيه صياغة جديدة لكتاب الأنساب للسمعاني، وكتاب أسد الغابة، لكن الكامل في التاريخ ومعه كتاب الباهر هما اللذان أكسبا ابن الأثير شهرته كمؤرخ، لأنّه قدّم من خلالهما إنتاجاً خاصاً به ليس تلخيصاً ولا تنقيحاً ولا إضافة لأي عمل سالف، وقد تجلّى من خلالهما منهج ابن الأثير في كتابته التاريخية

في الواقع إنّ العناية بدراسة مناهج المؤلفين في مصنفاتهم ومواردهم فيها، تصدّرت الكثير من البحوث والدراسات العلمية، لما لها من أهمية لاسيما في معرفة المصنفات المفقودة والإحاطة بأسماء مجموعات من الكتب لا تُعرف اليوم إلّا من هذا الطريق هدفت الرسالة إلى التركيز بشكل أساسي على دور ابن الأثير في كتابة التاريخ الذي سار عليه في مؤلفاته، حيث سيتم التركيز بشكل أساسي على كتابه الباهر في الدولة الأتابكية، من حيث موارده في هذا الكتاب ومنهجه الذي اتبعه في كتابته التاريخية، حيث استفاد ابن الأثير من مصادر متنوعة منها ما هو مكتوب ومنها الشفوية، فاعتمد على الكتب والوثائق والرسائل وشهود العيان، والمصادر الشفوية، وما شاهده هو بأمّ العين،

لذا كانت كتاباته متميزة ومتنوعة، ويُلاحظ أنَّ ابن الأثير تأثر بإسلوب الكتابة التاريخية في عصره والتي ابتعدت عن إطالة سلسلة السند، فكان هذا ملفتاً للنظر إذا ما قورن بسلفه من المؤرخين، فهو لم يكن مجرد مسجل للأخبار والأحداث وإنما كان ناقداً ممتازاً، نقد أصحاب مصادره وناقش كثيراً من أخبارهم.

تأتي أهمية هذا الموضوع من شهرة مؤلفه، وسابقته في التأليف في هذا العلم، فمكانة ابن الأثير المرموقة ومكانته وأسرة في البيت الزنكي أعطاه مزايا لم ينلها غيره، و فرص في الاطلاع على أمور وحوادث وقصص لم يطلع عليها غيره من المؤرخين ، وتأتي أهميته أيضاً من كونه صنف المؤرخ الثاني الذي اهتم بتاريخ العالم الإسلامي بأقاليمه ومناطقه، أما المؤرخ الأول فهو ابن جرير الطبري، وأتت مؤلفاته التاريخية لا تقل أهمية عن كتابها ومؤلفها ابن الأثير

كان للباهر أهمية كبيرة من حيث أنه أثر في الكتابات التاريخية التي لحقته، ككتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة(ت665هـ / 1268م)، ومفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي(ت697هـ / 1298م)، وكان مصدراً رئيسياً عن الزنكيين، ولربما كان الحافز الذي أدّى للبحث في موارد ابن الأثير في الباهر وفي حياته، هو الرغبة في الوقوف على مدى تأثير علاقة ابن الأثير بالزنكيين في تأليفه هذا الكتاب، ومدى كونه حيادياً وموضوعياً في سرد أخبارهم، وإيماناً بأن مثل هذه الدراسة سوف توضح قيمة الكتاب، وتيسر للباحثين الاستفادة منه

ومن الصعوبات التي اعترضت طريق هذا البحث صعوبة إيجاد دراسة عن الدولة الزنكية تشتمل جميع جوانبها السياسية والعلمية والأدبية والعسكرية والعمرانية والمالية، بل كان أغلبها يكتفي بجانب واحد وخاصة السياسي .

وقد كان المنهج التاريخي المتبع في الدراسة هو منهج البحث القائم على العرض والتحليل مفصلة قدر المستطاع في التعريف في الموارد والمنهج المتبع به وتصنيفها.

تكونت هذه الدراسة من مقدمة، وقسمين يحتوي كل قسم على فصلين، ودراسة تحليلية لأهم مصادر الرسالة ومراجعها، وخاتمة

أما القسم الاول فقد جاء فيه:

الفصل الأول: تخصص للحديث عن ابن الأثير من حيث عصره: سياسياً، ثقافياً، اقتصادياً و اجتماعياً وبالحديث عن الأوضاع السياسية، ورد فيها الأوضاع السياسية في بلاد الشام قبيل قيام الدولة الزنكية، والسلاجقة، ومن ثم تأسيس الدولة الزنكية وعلاقاتها ودورها في الجهاد ضد الفرنجة،

وتأسيس الدولة الأيوبية وعلاقاتها ودورها أيضاً. أمّا الأوضاع الاقتصادية: تضمن الحديث عنها الأوضاع لاقتصادية في المشرق الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين في العصرين الزنكي والأيوبي وفي الحديث عن الحياة العلمية فيها منهج الكتابة التاريخية في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر في الميلاديين، والعلوم، والمدارس في العصرين الزنكي والأيوبي. وتم التطرّق للحركة العمرانية: كالمساجد، البيمارستانات.

أمّا الفصل الثاني: ابن الأثير: حياته، وثقافته ومؤلفاته (555-630هـ / 1160-1233م) فيه الحديث عن حياة ابن الأثير: اسمه وكنيته ونسبه، ولادته، أسرته و نشأته وعلومه الأولى و رحلاته في طلب العلم و وفاته. و ثقافته ابن الأثير، شيوخه، تلاميذه، مؤلفاته، وفيه إحاطة كاملة عن حياته

القسم الثاني وقد جاءت فيه دراسة مفصّلة لكتاب الباهر من حيث منهج ابن الأثير فيه ومن حيث موارده التي استقى منها معلوماته وأخباره. وجاءت على فصلين

الفصل الأول: دراسة تاريخ الباهر

وفيه دراسة مفصّلة لمنهج ابن الأثير في تأليف كتابه الباهر في الدولة الأتابكية و وصف الكتاب ومحتواه و الموضوعات التي تناولها ابن الأثير في الباهر: النهضة العلمية، الإنجازات العمرانية الإنجازات العسكرية ضد الفرنج و الأوضاع الاقتصادية و منهج ابن الأثير في تأليف مقدمة الكتاب ومحتواها، لغة الكتاب، ومنهجه في عرض المادة العلمية و الحديث عن أهمية كتابه الباهر في تلك المرحلة وما قدمه من معلومات مهمة للمؤرخين في ذلك الوقت

الفصل الثاني: دراسة موارد ابن الأثير في الباهر.

الروايات الشفوية، ابن الأثير شاهد عيان، و الموارد المكتوبة:- كتب تاريخ، أبيات شعرية ، آيات قرآنية . ثمّ تمّ توضيح أبرز المآخذ التاريخية والمنهجية على كتابه .

أمّا الخاتمة فشملت نتائج البحث التي تمّ الوصول إليها

سائلة إياه - سبحانه - التوفيق والسداد، فله الحمد من قبل ومن بعد وصلى الله وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الفصل الأول

عصر ابن الأثير: سياسياً وثقافياً واقتصادياً واجتماعياً

(555-630هـ / 1160-1233م)

أولاً: الأوضاع السياسيّة

1- الأوضاع السياسيّة في بلاد الشام قبيل قيام الدولة الزنكيّة:

- أ- أوضاع الخلافة العبّاسيّة.
- ب- أوضاع الخلافة الفاطميّة.
- ج- السّلاجقة.

2- الدولة الزنكيّة:

- أ- تأسيس الدولة الزنكيّة.
- ب- العلاقات الزنكيّة- البوريّة.
- ج- الموجهات الزنكيّة- الصليبيّة.

3- الأيوبيون:

- أ- تأسيس الدولة الأيوبية.
- ب- صلاح الدّين الأيوبي والصليبيون.

ثانياً: الأوضاع الاقتصاديّة:

1- الأوضاع الاقتصاديّة في المشرق العربي الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين:

أ- الأوضاع الاقتصاديّة في العصرين الزنكي والأيوبي:

- 1[°] - الإقطاع في العصر الزنكي.
- 2[°] - الزراعة.
- 3[°] - الصنّاعة.
- 4[°] - التّجارة.

ب- الأوضاع الاقتصادية في العصر الأيوبي:

1[°] - الإقطاع في العصر الأيوبي.

2[°] - الزراعة.

3[°] - الصناعة.

4[°] - التجارة.

ثالثاً: الحياة العلمية :

1- منهج الكتابة التاريخية في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

2- العلوم.

3- المدارس في العصرين الزنكي والأيوبي.

رابعاً: الأوضاع الاجتماعية:

1- الأوضاع الاجتماعية في المشرق العربي الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين:

أ- الأوضاع الاجتماعية في الموصل وبلاد الشام في العصر الزنكي.

ب- الأوضاع الاجتماعية مصر وبلاد الشام في العصر الأيوبي.

خامساً: الحركة العمرانية:

1- المساجد.

2- البيمارستانات.

أولاً: الأوضاع السياسية:

عاصر ابن الأثير النصف الثاني من القرن السادس والرّبع الأول من القرن السابع الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وهي حقبة طويلة تمتد إلى حدود ثلاثة أرباع القرن⁽¹⁾ وتميزت بأحداث خطيرة. كان السلاجقة هم محور الأحداث في المشرق قبل مولد ابن الأثير 447-656هـ / 1055-1258م، الذين سُمي عصرهم بعصر النّفوذ السلجوقيّ التّركي، وهم الذين يمثلون أيضاً الحقبة الأخيرة من العصر العبّاسيّ الثالث، وفيه كانت نهاية الدولة العبّاسيّة، وسقوط عاصمتهم على يد المغول 656هـ / 1258م⁽²⁾.

1- الأوضاع السياسيّة في بلاد الشّام قبيل قيام الدولة الزنكية:

أ- أوضاع الخلافة العبّاسيّة:

بدأ الوهن يدبّ في أوصال العالم العربي والإسلامي منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ففي جناحه الشرقي خلافتان، إحداهما عبّاسية في بغداد، والأخرى فاطميّة في القاهرة، وقد أنهكتهما مشاكلهما الداخليّة، إذ باتتا عاجزتين عن حماية حدودهما، وحدّ أطماع الطامعين فيها، وقد تمثلت آنذاك بالروم البيزنطيين والصليبيين⁽³⁾.

في أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، كانت الدولة العبّاسيّة ماتزال قائمة في بغداد، واقتصرت سلطة الخليفة العبّاسيّ في خارج بلاده على المظهر الدّيني⁽⁴⁾.

إذ ضعفت الخلافة العبّاسيّة جداً، حتّى أصبحت لا تسيطر حقيقةً إلّا على العراق، كما أسلفنا الذكر. وكانت تتخذ من بغداد عاصمة لها منذ سنة 132هـ / 719م. وحول العراق كانت عشرات الإمارات المستقلة استقلالاً حقيقياً عن الخلافة، وإن كانت لم تعلن نفسها بصفتها خلافة مستقلة عن الخلافة العبّاسيّة، فاكتمى خلفاء الدولة العبّاسيّة في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بالمحافظة على لقب الخليفة فقط⁽⁵⁾.

(1) من سنة 555هـ إلى سنة 630هـ / 1160م إلى سنة 1232م.

(2) أبو الفداء، (عماد الدين إسماعيل، ت 732هـ / 1331م): المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب العربي، بيروت، دت، ج 3، ص 23.

(3) أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، ت 665هـ / 1268م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحيّة، دار الكتب العلميّة، ط 1، بيروت، 1422هـ / 2002م، ج 1، ص 20.

(4) الزركلي، خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، ط 14، بيروت، 1992م، ج 4، ص 331.

(5) الشامي، (أحمد): صلاح الدين و الصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، مكتبة النهضة العربيّة، ط 1، القاهرة، 1991م، ص 9.

فقدت الخلافة العباسية هيبتها السياسية، وتراجعت قوتها، فانقلبت من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم، وقامت في كنفها دول انفصالية مستقلة استقلالاً إما تاماً أو جزئياً، مع الاعتراف بسلطان الخليفة الروحي⁽¹⁾.

ومن الدول التي انفصلت عن الخلافة العباسية: الدولة السلجوقية والإمارات الأتابكية⁽²⁾ Atabeklik.

ابتدأت العلاقات العباسية-السلجوقية بالظهور ابتداءً من سنة 429هـ / 1037م، عندما أعلن طغرلبيك⁽³⁾ 429-455هـ / 1037-1063م⁽⁴⁾ قيام دولته في خراسان⁽⁵⁾، وأضحى السلاجقة منذ ذلك التاريخ يمثلون ظاهرة جديدة في حياة دولة الخلافة العباسية⁽⁶⁾.

ظلت العلاقات الطيبة قائمة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ما يقارب ثمانية عشر عاماً،⁽⁷⁾

كما أن محاولة طغرلبيك الاستئثار بالسلطات جميعها في العراق حتى المتعلقة منها بأمر الخلافة، دفعت بالعلاقات بين الجانبين إلى التدهور. استمرت العلاقات متوترة بين الجانبين العباسي والسلجوقي في ظل حكم السلطان ألب أرسلان 455-465هـ / 1063-1072م الذي خلف طغرلبيك⁽⁸⁾.

واستمرت الخلافات والنزاعات بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في عصر السلاطين الذين حكموا بعد ألب أرسلان، وازدادوا قوة ومنعة واستقلالية عن الدولة العباسية. وشهدت مدة الخلافة

(1) طقوش، (سهيل): تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام 521-630هـ / 1127-1233م، دار النفائس، ط2، بيروت

، 1431هـ / 2010م ص18.

(2) الأتابكية: يعبر عن صاحبها بأتابك العساكر، قال السلطان عماد الدين في تاريخه: "وأصله أتابك ومعناه الولد الأمير، وأول من لقّب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي حين فوّض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة خمس وستين وأربعمئة، ولقّب بألقاب منها هذا؛ وقيل أتابك معناه أمير أب، والمراد أبو الأمراء، هو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي، وغايته رفعة المحل وعلو المقام" القلقشندي، (أحمد بن علي ت 821هـ / 1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914م، ج4، ص18.

(3) طغرلبيك: محمد بن ميكائيل، السلطان الكبير، ركن الدين، أبو طالب، أصل السلجوقية، من بر بخارى، لهم عدد وقوة وإقدام، وشجاعة، فلا يدخلون تحت طاعة، عاش سبعين عاماً، كان بيده نيسابور وخوارزم وبغداد والري، وأصبهان. الذهبي، (شمس الدين ت 748هـ / 1374م)، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط11، بيروت، 1417هـ / 1996م، ج18، ص107.

(4) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ص20.

(5) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي: العراق أزد دار، وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند: طخارستان وغزنة، وسجستان وكرمانوليس ذلك منها إنما أطراف حدودها. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص350.

(6) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ص20.

(7) ابن الأثير، (علي بن محمد، ت 631هـ / 1232م): الكامل في التاريخ، تح: عبد السلام التدميري، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1417هـ / 1263م، ج8، ص71.

(8) طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص19.

العباسية انشقاق عددٍ من الإمارات والدول، فظهرت الدولة الفاطمية في الشمال الإفريقي ممتدة إلى مصر واستمرت ثلاثمائة عام، وقبلها كانت الدولة الطولونية في مصر وجنوب الشام، والدولة الإخشيدية في مصر، وفي بلاد فارس ظهرت دولة بني بويه، وقد أدى هذا كله إلى إضعاف الدولة العباسية وسقوطها وانقسام ممتلكاتها بين حكام مستقلين، فقامت أيضاً الدولة الأموية في الأندلس ودولة الأدارسة، ودولة الأغالبة في شمال أفريقيا، والدولة الحمدانية في شمال الشام وبلاد الجزيرة، والدولة الزيادية في اليمن، ودولة القرامطة في البحرين واليمن، والدولتين الطاهرية والصّفارية في خراسان، والدولة السّامانية في بلاد ماوراء النهر. أما في بغداد والعراق التي بقيتا للعباسيين أصبح فيهما الخليفة تحت وصاية المتغلب عليه من قوّاده الترك الأقوياء الذين أصبحوا يسيطرون عليه منذ زمن الخليفة المعتمد 218 - 227 هـ / 833 - 841 م، فظهرت لهم وظيفة إمرة الأمراء⁽¹⁾، التي أبطلت الوزارة والدواوين وأصبح لمتوليها السلطة كلّها دون الخليفة. وبهذا الضعف من قبل خلفاء العباسيين أطلق عليهم المؤرخين **الخلفاء المستضعفين**، وهو لقب ذكره ابن خلدون في مقدمته، كما ذكر أيضاً أبياتاً من الشعر تصف حال الخلفاء العباسيين في تلك المرحلة. فكتب:

خَلِيفَةً فِي قَفْصٍ	بَيْنَ وَصِيفٍ وَبَغَا
يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ	كَمَا يَقُولُ الْبَغَا ⁽²⁾

أما عن العلاقات العباسية مع الدولة الأيوبية فيما بعد فاتسمت بنوع من الودّ والوافق واعتراف من الخليفة العباسي. وتعود العلاقات الأيوبية مع الخلافة العباسية إلى زمن نشوء دولة بني أيوب في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي، الذي قام بالقضاء على الدولة الفاطمية وإنهاء الخطبة للخليفة العاضد لدين الله الفاطمي، وإعلان الخطبة باسم الخليفة العباسي المستضيء بنور الله و ذلك في 567 هـ / 1171 م، وهكذا سقط ذلك المنافس القوي للدولة العباسية⁽³⁾.
ب - أوضاع الخلافة الفاطمية:

ومن الجدير بالذكر أيضاً الحديث عن أوضاع الخلافة الفاطمية سياسياً، وكيف أنّ التدهور الذي لحق بها مهدّ السبيل لتدخل الدولة الزنكية زمن نور الدين في الشؤون الفاطمية؛ إذ إنّ الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي حلّت بمصر في عهد الخليفة المستنصر بالله وامتدت من 457 - 464 هـ / 1065 - 1071 م، أدت إلى إحداث تغييراتٍ سياسية كبيرة.

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص254. ظهرت وظيفة إمرة الأمراء لأول مرة في عهد الخليفة العباسي الرّاضي 322 - 329 هـ / 934 - 941 م.

(2) ابن خلدون، (عبد الرحمن بن محمد ت 808 هـ / 1406 م): مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، ط4، بيروت، دت، ص25.

(3) الشامي: صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، ص12.

وفي سنة 555هـ/ 1160م، قُتِلَ الخليفة الفائز، وسيطر على دولته الوزير الصالح بن زريك⁽¹⁾ الذي وصف بأنه كان صاحب مصر، ومن بعده تولّى العاضد 555هـ/ 1160م الذي صار مجرّد واجهة، في حين كانت السلطة الفعلية في يد الوزير الصالح الذي زوّج العاضد من ابنته؛ ليدعم نفوذه السياسي غير أنّ الخليفة تمكّن من قتل وزيره⁽²⁾.

نافست الخلافة الفاطمية في عهد الوزراء العظام الإمبراطورية البيزنطية في صراع دموي على السلطة السياسية. فإلى جانب سيطرة الوزراء على القرار السياسي في الخلافة الفاطمية، أسهم عامل آخر في إضعاف الخلافة الفاطمية والتناحر بين فئات الجيش الفاطمي المختلفة⁽³⁾.

إذ كان الفاطميون في مصر مازالوا يملكون مدناً محددة في شمال ساحل الشام وجنوبه⁽⁴⁾، والوزراء يتحكمون في الأمور تحكماً مستبداً يقضي فيها قضاء المسيطر المتسلط، لايبالي برأي الخليفة، ولايقيم له وزناً. كما أقدم الوزراء منذ زمن الأفضل الجمالي⁽⁵⁾، على ذكر أسمائهم على المنابر في خطبة الجمعة إلى جانب اسم الخليفة مصحوب بألقاب التكريم والتعظيم⁽⁶⁾.

وفي ضوء هذا الوضع الجديد تطّلت مصر في زمن ابن السلار الكردي وأيام طلائع بن زريك الوزيرين الفاطميين إلى ضم جهودهما إلى جهود نور الدين محمود حتى يستكمل تكوين الجبهة التي تستطيع مواجهة الصليبيين، تمهيداً لطردهم من البلاد التي كانوا قد احتلوها في حقبة الضعف والتفكك والانحلال⁽⁷⁾.

وفي رعاية نور الدين زنكي نشأ صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذي قدّر له أن يتوجّه إلى مصر ثلاث مرّات مع عمّه أسد الدين شيركوه⁽⁸⁾، قائد جيش نور الدين محمود، ثمّ استقر بها في المرة الثالثة ليتولّى وزارتها بعد وفاة عمّه ثمّ ليكون الرجل الذي ينهي حكم الفاطميين⁽¹⁾.

(1) الصالح بن زريك: أبو الغارات طلائع بن زريك الملقب، بالملك الصالح وزير مصر أصله من الشيعة الإمامية كان فاضلاً، شجاعاً، جواداً، وله شعر جيد، أكثره في مدح أهل البيت توفي 556هـ. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت 651هـ/ 1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دبت، ج2، ص426.

(2) الشامي: صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، ص12.
(3) عوض، (محمد مؤنس): في الصراع الإسلامي- الصليبي -السياسة الخارجية للدولة النورية 541- 569هـ/ 1146- 1147م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط1، القاهرة، 1998م، ص82.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص54.
(5) الأفضل الجمالي: الملك الأفضل أبو القاسم شاهنشاه أحمد بن أمير الجيوش بدر الدين الجمالي، كان وزيراً للخليفة الفاطمي المستنصر بالله. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص55.

(6) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص54.
(7) المقرئزي، (تقي الدين أحمد، ت: 845هـ/ 1442م): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين، القاهرة، 1416هـ/ 1996م ج3، ص7.

(8) أسد الدين شيركوه: هو أسد الدين أبو الحارث بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، أمير من أمراء بني أيوب وصاحب حمص ولد سنة 569هـ/ 1173م، ولّاه الملك الناصر صلاح الدين مدينة حمص بعد وفاة أبيه

فعمل صلاح الدين في أثناء توليته منصب الوزارة في مصر على محاربة الدولة الفاطمية، وساعده على ذلك أنه كان مشرفاً على القضاء على الفاطميين والدعوة لهم في آن معاً، وقام بالعديد من الإجراءات التي أضعفت الخلافة الفاطمية داخلياً في مصر من خلال هدم الأساس المعنوي وإنهاء دعوتها، ولم يتردد في إلغائها في مصر في أول جمعة من محرّم سنة 567 هـ / 1171 م وإرجاع الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله⁽²⁾.

ج- السلاجقة:

إلى جانب القوى العربية الإسلامية التي كانت موجودة في بلاد الشام والعراق ومصر، كان هناك قوة أخرى في منطقة آسيا الصغرى يحسب لها الحساب، ولها تأثير فاعل على مسرح الأحداث السياسية، وهي القوة السلجوقية التي تعدّ من أهم الدّول التي ظهرت على مسرح التاريخ العربي الإسلامي، وتوسعت سلطتها تدريجياً حتّى شملت أغلب المناطق الشرقية للخلافة العباسية، وسيطروا على الخلافة العباسية، وأصبحوا سلاطين بغداد وتمكنوا في عهد سلاطينهم طغرلبيك، وألب أرسلان، وملكشاه من حماية أراضي الخلافة العربية الإسلامية⁽³⁾.

كان توسّع السلاجقة في العراق وبلاد الشام في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، نقطة تحوّل في تاريخ هذه المنطقة، ففي عهد السلطان ملكشاه كان نفوذ هذه الدولة قد امتدّ من حدود الصين في الشرق إلى الشام في الغرب واليمن جنوباً⁽⁴⁾. لكن هذا النفوذ أخذ يتراجع ويتفكك بعد وفاة ملكشاه سنة 485 هـ / 1092 م، فقسمت الدولة بين ورثته إلى ممالك متنافسة وعمّت الفوضى، مما أسهم في نجاح الحملة الصليبية الأولى. وفي الوقت نفسه كان البيزنطيون يحاولون الحصول على مراكز حدودية ونقاط قوة للسلاجقة في شمال سورية وشرق آسيا الصغرى، فقد ذهبت وحدة السلاجقة وتماسكهم وانقسمت دولتهم إلى خمس ممالك متنازعة فيما بينها: مملكة سلاجقة خراسان وماوراء النهر وعلى رأسها سنجر⁽⁵⁾، ومملكة سلاجقة فارس وعلى رأسها بركياروق⁽⁶⁾،

ناصر الدين محمد توفي سنة 639 هـ / 1240 م. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 23، ص 39؛ ابن كثير (عماد الدين ت 776 هـ / 1374 م): البداية والنهاية، دار المعارف، ط 1، بيروت، ج 17، ص 249.

(1) المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج 3، ص 8.

(2) ماجد، (عبد المنعم): ظهور الخلافة وسقوطها في مصر التاريخ السياسي، دار الفكر العربي، ط 4، القاهرة، 1414 هـ / 1998 م، ص 389.

(3) زگار، (سهيل)، بيطار، (أمينة): تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتّى سقوط بغداد، ابن حيان، ط 8، 1428 هـ / 2007 م، ص 159.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 211.

(5) سنجر: سنجر ابن السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان بن طغرلبيك بن ميكائيل بن سلجوق الغزي، التركي، ولد سنة تسع وسبعين وأربعمئة، مات في سنة اثنين وخمسين وخمسمئة. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 20، ص 363.

(6) بركياروق: أبو المظفر بركياروق، الملقب بركن الدين بن السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان أحد الملوك السلجوقية بن ألب أرسلان، أحد ملوك السلاجقة، كان أخوه السلطان سنجر ولد في سنة أربع وسبعين وأربعمئة، وتوفي في سنة ثمان وتسعين وأربعمئة. ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج 1، ص 268.

ومملكة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج أرسلان⁽¹⁾، ومملكة سلاجقة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش⁽²⁾، وأخيراً مملكة سلاجقة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش⁽³⁾. وأخذت السلطنة السلجوقية تضعف منذ ذلك الحين⁽⁴⁾.

أخذت قوة السلاجقة في الشام تتحسر سريعاً بسبب الخلاف بين ولدي تتش رضوان صاحب حلب، ودقاق صاحب دمشق. وكان من مظاهر هذا الانحلال والانقسام السلجوقين، ظهور عدد من البيوت الحاكمة لاتجمعها رابطة إلا الاتصال بالبيت السلجوقي، ومنها الأتابكيات وأطلق على أصحابها اسم الأتابكة ومن أشهر هذه الأتابكيات أتابكية الموصل التي أسسها عماد الدين زنكي، وأتابكية دمشق التي أسسها ظهير الدين طغتكين⁽⁵⁾.

حاول الأمير السلجوقي تاج الدولة تتش أخ السلطان ملكشاه، ضم الولايات المتفرقة في الشام تحت قيادته، لكنه سقط في مواجهة ابن أخيه بركياروق قرب الرّي سنة 488هـ/ 1095م، وحاول أتباعه إكمال ما ابتدأ به لكن بنشاط أقل. إذ بدت إمارة سلاجقة الروم أكثر انفصلاً عن دولة سلاجقة المشرق بعد وفاته ولم يمضِ وقت طويل حتّى دخلت العراق وبلاد الشام ومصر طوراً جديداً من الوحدة بجهود آل زنكي والأيوبيين. وفي الوقت نفسه، كانت قوة السلاجقة في العراق وفارس تتهار بسبب النزاعات العائلية. عاشت بلاد الشام إثر دخول دولة السلاجقة مرحلة من الضعف والتجزئة، وفترة مظلمة من حياتها، وأصبحت موزعة بين قوى متعددة، ومما زاد التمزق أن السلاجقة حتّى في أيام قوتهم لم يحكموا أكثر بلاد الشام حكماً مباشراً. ولمّا أشرف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على الانتهاء، كانت بلاد الشام في حالة من الإنهاك والضعف الداخلي والخارجي، وكانت مجرّاة إلى دويلات صغيرة كلّ دويلة منها لها كيائها ومساحة وجودها، يتصارع بعضها مع بعض⁽⁶⁾.

(1) قلج أرسلان: هو عز الدين قلج أرسلان بن مسعود سلطان سلجوقي لسلاجقة الروم، حكم السلطنة، حتى وفاته سنة 588هـ/ 1192م.

(2) رضوان بن تتش: ابن ألب أرسلان بن طغرل بك بن سلجوق بن دقاق، أبو المظفر التركي السلجوقي ولد سنة خمس وسبعين وأربعمئة، ونشأ في دمشق في حجر أبيه، وتزوجت أمه من جناح الدولة فجعله أتابكاً له ومربياً. ابن العديم، كمال الدين ت 660هـ/ 1262م): بغية الطلب في أخبار حلب، تج: سهيل زكار، دار الفكر، 2010م، ج 8، ص 3659.

(3) دقاق بن تتش: صاحب دمشق، شمس الملوك، أبو نصر دقاق بن السلطان تاج الدولة تتش بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي التركي، تملك بعد مقتل أبيه سنة سبع وثمانين وأربعمئة فكان في حلب فطلبه خادم أبيه ونائب قلعة دمشق سراً من أخيه رضوان صاحب حلب، مات في سنة سبع وتسعين وأربعمئة فكانت دولته عشر سنين. ابن خلكان: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 210.

(4) الأصفهاني، (عماد الدين محمد بن صفى الدين ت 597هـ): تاريخ دولة آل سلجوق، دار الأفاق الجديدة، ط 2، بيروت، 1978م، ص 71؛ الحسيني، (صدر الدين علي بن ناصر، ت 622هـ): زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تج: محمد نور الدين، دار اقرأ، ط 1، بيروت، 1405هـ/ 1985م، ص 159؛ باركر، (آرنست): الحروب الصليبية، ط 2، دار النهضة، بيروت، ص 29.

(5) الحسيني، (صدر الدين علي بن ناصر، ت 622هـ/ 1225م): زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تج: محمد نور الدين، دار اقرأ، ط 1، بيروت، 1405هـ/ 1985م، ص 159؛ باركر، (آرنست): الحروب الصليبية، ط 2، دار النهضة، بيروت، ص 29.

(6) زكار، المحمد: تاريخ العصر العباسي الثالث، ص 189.

وبالحديث عن السلطنة السلجوقية، لا يستطيع الباحث أن يغفل حدثاً مهماً ارتبط ذكره بالسلاجقة وكان له الأثر الكبير في ظهور قوى سياسية جديدة في بلاد الشام، وهو معركة "مناذكرد" التي جرت أحداثها بين السلاجقة وبين الإمبراطورية البيزنطية، ففي هذه المعركة الحاسمة سنة 463هـ/ 1070م، هزم المسلمون فيها جيوش الإمبراطورية البيزنطية، وأسروا الإمبراطور رومانوس داجينيوس، وكانت هذه المعركة إنذاراً للغرب الأوروبي الذي بدأ يتلمس الخطر القادم من الشرق، إذ كانت هذه المعركة مسوّغاً من المسوغات التي دفعت بالتحرك الصليبي نحو الشرق سنة 488هـ/ 1095م، الذي كان مدفوعاً ومباركاً من قبل البابوية فجاء هذا التحرك كرد فعل على الكارثة التي حلت بالإمبراطورية البيزنطية على يد السلاجقة في مناذكرد سنة 463هـ/ 1070م⁽¹⁾.

أمّا في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وهي الحقبة التي حكم فيها الخليفة المستجد بالله 547-566هـ/ 1152-1170م، ضعف أمر السلاجقة كثيراً، وقوي أمر الخلفاء نسبياً⁽²⁾، وإن كانت السلطة الحقيقية بيد أمراء الولايات الذين عرفوا باسم الأتابكة. في هذه المرحلة توفي السلطان ملكشاه بن محمود 555هـ/ 1160م، وحرص على تسليم السلطنة لعمه سليمان بن محمد بن ملكشاه إلا أنه قُتل وبويع ابن أخيه أرسلان شاه بن أرطغرل⁽³⁾، واستمر حالهم هكذا حتّى في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أيام حكم الظاهر بأمر الله 622-623هـ/ 1225-1226م، إذ زاد أمرهم ضعفاً، وتولّى أمرهم بعد أرسلان شاه بن أرطغرل ابنه أرطغرل الثاني، غير أنه لم يكن قادراً على تنفيذ ما يريد، وقد غدت منطقة نفوذه ضيقة، في حين كانت تتسع الدولة الخوارزمية، واستطاع علاء الدين تكش أخيراً أن يستولي على البلاد التي كانت تسيطر عليها السلاجقة، وأن يقتل أرطغرل الثاني في 590هـ/ 1193م، وأن ينهي أمر السلاجقة⁽⁴⁾.

(1) زگار، (سهيل)، عبد الله المحمد، (أنس): تاريخ العصر العباسي الثالث من السلاجقة إلى سقوط بغداد، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، 1437هـ/ 2016م، ص 189.

(2) زكار، المحمد: تاريخ العصر العباسي الثالث، ص 189.

(3) شاكر، (محمود): التاريخ الإسلامي_ الدولة العباسية، المكتب الإسلامي، ط6، بيروت، 1421هـ/ 2000م، ج2، ص 297.

(4) شاكر: التاريخ الإسلامي الدولة العباسية، ج2، ص 302.

2- الدولة الزنكية:

أ- تأسيس الدولة الزنكية:

كانت الإدارة في خلافة العباسية والديولات التي قامت في كنفها قد أفسحت المجال تدريجياً أمام قيام نظام عسكري للحكم، وذلك في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. فقد جرى اختيار حكام المدن والأقاليم من بين القادة العسكريين أو الأمراء الذين كانوا في معظم الأحيان من الأتراك⁽¹⁾.

كان النظام الإقطاعي عنصراً مهماً في النظم السياسية والاجتماعية للسلاجقة، وجرى إلحاق قائد تركي بكل واحد من أمرائها، لُقّب بالأتابك؛ ليعاونه في إدارة شؤون الحكم، ويتحمل مسؤولية تربيته العسكرية. وبما أن الأتابك على علاقة بالسلطان السلجوقي فقد تمتع بسلطة تفوق سلطة القادة العاديين إلى حد كبير⁽²⁾.

وبسبب صغر سن الأمير، وافتقاره إلى الخبرة والتجربة في الشؤون العامة، قفز الأتابكة إلى الواجهة السياسية، وأضحوا أصحاب النفوذ الفعلي في إدارة الولايات التي يُعهد إليهم بحكمها من قبل السلطان⁽³⁾.

ومن أشهر الأتابكيات: أتابكية أرمنية، التي أسسها سقمان القطبي، مملوك قطب الدين إسماعيل الحاكم السلجوقي لمدينة مَرْنَد⁽⁴⁾، وذلك في عام 493هـ / 1099م، وأتابكية دمشق التي أسسها طغتكين⁽⁵⁾ مملوك تنش السلجوقي حاكم دمشق في 497هـ / 1103م، وأتابكية الموصل التي أسسها عماد الدين زنكي في 521هـ / 1127م⁽⁶⁾.

كان آق سنقر⁽⁷⁾ الملقب بقسيم الدولة جدُّ نور الدين محمود زنكي أول من ظهر على الساحة السياسية من أفراد هذه الأسرة التي تنتسب إلى قبائل الساب يو التركمانية⁽⁸⁾. بدأ حياته مملوكاً ورفيقاً

(1) جب (هاملتون): صلاح الدين الأيوبي دراسات في التاريخ الإسلامي، ط، بيسان، بيروت، 1996م، ص52.

(2) طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص42.

(3) طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص43.

(4) مَرْنَد: من أشهر مدن أذربيجان بينها وبين تبريز يومان. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص110.

(5) طغتكين: هو الأتابك ظهير الدين أبو منصور طغتكين، كان أتابك تنش بن ألب أرسلان السلجوقي، صاحب دمشق ثم أصبح أتابك دقاق بن تنش، وبعد أن مرض دقاق، عهد ولاية دمشق لطغتكين الذي أسس الدولة البورية في دمشق وحكم 497-523هـ / 1104-1028م، ابن القلانسي، (حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي، ت555هـ / 1160م): تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار حسان، دمشق، 1403هـ / 1983م، ص233.

(6) طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص42.

(7) آق سنقر: هو آق سنقر بن عبد الله، المعروف بقسيم الدولة، مملوك السلطان أبي الفتح ملك شاه، وقيل أنه لصيق به، وقيل اسم أبيه آل ترغان من قبيلة ساب يو. ابن العديم، (كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، ت660هـ / 1236م): بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، دت، ج8، ص1954.

(8) قبائل الساب يو التركمانية: وهي قبيلة من قبائل الأتراك تمتعت بمكانة رفيعة عند السلاجقة وانحدر منها آق سنقر قسيم الدولة. ابن العديم: بغية الطلب، ج8، ص3844.

لطفولة السلطان السلجوقي ملكشاه وشبابه. ولمّا اعتلى الأخير عرش السلطنة، جعله من المقرّبين، وقيل إنه أعطاه حجابته⁽¹⁾ وأطلق عليه لقب قسيم الدولة⁽²⁾.

قال عنه ابن الأثير: "كان قسيم الدولة تركياً من أصحاب السلطان جلال الدولة ركن الدين بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وممن ربي معه في صغره، وصحبه حتّى كبره، فلمّا أفضت إليه السلطنة بعد أبيه، وأفاضت تاجها عليه رعى لآق سنقر صحبتته، فجعله من أعيان أمرائه، وأخصّ أوليائه، فاعتمد عليه السلطان بمهمات، وأفضى إليه بأسراره في خلواته، ووثق به وثوقاً حسده عليه سائر أمرائه وأجناده، لما رأى من شجاعته وحزمه وسداد رأيه، وتقدّم عنده تقدماً، فاق فيه سائر الناس، واختصّه السلطان للقرب والإيناس"⁽³⁾.

وقال ابن القلانسي في كتابه ذيل تاريخ دمشق عن حكم آق سنقر لحلب وأعماله فيها: "أحسن فيهم السيرة، أبسط العدل في أهلها، أقام الهيبة، وأنصف الرعية، وتتبع المفسدين فأبادهم، وقصد أهل الشر فأبعدهم"⁽⁴⁾.

وابن واصل تحدّث عن أوضاع حلب الاقتصادية في عهده... رخصت الأسعار في أيام قسيم الدولة، وأقسمت الحدود الشرعية، وعُمرت الطرقات، وأُمنت السبل، وقُتل المفسدون بكل فج، وكان كلما سمع بمفسد أو بقاطع طريق أمر بصلبه على أبواب المدينة"⁽⁵⁾.

اعتمد السلطان على آق سنقر في كثير من الحروب ففي سنة 473هـ / 1080م، وعيّنه قائداً لجيش الموصل بصحبة عميد الدولة بن صهير، فاستطاع بما عُرف عنه من سداد الرأي ورجاحة العقل وقوة السياسة؛ إقناع أهل الموصل بترك العصيان وإطاعة السلطان وسلموا البلد لعميد الدولة⁽⁶⁾.

حكم آق سنقر حلب ما يقارب سبع سنوات أحسن فيها السياسة والسبل والسيرة، وأفنى قطّاع الطرق⁽⁷⁾، إذ عاشت إمارة حلب حقبة من المنازعات القبليّة والسياسيّة قبل دخول السلطان ملكشاه إليها، إذ تسلّم السلطة في حلب في شوال سنة 479هـ / 1087م، والبلاد في حالة من الفوضى التامة وجب عليه إزالتها، إضافة إلى أنّ السلطان ملكشاه اتكأ عليه في تنفيذ سياسة السلاجقة في بلاد الشام التي تسير ضمن اتجاهين، إحداهما إخضاع بلاد الشام لسلطانهم، والثاني مقاومة الفاطميين والقضاء

(1) ابن الأثير: الباهر، ص4؛ ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج1، ص243.

(2) ابن الأثير: الباهر، ص4. أبو شامة: تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص24.

(3) ابن الأثير: الباهر، ص4.

(4) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص196.

(5) ابن واصل، (جمال الدين محمد بن سالم، ت 697هـ / 1298م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: جمال الدين الشبالي، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1953م، ص244.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص135. ابن الأثير: الباهر، ص5.

(7) زگار؛ بيطار: تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتّى سقوط بغداد، ص167.

على سلطانهم في بلاد الشام ومصر، فكانت أولى أعماله إقامة الحدود الشرعية، وإزالة حالة الفوضى التي كانت تعيشها البلاد، والتخلص من المتطرفين في الفساد وملاحقتهم في كل مكان⁽¹⁾.

عادت سياسة أقي سنقر الحازمة بنتائج مهمة على المنطقة، فساد الاطمئنان، وأمنت الطرق، وانتشر العمران، وانتعشت التجارة، فخارجياً حاول كل من حكّام دمشق، وحكّام حلب مدّ سيطرتهم كلياً على بلاد الشام، وتبعاً لهذه القاعدة حدث صراع بين تتش وأقي سنقر⁽²⁾. فقد وقف أقي سنقر في وجه تتش الطامع في بلاده، وسعى للتوسع على حساب جيرانه، ولتحقيق هذا المشروع عمل على إنشاء جيش منظم يعتمد على حروبه، وتمثلت نواة هذا الجيش بالقوة التي تركها ملكشاه معه عندما رحل عن حلب، وتعدادها أربعة آلاف مقاتل، ثم تجاوزت الستة آلاف⁽³⁾.

وفي سنة 484 هـ / 1091 م، نزل تتش بجيوشه على طرابلس وكان بها قاضيه، وهو صاحبها جلال الملك بن عمار، ونصبوا المجانيق فأصبح عليهم ابن عمار وأظهر لهم منشور السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس، فلم يقبل منه تتش ذلك، فتوقف أقي سنقر عن قتاله وقال له تتش: "أنت تبع لي فكيف تخالفني؟ فقال: أنا تبع لك إلا في عصيان السلطان، فغضب تاج الدولة تتش، ورجع لدمشق⁽⁴⁾". فقد اشتد العداوة بين أقي سنقر وتتش إلى أن قام تتش بالانتقام من أقي سنقر وتحالف مع ياغي سيان صاحب أنطاكية، بعد أن زوّج ابنه رضوان من ابنته، كما جند قوات إضافية من بني كلاب، والتقى الجيشان عند تل السلطان⁽⁵⁾، القريب من حلب، ويبدو أن أقي سنقر لم يثق بمن كان معه من العرب خوفاً من أن يتبدّل ولاءهم عنه، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة ثم إلى القلب، ويبدو أنّ هذا التبدل في المواقع العسكرية أثر في قدراته القتالية، فدارت الدائرة عليه، ووقع أسيراً في يد تتش. فسأله تتش: "لو ظفرت بي ماكنت صنعت بي؟ قال: كنت أرى قتلك. قال: أنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي"⁽⁶⁾. فقتله وتسلم قلعة حلب، ودفن أقي سنقر خارج حلب⁽⁷⁾.

(1) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص135؛ ابن أبيك الدوادري، (عبد الله، ت736 هـ/1335 م): الدرّة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تح: صلاح الدين المنجد، القاهرة، 1961 م، ص70..

(2) زكار، (سهيل): مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، 1415 هـ/1995 م، ج1، ص215.

(3) زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص215.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص365؛ طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص53.

(5) تل السلطان: موقع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق، وفيه خان ومنزل للقوافل، وهو المعروف بالفنيدق، كانت به وقعة صلاح الدين يوسف و سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل سنة 571 هـ. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص43.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص368. الصلابي: (علي): الدولة الزنكية، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1428 هـ/2007 م، ص32.

(7) الصلابي: (علي): الدولة الزنكية، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1428 هـ/2007 م، ص32.

اضطربت أوضاع حلب بعد مقتل أقي سنقر، وذلك في أثناء حكم تتش لها⁽¹⁾، وكذلك في عهد خلفائه، وتعرضت لهجمات الصليبيين، الذين استقروا في الساحل، حتى اتفق رأي الحلبين على استدعاء إيل غازي بن أرتق لحكمها، إذ كان أرتق هذا هو الذي ينتمي إليه الأرتقة⁽²⁾ من مماليك السلطان ملك شاه⁽³⁾. عُدَّ أرتق واضع الكيان السياسي للأرتقة، توفي في القدس سنة 484هـ/ 1091م، مخلفاً إياها لولديه سقمان وإيل غازي، وقد تمكن أبناؤه من البقاء في القدس مدة بعد وفاته، وأسسوا إمارتين في ديار بكر، كما أسهموا في الصراع الذي شهدته بلاد الشام ولمقدرتهم قرّر أهالي حلب استدعاء إيل غازي، إثر تردي أوضاعها سنة 511هـ/ 1117م، فتولى مقاليد الأمور فيها، وفرض سيطرته على المواقع التابعة لها، وجمع الأموال اللازمة للدفاع عنها من الأتتالي، ووقف في وجه الصليبيين، وانتصر عليهم في معركة في تل عفرين⁽⁴⁾ التي عُرفت باسم ساحة الدم⁽⁵⁾، توفي إيل غازي 516هـ/ 1122م⁽⁶⁾، وكان هذا الحدث عظيم المصاأ على أهالي حلب خوفاً من الصليبيين ولم يكن خلفاؤه على قدر من المسؤولية، ف وقعت الخلافات بينهم، وعانت حلب الأمرين، ونشبت فيها ثورة إلى أن أصبحت تابعة لعماد الدين زنكي⁽⁷⁾.

ترك قسيم الدولة آق سنقر ولداً واحداً هو عماد الدين زنكي، وكان يومئذ صبيّاً له من العمر عشرة أعوام، فالتفّ حوله مماليك والده⁽⁸⁾. وقد اضطربت الأوضاع في حلب بعد مقتل أقي سنقر، وذلك في أثناء حكم تتش لها، وكذلك في عهد خلفائه، وتعرضت لهجمات الصليبيين الذين استقروا في الساحل حتى اتفق رأي الحلبين على استدعاء إيل غازي بن أرتق⁽⁹⁾ لحكم حلب.

(1) ابن خلدون: (عبد الرحمن ت 808هـ/ 1406م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر و ما عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيت الأفكار الدولية، تح: أبو صهيأ الكرمي، دت، ص 1248

(2) الأرتقة: من إحدى القبائل التركمانية، وهي قبيلة الدقروهي إحدى البيوت الكبيرة التي تنتمي إليها الغز، وينتسبون إلى جدهم، أرتق بن أكسب، انتظمت هذه القبيلة في صفوف القوات السلجوقية، بفعل استقطاب زعماء السلاجقة للقبائل التركمانية عن طريق، منحهم الإقطاعات والاستقلال الذاتي، داخل نطاق الدولة السلجوقية. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 1، ص 199؛ ابن الوردي: (زين الدين عمر بن مظفر، ت: 749هـ/ 1348م): تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1417هـ 1996م، ج 2، ص 15.

(3) ابن خلدون: العبر، ص 1250.

(4) العريني، (السيد الباز): الشرق الأوسط والحروب الصليبية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963م، ج 1، ص 330.

(5) كما أطلق المؤرخون المهتمون بدراسة الحروب الصليبية على هذه المعركة ساحة الدم لكثرة القتلى والخسائر المادية والبشرية التي تكبدها الصليبيون في مواجهتهم هذه مع المسلمين بقيادة إيل غازي الأمير الأرتقي ابن العديم: زبدة الحلب، ج 2، ص 190.

(6) ابن العديم، (كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، ت، 660هـ/ 1261م): زبدة الحلب من تاريخ حلب، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1417هـ/ 1996م، ص 203.

(7) خليل، (عماد الدين): الإمارات الأرتقية في حلب وبلاد الشام، مؤسسة الرسالة، لبنان، ص 262.

(8) ابن الأثير: الباهر، ص 15.

(9) ابن خلدون، العبر، ص 1250.

نشأ عماد الدين زنكي بعد وفاة والده نشأة بعيدة عن النفوذ والسلطان، ومن أهم العوامل التي ساعدت عماد الدين على الظهور سياسياً: الدور الذي قام به والده في خدمة الدولة السلجوقية، وتضحيتة بحياته في سبيل الولاء للسلطان بركياروق، وحكمه لإمارة حلب وسمعته الحسنة بين أهلها⁽¹⁾.

لم ينسَ بركياروق ما قدّمه والد عماد الدين زنكي من تضحيات لحماية عرشه، فما كان عليه إلا أن تعهد ابنه بالرعاية والعناية والاهتمام وكان آنذاك يقيم بحلب⁽²⁾. دخل عماد الدين زنكي في خدمة أتابكة الموصل منذ عام 489هـ/ 1096م، فخدم كربوغا، الذي اعتنى به، نظراً لما تربطه بوالده من علاقات طيبة قبل وفاته⁽³⁾.

وبعد وفاة كربوغا، خلفه جُكْرْمَش⁽⁴⁾ في حكم الموصل الذي خلفه جاولي سقاو⁽⁵⁾ في 495هـ/ 1102م، وكانت العلاقات بينهما وثيقة بفضل والد عماد الدين زنكي، وبقي عماد الدين زنكي ملازماً له حتى وفاته سنة 500هـ/ 1106م⁽⁶⁾، خلف جُكْرْمَش في حكم الموصل جاولي سقاو⁽⁷⁾ 500-501هـ/ 1106-1107م، وكان حينها عماد الدين زنكي قد بلغ مرحلة الشباب، فتعاون مع حاكم الموصل الجديد في بداية حكمه، قبل أن ينفر منه وينفصل عنه، بسبب خروجه على حكم السلطان محمد السلجوقي في 501هـ/ 1107م⁽⁸⁾.

وفي الواقع أنّ موقف عماد الدين زنكي هذا ليس بموقف غريب، فطالما تنعم والده بالعرّ والجاه والسلطان في كنف السلاجقة، الأمر الذي جعل حياة عماد الدين زنكي بعد والده تسير في المنحى نفسه من ولاء وخدمة للسلاجقة الذين أحسنوا معاملته ورعايته، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

وعندما عين السلطان محمد الأمير مودود بن التونتكين حاكماً جديداً على الموصل بعد جاولي، انضم عماد الدين زنكي إليه وأضحى من كبار أمرائه، وحصل منه على المزيد من الإقطاعات. إذ خاض معه معارك عدّة ضدّ الصليبيين في الجزيرة وبلاد الشام، ولاسيّما في أثناء حصار طبرية،

(1) طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص 83.

(2) ابن الأثير، (عز الدين، ت 630هـ/ 1232م): التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تح: عبد القادر طليمات دار الكتب الحديثة، القاهرة، ص 15؛ أبو شامة: تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين، ج 1، ص 25؛ ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج 1، ص 241.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 16.

(4) جُكْرْمَش: هو شمس الدولة جُكْرْمَش صاحب جزيرة ابن عمر من ديار بكر أصبح حاكم الموصل سنة 495هـ/ 1101م، بعد أن حاصرها أياماً ثمّ تسلمها صلحاً وأحسن السيرة فيها. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 9، ص 55.

(5) جاولي سقاو: هو جاولي سقاو كان أمير البلاد بين رامهرمز وأرحان، وأقام بها سنين وعمر قلاعها وحصنها، وأساء السيرة في أهلها ثمّ أقطع الموصل وديار بكر والجزيرة من السلطان محمد في 500هـ/ 1106م، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 9، ص 126.

(6) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 16.

(7) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 9، ص 126.

(8) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 17؛ أبو شامة: تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين، ج 1، ص 68.

الأمر الذي لفت له الأنظار، وأكسبه شهرة واسعة بين المسلمين. ولقب في هذه المرحلة بلقب زكي الشامي، تمييزاً له عن أحد الأمراء وهو زكي بن برسق صاحب همذان. انضم عماد الدين زكي إلى خدمة آق سنقر البرسقي، الذي خلف مودود في حكم الموصل بعد قتله على أيدي الحشيشية⁽¹⁾ في 507هـ/1113م، فاشترك معه في الحروب ضد الصليبيين⁽²⁾.

استطاع عماد الدين زكي أن يكتسب رضا سلاطين السلاجقة، وأن ينتقل في حكم البلاد بفضل ما أوتي به من حزم وشجاعة، ففي سنة 516هـ/1122م، عين آق سنقر البرسقي شحنة⁽³⁾ على العراق، فاصطحبه معه، وخاضاً معاً حروب ضد دببى بن صدقة أمير الحلة⁽⁴⁾. الطامع في السيطرة على بغداد، ثم ولّاه واسط⁽⁵⁾ للوقوف في وجهه، وتمكّن عماد الدين زكي أن ينتصر على دببى، وضمّ إليه النعمانية⁽⁶⁾؛ مما دفع البرسقي لإضافة البصرة إلى ولايته للتصدي لهجمات الأعراب الدائمة عليها⁽⁷⁾.

عندما توفي أمير الموصل عزّ الدين البرسقي في 521هـ/1127م. تولى أمرها أخ صغير له، تحت وصاية مملوك تركي يدعى جاولي، أدرك الفقهاء أنّ ضعف الموصل لابدّ وأن يؤثر في حلب وبلاد الشام في هذه المرحلة الحاسمة في تاريخ الصراع، إذ إن ذلك الفراغ السياسي وعدم وجود قوة عسكرية في الموصل لا بُدّ وأن يلقي انعكاساً على الصراع الصليبي الإسلامي، ولذلك قامت عائلة الشهرزوري المعروفة بالعلم والصلاح بدور كبير في تنصيب عماد الدين زكي على الموصل ليكون قائداً عسكرياً قوياً⁽⁸⁾، واعترافاً من عماد الدين بما بذله القاضي بهاء الدين الشهرزوري في تعيينه ورداً على جميله؛ عينه عماد الدين قاضي قضاة بلاده جميعها ومايفتحه من البلاد، وكذلك زاده أملاكاً واقطاعاً واحتراماً⁽⁹⁾.

(1) الحشيشية: هي طائفة اسماعيلية انفصلت عن الفاطميين في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كانت معاقلمهم الأساسية في بلاد فارس وفي الشام بعد أن هاجر إليها بعضهم من إيران أسّس الطائفة الحسن بن الصباح الذي اتخذ من قلعة الموت في فارس مركزاً لنشر دعوته، اتخذت دولة الحشاشين من القلاع الحصينة في قم الجبال معقلاً لنشر دعوتهم الإسماعيلية النزارية في إيران والشام ممّا أكسبها عداءً شديداً من الخلافة العباسية والفاطمية والزنكيين والأيوبيين. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص255.

(2) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص298.

(3) شحنة: معناها رئيس الشرطة، أو مدير الأمن، المشرف على الحراسة في المدينة، وكان الناس يطلقون هذا الاسم بمعنى الأمير في العصور الوسطى وهو خطأ شائع في ذلك الوقت. المقرئزي، (تقي الدين، ت: 845هـ/1442م): السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب، القاهرة، 1997م، ج1، ص35.

(4) الحلة: مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد. الحموي: معجم البلدان ج2، ص294.

(5) واسط: في العراق، أول أعمالها من شرقي دجلة فم الصلح، ومن الجانب الغربي رُزفامية، وآخر أعمالها من ناحية الجنوب البطائح. بناها الحاج بن يوسف الثقفي، بين 84هـ - 86هـ. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص347.

(6) النعمانية: بلدة بين واسط، وبغداد في نصف الطريق على ضفة نهر دجلة، معدودة من أعمال الزاب الأعلى، وهي قصبته. الحموي: معجم البلدان، ج، ص294.

(7) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص26.

(8) طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص86.

(9) الصلابي: الدولة الزنكية، ص33.

مال السلطان السلجوقي إلى تولية عماد الدين زنكي إمارة الموصل، لما علم من شهامته وتمكنه من إنجاز المهام التي أوكلت إليه من قبل، وأمره بالحضور، وبعد مناقشات قصيرة اقتنع السلطان بجدارة زنكي في القيام بأعباء المنصب الجديد، ومن ثم أصدر منشوراً بتولية الموصل والجزيرة، وما يفتتحه من بلاد الشام، وسلّمه ولديه ألب أرسلان والخفاجي ليكون أتابكاً لهما، وفقاً للتقاليد السلجوقية السائدة آنذاك، ومنذ ذلك الوقت سمي زنكي أتابكاً، وأصبح كلاً من ولدي السلطان محمود تحت إشرافه المباشر⁽¹⁾، وفي الثالث من رمضان 521هـ/1127م، وصل بغداد الأمير مجاهد الدين بهروز، قادماً من بلاد فارس فأرسل يتولى شحنة العراق، فغادر زنكي ورجاله عاصمة العراق نحو الموصل لتسلّم مهام منصبه الجديد، وبذلك عدّت أتابكية الموصل نواة الدولة الأتابكية⁽²⁾.

ب- العلاقات الزنكية - البورية :

حكم زنكي الموصل، مُعيداً سيرة أبيه في حكم حلب، وما إن مكّن زنكي نفسه من حكم الموصل حتّى نشط في سبيل مد سلطانه، وتوسعه فاستولى على جزيرة ابن عمر وعلى نصيبين⁽³⁾ ومنطقة الخابور⁽⁴⁾ وحرّان⁽⁵⁾ وسنجار، وتملك دولة شامية جزرية واسعة⁽⁶⁾، كانت هذه المملكة التي أسسها محاطة من مختلف جوانبها بأراضي دولة الرها وممتلكات الأرائقة من الجزيرة، ومن الجانب الشامي كان هناك إمارة أنطاكية، وإمارات آسيا الصغرى الإسلامية، وكليكية الأرمنية، وفي الجنوب واجه عماد الدين الدولة البورية، ولمّا لم يكن من السهولة العيش في هكذا وسط أمضى حياته ينتقل من معركة إلى أخرى⁽⁷⁾.

أدرك زنكي، حجم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه فقام بها، وأدرك أنّ عليه أن يوحد أجزاء الأمانة المتجزئة سياسياً، وأنّه ينبغي له ألاّ يدّخر أيّ جهد لتحقيق الوحدة وإزالة حالة الفوضى التي كان يعيشها العالم العربي والإسلامي في تلك الحقبة، وكانت خطته في العمل ضد العدو تهدف أولاً إلى إزالة مملكة الرها التي كانت أولى الممالك الصليبية في بلاد الشام، من ثمّ إسقاط أنطاكية حتى تُسدّ

(1) ابن شداد، (محمد بن علي بن ابراهيم): الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى زكريا عبّارة، وزارة الثقافة أحياء التراث العربي، د.م، 1978م، ج، ص167؛ طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص86.

(2) الصلابي: الدولة الزنكية، ص33.

(3) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة، على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة أيام. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص288.

(4) الخابور: بعد الألف باء موحدة، وآخره راء، وهو القاع الذي بنيت السدرة، أو من الخبر، وهو الأرض الرخوة ذات الحجارة، وهو اسم نهر كبير بين رأس عين والفرات في الجزيرة. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص334.

(5) حرّان: مدينة عظيمة، مشهورة في جزيرة أقور، وهي قسبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام وبلاد الروم. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص235.

(6) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص35.

(7) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص235.

الثغرة بين أعالي بلاد الرافدين شمالاً، وشمال بلاد الشام، وبذلك يكون قد تمكن من سدّ المنافذ البريّة للصليبيين، وقطع الإمدادات البيزنطية عنهم⁽¹⁾.

ما إن أسس عماد الدين زنكي إمارة الموصل في 521هـ/ 1127م، حتّى وجّه اهتمامه لضم ديار بكر التابعة للأرتقة الذين اتخذوا موقفهم من تحركه الذي كان في معظم الأحيان بالموقف الدفاعي، ممّا أدّى إلى انقسام خطير في سياستهم أثر بشكل مباشر على قوتهم العسكرية التي تراجعت⁽²⁾، ولأنّ وجود الأرتقة كان عائقاً أمام مشروعه الوحدوي كان وجود الأرتقة في ديار بكر عائقاً أمام إمارته الموصل بتأمين جسر يصله بحلب، وعائقاً في مواصلاته مع بلاد الشام، ولاسيّما في حالات صدامه مع الصليبيين⁽³⁾.

أدرك عماد الدين مدى خطورة التحالف بين أمراء الأرتقة على مشاريعه في منطقة ديار بكر، ورأى ضرورة اتباع سياسة التفرقة بينهم، فقام بالتقرّب من أحد هؤلاء الأمراء وهو حسام الدين تمرتاش الذي اتصف بالمرونة، فتقرّب منه وأوقف هجماته على ممتلكاته وتحالفا ووضعاً خطة لاقتسام ديار بكر، وكان أول عمل عسكري لهما هو محاولة ضم آمد⁽⁴⁾؛ ممّا أدّى إلى حدوث نزاعات بين الأمراء الأرتقة⁽⁵⁾.

والملفت للنظر أنّ لعماد الدين والأمراء الأرتقة هدف مشترك وهو أنّهما اتخذوا الموقف نفسه في مجاهدة الصليبيين فلماذا هذا الهدف لم يجمع بينهما؟ ولماذا لم يسعّ عماد الدين لكسبهم إلى جانبه بدلاً من أن يفتح أمامه جبهة قتالية ثانية غير الصليبيين، وهو في غنى عنها في تلك المرحلة؟ ضعف التحالف بين عماد الدين وتمرتاش لدرجة أصبح لا يستطيع الاعتماد عليه في مساعدته له على تنفيذ مشروعه، أدرك الأمراء الأرتقة الذين اشتدّ النزاع بينهم أنّ قوتهم آخذة بالضعف، وأنّ عماد الدين هو المستفيد الوحيد، فقرروا وضع حدّ لخلافاتهم من أجل ذلك⁽⁶⁾. وفي أواخر عهد عماد الدين زنكي 537هـ/ 1143م، قام عماد الدين زنكي، بحملة واسعة ضد عدد كبير من الحصون الواقعة في أقاصي ديار بكر، وضمّها إلى أملاكه، ثم توجّه إلى ميفارقين⁽⁷⁾، ولكنه لم يستطع السيطرة عليها،

(1) زكار ؛ عبد الله المحمد : تاريخ العصر العباسي الثالث من السلاجقة إلى سقوط بغداد، ص228.

(2) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة وبلاد الشام، ص15.

(3) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة وبلاد الشام، ص15.

(4) آمد: بكسر الميم، وما أظنها إلا لفظاً رومية ولها في العربية أصل حسن لأن الأمد الغاية، مدينة آمد في الإقليم الخامس، تقع حيث موقع ديار بكر اليوم، طولها خمس وأربعون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص56.

(5) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة وبلاد الشام، ص15.

(6) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة وبلاد الشام، ص15.

(7) ميفارقين: أشهر مدينة في ديار بكر وطول ميفارقين سبع وخمسون درجة ونصف وربع وعرضها ثمان وثلاثون درجة. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص235.

فعاد إلى نصيبين، وبعد مواجهات عدّة معهم، جاء مقتله عند قلعة جعبر في 541 هـ / 1146 م، متنفساً أمام الأراتقة الذين خلصهم القدر من هذا الخطر⁽¹⁾.

هكذا كانت علاقة عماد الدين زنكي بالأراتقة الذين عدّهم عائقاً له أمام تنفيذ مشروعه الوحدوي في بلاد الشام، وهو العائق الذي توفي قبل أن يتخلص منه.

وفي جانب آخر كان أمام عماد الدين مهام أخرى ينبغي له الالتفات إلى إنجازها ليحقق تطلعاته في تأسيس دولة واحدة، فكان أمامه البوريين في دمشق، وبالحدث عن هذه الدولة التي كان مؤسسها ظهير الدين طغتكين الذي تسلّم مقاليد الأمور بعد وفاة دقاق، وكان طغتكين أتابكاً له سنة 497 هـ / 1104 م، وقد وسّع نفوذه وضم إليه حمص وحماة والرحبة، ولأن أولاده كانوا صغاراً فكانت الفرصة سانحة أمام طغتكين لجعل لنفسه الأمر والنهي في الدولة، وكان ينبغي من ذلك تأسيس ملك له ولمن يأتي بعده من أولاده⁽²⁾، عمل طغتكين على أن تكون علاقته حسنة مع الفاطميين، وعمل على كسب ولاء وطاعة حكام المناطق التابعة لدمشق له، وعزل الذين يدينون بالطاعة لأبناء دقاق. وقف طغتكين في الحقة الأولى من حكمه موقف المهاجم للصليبيين، وحقق بعض النجاح في هذا المجال، ثم عقد معهم هدنة تقضي بإيقاف الحرب معهم أربع سنوات⁽³⁾. توفي ظهير الدين طغتكين في 522 هـ / 1128 م، وتسلّم بعده ابنه تاج الدين بوري، وهو الذي أخذت الدولة اسمه⁽⁴⁾، فتعرّض منذ مطلع حكمه للمؤامرات والهجمات الصليبية، كما كانت ولايته مطمعاً لعماد الدين زنكي الذي ما إن رتبّ أموره في حلب حتّى توجه بأنظاره نحو أواسط بلاد الشام وجنوبها، واستطاع عماد الدين أن يضم حماة لملكه، لكنّ تاج الدين أعادها قبل وفاته سنة 526 هـ / 1131 م، بعد أن أوصى بالولاية لولده شمس الملوك إسماعيل، وأوصى ببعليك وأعمالها لابنه محمد، وسرعان ما نشب صراع بين الأخوين وانتهى الصراع لصالح إسماعيل الذي تسلّم الأمور وتعرّضت الدولة في عهده لمطامع الصليبيين، وتردت الأوضاع الداخلية للدولة البورية في عهده، ولما رأى أن المعارضة الداخلية اشتدت ضده، وأن الأوضاع الداخلية ساءت، استتجد بعماد الدين زنكي طالباً منه الحضور لاستلام دمشق سنة 529 هـ / 1134 م⁽⁵⁾. ولكن الحظ لم يحالفهما، إذ قتل شمس الملوك وتسلّم أخوه شهاب الدين محمود الحكم في دمشق، ولم يستطع عماد الدين زنكي أن يضمّها بسبب استبسال أهلها في الدفاع عنها، ولكنه عاود التوسع على حساب الدولة البورية، إذ حاصر حمص مرات عدّة ولكنه

(1) طقوش: الدولة الزنكية، ص 115.

(2) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 144؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 374.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 467.

(4) زكار؛ بيطار: تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتى سقوط بغداد، ص 45.

(5) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 247؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 400.

أخفق في فتحها⁽¹⁾، فنقل ميدان عملياته إلى بعلبك، التي استسلم قائدها. عمل عماد الدين زنكي على توحيد بلاد الشام لكن الدولة البورية وقعت أيضاً عائقاً أمامه⁽²⁾.

اغتيال عماد الدين زنكي، ليلة الخامس من ربيع الآخر 541هـ/ 1146م، خلال حصاره لقلعة جعبر، عندما انقضَّ عليه وهو نائم عدَّة غلمان من مماليكه المقرَّبين الذين كانوا يقومون على حراسته في أثناء نومه، وقد هربوا بعد قتله إلى قلعة جعبر، ونادوا أصحابها بحقيقة الأمر ففتحوا لهم الأبواب، وما إن انتشر نبأ الاغتيال في معسكره حتى اضطرب وتشتت وصادته الفوضى، فلم يرَ قادته بُدأً من فك الحصار والرحيل⁽³⁾.

بعد مقتل زنكي أمام قلعة جعبر، انقسمت دولته قسمين: شامي، وجزري. استقر على القسم الجزري الموصل وماحولها ابنه الكبير سيف الدين غازي⁽⁴⁾، وعلى القسم الشامي دمشق وحمص وحماة ابنه نور الدين محمود. أتاحت وفاة زنكي وتقسيم ملكه فرصة طيبة لأعدائه للتحرك، ففي الجنوب أسرع معين الدين أنر حاكم دمشق إلى إرسال قوة احتلت بعلبك⁽⁵⁾ وأخضعت حكام حمص وحماة، وفي الشرق استردَّ الأراتقة بعض المدن التي سلف أن أخذها منهم زنكي. وفي ديار بكر تفرَّغ نور الدين محمود لشؤون الشام، ووجه اهتمامه نحو دمشق، والتركيز في نشاطه ضد صليبي بلاد الشام وعدم التدخل بغير ذلك من الأمور، كان الأتابكي معين الدين أنر يحكم دمشق آنذاك باسم الطفل مجير الدين آبق، فلما توفي زنكي أرسل أنر حملة استردت بعلبك، واتفقت مع حكام حمص وحماة على إعلان الولاء له؛ ولما تولى نور الدين السلطة تبادل السفارات مع الدولة البورية حتَّى استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية⁽⁶⁾، وحدث في سنة 544هـ/ 1149م، أن توفي سيف الدين غازي الأخ الأكبر لنور الدين، وصاحب الموصل، وحاولت بعض الأطراف توريط نور الدين بمشاكل الجزيرة والموصل فأخفقت، واجتمع نور الدين بأخ سيف الدين غازي ويدعى قطب الدين مودود الذي تولى شؤون الموصل واتفقت كلمتهما واتحدت آرائهما، وكل واحد منهما لا يصدر

(1) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص248؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج، ص441؛ خليل، (عماد الدين): عماد الدين زنكي، دار الرسالة، ط1، بيروت، 1402هـ-1982م، ص115.

(2) طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص116.

(3) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص284؛ الصلابي، (علي محمد): السلطان الشهيد عماد الدين زنكي شخصيته وعصره، مؤسسة اقرأ، ط1، القاهرة، ص147.

(4) سيف الدين غازي: غازي بن مودود بن زنكي بن آق سنقر التركي سيف الدين صاحب الموصل و اخ السلطان العادل نور الدين محمود الشهيد، كان من أحسن الناس صورة وكان عاقلاً وقوراً توفي سنة خمس مائة وست وسبعون هجرية. ابن الجوزي، (شمس الدين، ت581هـ-654م): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تح: إبراهيم الزبيق، دار الرسالة العلمية، ط1، دمشق، 1434هـ-2013م، ج21، ص270؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص88.

(5) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص149.

(6) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص450؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص199.

إلا عن أمر أخيه، وتنازل لقطب الدين عن سنجار مقابل الرحبة وحمص⁽¹⁾، وبهذا العمل خطا نور الدين أول خطواته في طريق توحيد بلاد الشام. وفي السنة نفسها، توفي معين الدين أنر المتحكم بدمشق، وبذلك عادت الأمور إلى مجير الدين آبق، وكان ضعيف الشخصية، سيئ التدبير، لهذا كثر الطامعون في الولاية، ولاسيما الصليبيين مما دفع نور الدين إلى قيادة قواته إلى هذه المنطقة، ولدى زحفه جنوباً كتب إلى من في دمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد ويستدعي منهم المعونة، وكانوا قد عاهدوا الصليبيين، أن يكونوا يداً واحدة، إذا قصدهم المسلمون⁽²⁾، ويبدو أن نور الدين كان على معرفة بمسألة التهادن والتحالف بين مجير الدين آبق وبلدوين الثالث ملك مملكة القدس، ومن حوران جدد نور الدين مراسلة الدولة البورية في دمشق قائلاً: "لأنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً محاربتكم، ولا منازلتكم، إنما دعاني إلى هذا كثرة شكايه المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم وشئت نساؤهم وأطفالهم بيد الإفرنج، عَدَمَ الناصر لهم..."⁽³⁾، لم تُجد هذه المرة أيضاً في دخول دمشق، عاد نور الدين إلى حلب، ومن ثم عاود المحاولة سنة 546هـ/1151م، بقيادة قواته نحو دمشق وشرع بحصارها وجمع المؤن، وشدد التضييق عليها، لكن وصلت في أثناء الحصار الأخبار إلى نور الدين بوصول جيش الصليبيين إلى حوران وزحفها نحو دمشق، فاضطرَّ نور الدين محمود إلى رفع الحصار عن دمشق إذ دخلها بشكل سلمي دون إراقة الدماء، عندما قام أهالي دمشق بفتح باب شرقي وباب توما، وفي 549هـ/1154م، عاود نور الدين زحفه إلى دمشق، وفي هذه المرة استطاع الدخول بفضل الأسلوب الذي اتبعه وهو زرع الخلاف بين مجير الدين آبق وقادته، حتى تفرقوا من حوله⁽³⁾. وفي الواقع يُعدُّ دخول نور الدين إلى دمشق حدثاً عظيماً في بلاد الشام منذ انطلاق الحروب الصليبية في المنطقة، فبذلك تمَّ توحيد بلاد الشام، وغدت مدن بلاد الشام تابعة لنور الدين محمود⁽⁴⁾، وقد أشار أبو شامة إلى ذلك في كتابه، إذ كتب " ألقى الإسلام جرائه بدمشق، وثبتت أوتاده"⁽⁵⁾.

بعد أن ضمَّ نور الدين حرَّان، ومنبج⁽⁶⁾، وفتح قلعة جعبر، قرر نور الدين في 566هـ/1170م، التوجه للموصل؛ لما كان قد نشب فيها من صراعات داخلية، فقرر التدخل فيها وفقاً لمصلحته، وأرسل إلى الخليفة العباسي، الحسن بن أبي محمد المستضيء بأمر الله، يشرح له الهدف من هذا

(1) ابن الأثير: الباهر، ص96..

(2) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص479؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص199؛

(3) زكار؛ عبد الله المحمد،: تاريخ العصر العباسي الثالث من السلاجقة إلى سقوط بغداد، ص256.

(4) ابن واصل: مفزج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1، ص127.

(5) أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص307؛ الصلابي: السلطان الشهيد عماد الدين زنكي شخصيته وعصره، ص147.

(6) منبج: يفتح ثم السكون، وباء موحدة مكسورة، بلد قديم، وما أظنه إلا رومياً ذكر بعضهم أن أول من بناها كسرى، وهي مدينة واسعة ذات خيرات كثيرة بينها وبين الفرات ثلاث فراسخ وبينها وبين حلب عشر فراسخ. الحموي: معجم البلدان ج5، ص206.

التوجه مؤكداً شرعيته، فقال: "إني قصدت بيتي وبيت والدي، فأنا كبيره ووارثه".⁽¹⁾ وأوصى رسوله إليه بأن يأخذ له إذنًا في ذلك.⁽²⁾

عبر نور الدين محمود الفرات عند قلعة جعبر، في 566 هـ / 1170 م، قاصداً الرقة وكانت من أملاك أخيه سيف الدين غازي الأول، فأذعن نائبها له، وسلمه إيّاها⁽³⁾، ثم تابع زحفه نحو الموصل، فانترع الخابور كله، وأخذ نصيبين، فأقام بها يحشد العساكر من الأطراف، ثم توجه إلى سنجار، وبها حامية الموصل، فحاصرها، وأقام المجانيق عليها، ووفد عليه في أثناء الحصار عدد من أمراء الموصل يستحثونه على القدوم إليه حتى سقطت في يده، وتابع زحفه باتجاه الموصل، فوصل إلى بلده وعبر دجلة إلى الجانب الشرقي، واستطاع دخولها وضمها إلى ممتلكاته⁽⁴⁾. وكان من أعماله أيضاً أنه تطلع إلى توحيد بلاد الشام مع مصر، فكانت حملاته إلى مصر حملة في 559 هـ / 1163 م⁽⁵⁾، والثانية في 562 هـ / 1166 م⁽⁶⁾، والحملة الأخيرة في 564 هـ / 1168 م⁽⁷⁾. وبينما كان نور الدين محمود يستعد للسير إلى مصر، فاجأته الحمى واشتد به المرض حتى لقي ربه عز وجل في 569 هـ / 1147 م⁽⁸⁾ في قلعة دمشق، وأقام مقامه ولده الملك الصالح إسماعيل⁽⁹⁾.

ج- المواجهات الزنكية- الصليبية:

يمثل القرن السادس الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي، حلقة من أخطر حلقات الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب، فقد ألقى الغرب بكل ثقله، في المنطقة الإسلامية، وتمكّن من إقامة إمارات صليبية في الشام وفلسطين، وفي الوقت الذي بدأت فيه القوى الإسلامية تستعيد قوتها وتتحد لتطرد الصليبيين من المنطقة، برزت الإمبراطورية البيزنطية محاولة أن تسيطر على الشرق الإسلامي، وإعادة بسط نفوذها على المنطقة. فاستغل الصليبيون تدهور أوضاع المسلمين في الشرق الأدنى، وسعوا إلى توسيع نفوذهم في المنطقة، فكانت سراياهم تبلغ أمد، ونصيبين، ورأس العين، وأما الرقة وحران، فكانتا تعيشان في حالة من الخوف والذعر من الفرنج⁽¹⁰⁾. كانت أولى الحملات التي تُصدي

(1) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 480 P أبو شامة: عيون الروضتين، ج 1، ص 240.

(2) الصلابي: السلطان الشهيد عماد الدين زنكي شخصيته وعصره، ص 257.

(3) طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص 184.

(4) طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص 184.

(5) ابن الأثير: الباهر، ص 121. ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص 76.

(6) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج 2، ص 13؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 1، ص 149؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، مصر، دت، ج 5، ص 348.

(7) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 9، ص 100؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج 1، ص 431؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج 1، ص 160.

(8) بهاء الدين، (ابن شداد، ت: 632 هـ / 1235 م): سيرة صلاح الدين، تح: سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون، الاسكندرية، دت، ص 36؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج 6، ص 168.

(9) ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص 36؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج 6، ص 168..

(10) ابن الأثير: الباهر، ص 32.

بها للصليبيين هي تلك الحملة التي اشترك فيها إلى جانب مودود بن التونتكين صاحب الموصل، تلك الحملة التي استهدفت فتح الرها في 505هـ/1111م، واستعصت المدينة أمام القوات الإسلامية، وشارك عماد الدين زنكي أيضاً في سنة 507هـ/1113م، في الهجوم الذي شنّه تحالف مودود، وطغتكين ضد ممتلكات إمارة بيت المقدس، وقد أظهر خلال المعارك شجاعة فائقة لم يسمع بمثلا⁽¹⁾، أدت مواقف عماد الدين زنكي من الصراع ضد الصليبيين دوراً بارزاً في تحديد مستقبله السياسي، إذ دفعت السلطان السلجوقي إلى توليته والياً على الموصل والجزيرة ومايفتحه من بلاد الشام⁽²⁾، وقد سلف الذكر إنّه في بداية حكمه للموصل لم يمارس أيّ عمل عسكري ضد الصليبيين قبل أن يثبت أقدامه في إمارته الجديدة، فوقع هدنة مع جوسلين الثاني، أمير الرها لمدة سنتين، أخذ في أثناءها يوطد سلطانه في بلاد الشام، ونجح في تحقيق هدفه هذا. كما أنه في سنة 524هـ/1130م، كان أن صادفت إمارة أنطاكية الصليبية ظروفاً كادت أن تنتهي بسقوطها بيد عماد الدين الزنكي، وهي مشكلة وراثية أنطاكية، وانهمك عماد الدين زنكي في السنوات الأربع التي تلت هذه المشكلة في تنظيم شؤون إمارته، ولم يستطع أن يوجه اهتماماً إلى الصليبيين، انقضت سنة 528هـ/1133م، بهدوء نسبي، باستثناء ماحدث من غارات على المناطق الحدودية بينهما، استخدم عماد الدين كل قواته، بعد أن أنهى مشاكله مع إمارة دمشق، في مهاجمة أنطاكية، فباشر زحفه، واستطاع أن يفتح مايقع شرقي أنطاكية، من الحصون مثل، كفر طاب⁽³⁾، ومعرة النعمان وغيرها. وبذلك فقدت أنطاكية معاقلها على الحدود⁽⁴⁾، تابع عماد الدين إنجازاته ففتح بارين⁽⁵⁾، وتابع هجومه على الإمارات الصليبية فكانت النتيجة بينهما بين غالب ومغلوب، وفي كل مرة يعيد عماد الدين زنكي فيها التقدم والمحاولة، وبعد هدوء نسبي بين الطرفين، كانت إمارة الرها تعاني من اضطراب في أوضاعها الداخلية إذ شهدت تنازعات بين الأمراء الصليبيين، مما دفع عماد الدين بعد إخفاقه في ضم دمشق، من أن يوجه نشاطه الجهادي، إلى جهة أخرى فكانت إمارة الرها هي وجهته ومقصده، تذرّع عماد الدين للقيام بحملته ما حصل مؤخراً من تحالف بين جوسلين الثاني وقرأ أرسلان الأرمني، فانهك العدو بالحملات المتلاحقة، استطاع عماد الدين من أن يفتح بعض الحصون

(1) ابن الأثير: الباهر، ص17.

(2) ابن شداد: الاغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج3، ص167؛ الصلابي: الدولة الزنكية، ص33. طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص86.

(3) كفر طاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعون من مياه الأمطار في الصحاريح. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص470.

(4) ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص451؛ رنسيما، (ستيفن): تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1402هـ/1997م، ج2، ص379.

(5) بارين: بكسر الراء، وياء ساكنة والنون، والعامية تقول بعرين، وهي مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص320.

الصليبية، العائدة لإمارة الرها. ومهد الطريق أمامه لإنزال ضربته المباشرة بالرها، وتحقيق حلمه الذي طالما راوده، فكان أمرها ماثلاً في خاطره وقلبه⁽¹⁾.

وبعد مقتل عماد الدين زنكي، آلت أمور التصدي للصليبيين إلى نور الدين محمود، الذي كان له في هذا المجال مواجهات ومعارك عدّة معهم، وبالحديث السريع عن مواجهاته مع الصليبيين، يبدأ الحديث هنا من الحملة الصليبية الثانية 543هـ/1148م⁽²⁾، التي عاصرها نور الدين، وإذ بها تصل إلى الشرق لتحيي في نفوس الصليبيين روحاً جديدة، بعد أن كانت معاركهم مع جيوش المسلمين قد أنهكت من قواهم، توجه قادتها نحو دمشق بهدف الاستيلاء عليها، وبعد حصارهم لدمشق أخفقت حملتهم بسبب ملاقوه من مقاومة، فأنت معركة يغرى⁽³⁾ بين نور الدين محمود وريموند، ودارت بين الطرفين رحى معركة قاسية عند مكان يعرف بـ يغرى إلى الشمال الشرقي من بحيرة العمق، انتهت بانتصار نور الدين محمود وقتل المسلمون فيها عدداً كبيراً من رجال الفرنجة⁽⁴⁾، وكانت المواجهة التالية هي معركة إنب⁽⁵⁾، هذه المعركة التي كانت نتائجها كارثية على الصليبيين، حيث قتل نتيجتها قائد الفرنجة، وزال عن مسرح الأحداث رجل من أشد خصوم المسلمين قوة، وأكثرهم كراهية لهم، واستغل نور الدين محمود الحالة التي آل إليها الصليبيين من توتر بعد مقتل ريموند، وكثف جهوده، إذ نجح في فتح جميع ممتلكات إمارة أنطاكية، شرقي نهر العاصي، ومن ثم وجّه جهوده لتصفية إمارة الرها والتخلص منها، ولم يكن الأمر سهلاً؛ لما تتمتع به هذه الإمارة من مكانة مهمة لدى الصليبيين، وبعد ضمّه لدمشق تابع نشاطه بقوة ضد الصليبيين، إذ استولى على بعلبك 552هـ/1157م، ثم على صرخد⁽⁶⁾، وبصرى سنة 555هـ/1160، وبعد عامين حاصر حارم فأخفق أمامها، وكرر الهجوم عليها سنة 559هـ/1164م، فتمكن من طرد الصليبيين⁽⁷⁾، ومن ثم كثف نور الدين حملاته على مصر ووجه نشاطه لضمها، بمحاولة منه بتوحيد بلاد الشام ومصر⁽⁸⁾.

(1) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص436.

(2) عاشور، (سعيد): الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ط1، مكتبة الطالب، 1963م، ص630.

(3) يغرى: هي مدينة في كف جبل الأكراد بينها وبين أنطاكية حوالي 29 كيلومتر على يمين القاصد لأنطاكية من حلب وهي شمال شرق بحيرة العمق، عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص637.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص22.

(5) إنب: حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص258.

(6) صرخد: بالفتح ثم السكون والخاء معجمة، والبدال مهملة: بلد ملاصق حصينة، وولاية حسنة واسعة ينسب إليها الخمر. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص401.

(7) ابن الأثير: الباهر، ص38؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص436.

(8) ابن الأثير: الباهر، ص38؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص436..

3- الأيوبيون:

أ- تأسيس الدولة الأيوبية:

وبعد وفاة نور الدين محمود، اضطربت الأوضاع في بلاد الشام بفعل الخلافات بين الأمراء؛ فاستغل الصليبيون ذلك، وهاجموا الأراضي الإسلامية؛ مما استدعى تدخل صلاح الدين، وحتى يعطي تدخله مسوغاً شرعياً يحافظ على ما سوف يحققه من إنجازات، كتب إلى الخليفة العباسي يصور له أوضاع بلاد الشام السياسية المضطربة.

سكن المناطق الجبلية في أعالي الجزيرة شمالي الموصل، وشمالها الشرقي، عدد كبير من القبائل الكردية، وكان الأكراد غالباً ما يهاجرون، إلى بلدان الجزيرة، حيث يندمجون بسكانها. ولارتباط تاريخ الأيوبيين بتاريخ الزنكيين، لا بدّ من الحديث بشيء من الإيجاز عن أصل الأيوبيين وظهورهم في المشرق السياسي؛ إذ امتد تاريخ دولتهم ثلاثة أرباع القرن 569-648هـ/1173-1250م، وأصل الأسرة الأيوبية من الأكراد.

أمّا عن حياة صلاح الدين الباكورة فقد عاش في البلاط النُوريّ في دمشق وحلب، وحين بلغ الواحدة والعشرين من عمره عينه نور الدين 554هـ/1160م، في وظيفة شحنة دمشق⁽¹⁾، أبوه نجم الدين أيوب وعمّه أسد الدين شيركوه، التقيا بعماد الدين زنكي، سنة 527هـ/1132م، حين وصل زنكي إلى قرية تكريت، منهزماً في الحرب التي نشبت بينه وبين الخليفة العباسي المسترشد، فحلت الهزيمة بزنكي في تكريت، وفي دولة نور الدين محمود بلغ الأخوان، أسد الدين شيركوه، ونجم الدين أيوب ذروة المجد، فقد تولى شيركوه وظيفة نائب السلطنة في حلب، وصار له إقطاع كبير بحمص، كما تعين نجم الدين أيوب حاكماً على دمشق⁽²⁾.

وبعد وفاة نور الدين محمود آلت الأمور إلى صلاح الدين الأيوبي، استطاع صلاح الدين القضاء على الفاطميين في مصر، وفي أيام نور الدين محمود، رافق عمه أسد الدين شيركوه في حملاته على مصر، كانت مصر بمتاعبها وضعفها تثير شهية جيرانها كلّهم، كما كانت أخبار التدهور الداخلي معروفة لهم جميعاً⁽³⁾ وعندما أخفق الصليبيون في الجبهة الشمالية، اتجهوا صوب مصر، واستغل الملك الصليبي بلدوين الثالث، هذه الحالة وكشّر عن أنيابه مهدداً بغزو الديار المصرية⁽⁴⁾، فكان لابد من صلاح الدين أن يكتف جهوده ويركزها للتخلص من هذا الخطر الذي يهدد الدولة العربية الإسلامية.

(1) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص35.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص119؛ ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص15.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص100؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص431.

(4) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص188.

إنَّ وفاة نور الدين محمود، جاءت لتزيل الصعوبات الناجمة عن كون صلاح الدين نائباً للأمير الزنكي في دمشق، وفي الوقت نفسه حاكماً فعلياً لمصر، التي نجح نور الدين في ضمِّها في أواخر عهده، وأعطت صلاح الدين مسوِّغات مقنعة للدخول في مجال السياسة في بلاد الشام تحت حجة حماية مصالحه بعد أن أصبح مولاه الجديد اسماً على الأقل؛ لذلك قدَّم نفسه بوصفه النائب القوي للملك الصالح إسماعيل، والواقع أن صلاح الدين تطلع لضم بلاد الشام ومصر، بعد وفاة نور الدين محمود، بهدف استمرار السياسة التي بدأها عماد الدين زنكي، إذ كان الملك الصالح إسماعيل ما يزال صغيراً، ولايستطيع النهوض بأعباء الحكم، ولم يكن قادراً للتصدي للصليبيين. واعتقد صلاح الدين أنه أحق من الملك الصالح إسماعيل بحكم مصر، فانتظر الفرصة ليتمكن من ضم دمشق له ويستقل بحكمها، فراسل الأمراء النوريين يخبرهم بأحقية بالحكم، لكنهم ردّوا عليه ردّاً سيئاً⁽¹⁾، كما خشوا من زحفه باتجاههم، وبعد الخلافات وتحت وطأة الظروف السياسية التي لم تكن لصالح الأمراء النوريين، راسله الأمير الدمشقي ابن المقدم، يستدعيه إلى بلاد الشام⁽²⁾. أمّا على الجانب المصري فبعد أن استتب به الأمر في مصر مكثَّ بها خمسة أشهر بعد وفاة نور الدين محمود يراقب تطور الأوضاع السياسية فيها، ويعالج مايعترضها من مشاكل، وتوجّه بعدها إلى توحيد بلاد الشام وعندما هجم الصليبيون على بانياس، كانت تلك فرصته التي جعلته يتجهز بالزحف نحو بلاد الشام، فخرج من القاهرة بعد أن استنجد به ابن المقدم الذي وقف على نداءات أهل دمشق الذين خشوا من التحرك الصليبي، فسارع بطلب النجدة منه، وخرج من القاهرة 570هـ/1174م على رأس سبع مئة فارس، و عهد إلى أخيه العادل بإدارة شؤون مصر، وكان أن استقبل في دمشق استقبالا طيباً، وهكذا استطاع أن يضم دمشق وقلعتها بحجة حمايتها وحماية الملك الصالح إسماعيل من خطر الصليبيين، وهنا عين صلاح الدين أخاه طغتكين الذي خرج معه من مصر في أثناء زحفه والياً على دمشق، يحكمها باسم الملك الصالح إسماعيل، وواصل هو سيره باتجاه الشمال، وصل حلب وحاصرها، لأن الوصي على الملك الصالح إسماعيل كان كمشتكين الذي أغلق الأبواب في وجهه، فاضطرَّ صلاح الدين لضرب الحصار عليها⁽³⁾، وبعد أن أخفق كمشتكين، في التخلص من صلاح الدين، استعان بالصليبيين، وبهذا أدرك الصليبيون أن استقلال حلب وبقائها بيد البيت الزنكي هو الحل الوحيد لمنع قيام وحدة إسلامية، تمتد من النيل إلى الفرات وقد توافقت مصالحهم مع مصالح الزنكيين في هذا الشأن، اضطر صلاح الدين إلى فك الحصار عن حلب، وضمَّها إلى أملاكه، واستطاع ضم كامل

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص131؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص11؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص286.

(2) طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص188.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص428؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص24؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص288.

بلاد الشام حتى حماة شمالاً، على أن حلب مازالت مستقلة⁽¹⁾. وانصرف بعد ذلك لإضفاء الشرعية على حكمه، فكتب للخليفة العباسي آنذاك المستضيء بأمر الله، رسالة طويلة، عدّد له فتوحاته، وجهاده ضد الصليبيين لخدمة الخلافة العباسية، وخصوصاً إعادته الخطبة للعباسيين في مصر بعد قضاءه على الخلافة الفاطمية، وطلب منه أن يقلده الخليفة تقليداً جامعاً لمصر واليمن والمغرب والشام، وكل مايفتحه بسيفه⁽²⁾. والواقع أن ما أحرزه من نجاح، دفع الخليفة إلى الإسراع في إرسال الخلع السنية والتشريفات العباسية والأعلام السوداء إضافة إلى التوقيع من الديوان العزيزي بسلطنة صلاح الدين على مصر وبلاد الشام. وبهذا أصبح صلاح الدين سلطاناً شرعياً ووارثاً حقيقياً لدولة نور الدين. توفي الملك الصالح إسماعيل، 577هـ/1181م، عن عمر يناهز تسع عشرة سنة، وكان قبل وفاته أوصى بتسليم، حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود أمير الموصل، وبوفاة الصالح إسماعيل، انتهى عهد الدولة الزنكية في بلاد الشام التي أسسها نور الدين محمود⁽³⁾.

ب- صلاح الدين الأيوبي والصليبيين:

قرّر صلاح الدين حسم الأمور في بلاد الشام ومنطقة الجزيرة لصالحه، وتتابع الأحداث في مصر شغله مؤقتاً عن التوجه لبلاد الشام، إذ تعرضت مصر لخطر صليبي، فبعد وفاة نور الدين محمود اعتقد الصليبيون أن الأمور سنحت لهم، بضرب المسلمين، فهاجموا بانياس، وحاصروا الإسكندرية⁽⁴⁾.

في الواقع تعدّ الحقبة التي تولى فيها صلاح الدين الأيوبي مسؤولية الجهاد ضد الصليبيين من أهم مراحل تاريخ منطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى، وبالتالي أهم مراحل تاريخ العلاقات بين المشرق الإسلامي والغرب المسيحي، لأن الجبهة الإسلامية الموحدة، لم تصبح حقيقة واقعة إلا على يد صلاح الدين الأيوبي، ولذلك أصبح لزاماً عليه أن يضع الخطّة العامة لطرد الصليبيين من بلدان المشرق العربي.

وكانت الإمارات الصليبية في تلك الحقبة آخذة في الضعف بسبب قلة التعاون بينها، ومأصاب الأمراء الصليبيين من حقد وتنافس وزيادة في شقّة الاختلاف فيما بينهم، وقد أسهمت مشكلة الوراثة في بيت المقدس دوراً خطيراً مسببة الضعف والارتباك في الجبهة الصليبية، كان يقابله في الجبهة الإسلامية ازدياد قوتها والتفاف الأمراء حول قيادة صلاح الدين الأيوبي، وفي ذلك الوقت ظهر على مسرح الأحداث مغامر فرنسي آخر، وكانت حماقته السبب المباشر في القضاء على مملكة بيت

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص428؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص24.

(2) البنداري، (الفتح بن علي، ت597هـ/1201م): سنا البرق الشامي، تح: فتحية النبراوي، مكتبة البخانجي، القاهرة، 1979م، ص61؛ ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص252؛ أبو شامة: الروضتين في اخبار الدولتين، ج2، ص233.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص191؛ رانسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ص490..

(4) طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص428.

المقدس الصليبية هو أرناط حاكم الكرك، وكان نور الدين محمود قد أسره وظلّ محبوساً في الأسر من سنة 554 هـ / 1159 م إلى 572 هـ / 1176 م⁽¹⁾، كان قائداً شجاعاً، لكن اشتهر بالغدر والخيانة إذ انتهك أرناط الهدنة المبرمة بين المسلمين والصليبيين في سنة 577 هـ / 1181 م، بأن تعرّض للقوافل التجارية القادمة من مصر والشام التي كانت بالقرب من إمارته، فتوترت العلاقات بين الفريقين، وقد دفعه جنونه بأن يحاول أن يهاجم الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة مرتين، وقطع هو ورجاله طريق التجارة، وخرّبوا ونهبوا، وقتلوا، وأسروا⁽²⁾. وفي ذكر هذه الحادثة كتب ابن الأثير:

" ترددت القوافل التجارية من الشام الى مصر، ومن مصر إلى بلاد الشام، فلمّا كان هذه السنة - ويقصد بها سنة 577 هـ / 1181 م - اجتاز به قافلة عظيمة، غزيرة الأموال كثيرة الرجال ومعها جماعة صالحة من الجند، فغدر اللعين بهم، وأخذهم عن آخرهم، وغنم أموالهم، ودوابهم، وسلاحهم، وأودع السجون من أسر منهم، فأرسل إليه صلاح الدين، يلومه ويقبّح فعله، وغدره ويتوعده، إن لم تطلق الأسرى والأموال، فلم يُجب إلى ذلك، وأصرّ على الامتناع"⁽³⁾

مثّل أرناط الرعونة الصليبية والتعصب الديني خير تمثيل، ففي سنة 579 هـ / 1183. عزم على مهاجمة الأماكن المقدسة، في الحجاز لنش قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وسلّم لذلك أسطولاً وسيّره في البحر الأحمر، نزل على بر الحجاز وسواحله وكان العادل أخو صلاح الدين ينوب عنه في مصر، ولمّا علم بذلك الخبر، سيّر أسطولاً تمكّن من القوات الصليبية وتوزعهم القتل والأسر⁽⁴⁾. وكانت هذه أحد أسباب نقمة صلاح الدين الأيوبي على أرناط، وفي سنة 583 هـ / 1187 م، هاجم أرناط قافلة للمسلمين خرجت من مصر إلى بلاد الشام فأسرّها وسبّاها، كما سلف ذكره، وعندما أخفقت المساعي الدبلوماسية لصلاح الدين لرد القافلة والأسرى، وتذكر بعض المراجع أن القافلة التي نهبها أرناط، كانت فيها أخت صلاح الدين⁽⁵⁾، فكان ذلك مسوّغاً كافياً بالهجوم على الصليبيين، وخاصة أن الهدنة قد خُرقت من قبلهم.

وفي سنة 583 هـ / 1187 م، دعا صلاح الدين إلى الجهاد ضد الصليبيين وحدثت معركة حطين، وفيها تم انتصار صلاح الدين الأيوبي وهزيمة الفرنجة، لقد كانت هذه المعركة مقدمة لإنجازات كثيرة حققها صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين، فنصرها مهّد لفتح المدن الساحلية⁽⁶⁾،

(1) الشامي: صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، ط1، النهضة العربية، القاهرة، 1991 م، ص123.
(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص142؛ زابوروف، (ميخائيل): الصليبيون في الشرق، تر: الياس شاهين، دار متقدم، موسكو، 1986 م، ص190؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص127؛ ستيفن: تاريخ الحملات الصليبية، ص498.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص142.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص146؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص184.

(5) غنيم، (اسمت): الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1991 م، ص191.

(6) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص289.

فحدث أن استسلمت قلعة طبرية في اليوم التالي لحطين، ومن ثم هاجم عكا وحرر الرملة⁽¹⁾، وغزة، والنطرون⁽²⁾، وحاصر عسقلان⁽³⁾ إلى أن استسلم من فيها، وقرر صلاح الدين، بعد هذه الإنجازات الحربية، التوجه إلى القدس لتحريرها، وبعد أن استطاع تحريرها بالكثير من الجهد. وفي أثناء هذا كله، وبعد استرداد المسلمين لعسقلان في أعقاب معركة حطين أراد الصليبيون استعادتها كي تكون موضع قدم لهم، على ساحل جنوب بلاد الشام، وأرادوا قطع اتصال مصر بالشام من خلال إخضاع هذه المدينة، فزحف الصليبيون بمحاذاة البحر⁽⁴⁾، وصلت إلى صلاح الدين أخبار بأن ملكي فرنسا وإنكلترا، توجهوا بأساطيلهم للشرق، مع أخبار قوات جديدة قادمة من الشرق، عبر آسيا الصغرى، فقام بإعداد بعثات زودها برسائل إلى خليفة بغداد، وأمراء الموصل والجزيرة، كما أصدر تعليماته بتقوية أسطول مصر، واستجاب أمراء الشرق، والخليفة في بغداد لنداءات صلاح الدين، وفي مطلع سنة 587هـ/1191م، كانت أساطيل ملك فرنسا وصلت، وغادرت سفن ريتشارد قبرص متجهة نحو صور، دخل الجيشين المسلم والصليبي في مفاوضات للوصول إلى حل سلمي بينهما وكان ذلك قبل أن يحدث بينهما صدام عسكري مباشر بيومين⁽⁵⁾، وفي منطقة أرسوف⁽⁶⁾، وبعد مناورات عديدة بين الطرفين، حاول صلاح الدين إنزال ضربة قاصمة بجيش ريتشارد، لكنه لم يفلح بل حدث العكس، ففي تلك المعركة هزمت قوات المسلمين، وتفرق شملهم، وكانت هذه الواقعة نقطة تحول كبيرة وخطيرة، لصالح الصليبيين⁽⁷⁾، وبعد شهرين من هزيمة المسلمين في أرسوف استطاع صلاح الدين أن يسترد عسقلان ويافا، وبعد انتصار الصليبيين المحدود في هذه المعركة تجددت ثقتهم بأنفسهم بعد هزيمة حطين، وعلى الرغم من أنها لم تكن معركة حاسمة إلا أنها كانت انتصاراً معنوياً لهم، لكن بالرغم من ذلك كان جيش صلاح الدين قوياً ومصدر خطر ورعب للصليبيين، فتتالت الأحداث و كان من أبرزها فتح صلاح الدين لبيت المقدس سنة 583هـ/1187م، وفي الواقع أن هذا النصر لم يكن نصراً لصلاح الدين الأيوبي وحده بل كان نصراً للمسلمين عامةً وخاصةً بعد طول العناء والمشقة في حروبهم مع الصليبيين، فكان هذا النصر تتويجاً لانتصاراته عليهم. إذ إن صلاح الدين بعد تنظيمه لأموار عسقلان وإدارته رحل عنها قاصداً مدينة القدس فقام بإحكام الحصار على هذه

(1)؛ الأصفهاني، (عماد الدين، 597هـ/1201م): الفتح القسي في الفتح القدسي، ط5، دار المنار، 1142هـ/2004م، ص53؛ ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص279؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص170.
(2)؛ الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص46؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج3، ص328.
(3)؛ الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص64.
(4)؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج2، ص365؛ مؤنس، (محمد عوض): دراسات في الصراع الإسلامي الصليبي معركة أرسوف، 1191م-587هـ، عين للدراسات والبحوث، ط1 القاهرة، ص10.
(5)؛ ابن شداد: العلاقات الخطيرة، ص253؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج2، ص365.
(6)؛ سعداوي، (نظير): الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، ط2، القاهرة، 1961م، ص36.
(7)؛ أرسوف: مدينة على ساحل فلسطين بين قيسارية ويافا، وبينها وبين قيسارية ثمانية عشر ميل. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص151؛ ابن شداد: العلاقات الخطيرة، ص253.
(7)؛ ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي، ص274.

المدينة مضيّقاً الخناق على الصليبيين فيها، وبعد محاولة الصليبيين الدفاع عن أنفسهم ومنع المسلمين من دخول المدينة إلّا أنّهم قرّروا في نهاية الأمر تسليم المدينة وطلب الأمان من صلاح الدين، وقامت مفاوضات التسليم بين الطرفين والتي انتهت باسترداد المسلمين لبيت المقدس الأمر الذي كان غاية في الأهمية والحدث الذي كان مفصلياً في صراعهم مع الصليبيين. ومن الأحداث المهمة بعد فتح بيت المقدس هي صلح الرملة الذي تم توقيعته سنة 588 هـ / 1192 م بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد قائد الحملة الصليبية الثالثة، وكان من أبرز بنوده: أن تكون المدن الساحلية من صور إلى يافا للصليبيين، وتكون عسقلان للمسلمين بعد تدمير حصونها، ويتم اقتسام اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين، وللمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بأي ضريبة عن ذلك، وتكون الهدنة عامّة في البر والبحر ومدتها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر⁽¹⁾، وردت هذه المدة عند المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين الأيوبي على مدّة الهدنة باستثناء ابن الأثير الذي ذكرها بأنّها ثلاث سنوات وثمانية أشهر⁽²⁾ و وافقه بذلك ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب⁽³⁾ ولعلّه نقلها عن ابن الأثير.

ثانياً: الأوضاع الاقتصادية:

1- الأوضاع الاقتصادية في المشرق الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين:

أ- الأوضاع الاقتصادية في العصر الزنكي:

1- الإقطاع في العصر الزنكي:

شهد العالم العربي و الإسلامي أصنافاً شتّى من الإقطاعية، مثل إقطاع المنفعة، وإقطاع الرقبة⁽⁴⁾، وإقطاع الموات، والصوافي، والأرض التي ورثها الخلفاء عن آبائهم، وعدّت كلّها عند الفقهاء مشروعة، وجميعها أصبح مشروعاً ومسوّغاً في منتصف القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حين سادت الإقطاعية العالم الإسلامي بأسره عن طريق القوّة والغلبة العسكرية، وفي ذلك يقول الماوردي: "الجند أحقّ الناس بالإقطاع"⁽⁵⁾.

(1) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص302؛ ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي، 403

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 9، ص221.

(3) العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج4، ص292.

(4) إقطاع الرقبة: إذ يتمتع فيه المقطع بحقوق الملكية كلها، كان هذا النظام من ابتكار نظام الملك وزير السلاجقة الماوردي، (علي بن محمد، ت: 450 هـ / 1058 م): الأحكام السلطانية، تج: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، 1427 هـ / 2006 م، ص194.

(5) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص194.

ويقول القلقشندي: "في زماننا فسدت الحال وتغيرت القوانين، وخرجت الأمور عن القواعد الشرعية، وصارت الإقطاعات ترد من جهة الملوك، على سائر الأموال حتى عمّت البلوى"⁽¹⁾، فإنّ الإقطاعية ظاهرة ثابتة في العالم الإسلامي الوسيط، وفي نهاية السيطرة السلجوقية، ظهرت الأتابكيات التي هي نُظْمٌ سياسيّة، وإداريّة، وعسكريّة، وإقطاعيّة، ابتدعها السلاطين السلاجقة. ونظراً للحاجة المتزايدة، للجند، وعجز الأتابكة عن دفع رواتب لهم، قاموا بمنحهم إقطاعات رقبة مقابل أداء الخدمة العسكرية، مثل أتابكية الموصل، إذ قُدِّرَ لهم التوسع بعد نورالدين محمود، فامتدّ نفوذهم إلى أعالي العراق والشام، وكلّها أقاليم شهدت نمط الإقطاع العسكري، لم يقتصر الإقطاع النوري على الجند الذين حازوا النصاب الأوسع من الأرض إنما امتدّ ليشمل الأطباء والعلماء لذلك أُقْطِعَ المؤرّخ ابن الأثير الجزري وأسرته إقطاعاً في الموصل⁽²⁾، اعتمد الزنكيون نظام الإقطاع الحربي للصرف على جيوشهم أيضاً خلال جهادهم ضدّ الصليبيين، ومن خصائص الإقطاع الزنكي، انتقاله من مقطع لآخر عن طريق الوراثة⁽³⁾. حيث بقيت الدولة النورية متأثرة بهذا النظام الذي كان منذ عهد السلاجقة، رغبةً منها في التوسع الخارجي، وحاجتها إلى ضمان استمرار الخدمة العسكرية اللازمة ولذا فإنّها قدمت الإقطاع لكبار القادة العسكريين وكذلك العسكر، مقابل الحصول على العون الحربي وقت الحاجة⁽⁴⁾، إذ أُقْطِعَ نور الدين نصيبين والخابور للعسكر، كما أُقْطِعَ أسد الدين شيركوه حمص والرحبة في 563هـ/ 1167م⁽⁵⁾، والأمثلة كثيرة على هذه الإقطاعات نذكر منها في سنة 558هـ/ 1163م، أبقى السلطان نور الدين أولاد الجندي المتوفي على إقطاع أبيهم، فإن لم يكن له ولد، جعله لبعض أهله للمحافظة على تعداد العسكريين، واهتم نور الدين بإثبات أسماء الأمراء، ومالديهم من جند وسلاح، وكان يمنح الإقطاعات الشخصية لقاء خدمات حربية أو شبه حربية تتعلق، بالأمن الخارجي والداخلي⁽⁶⁾. ومن خلال البحث في الحياة الاقتصادية للدولة الزنكية يتضح أنّ الدولة النورية كانت دولة عسكرية جهادية، متفرّعة من الدولة السلجوقية الكبرى؛ أي: إنها قامت على نظام إقطاعي حربي، يجنح للوراثة بعض الأحيان.

(1) القلقشندي: صبح الأعشا في صناعة الإنشاء، ج13، ص117.

(2) طرخان، (ابراهيم): النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1388هـ/ 1968م، ص11.

(3) محمود، (اسماعيل): سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، الانتشار العربي، ط1، بيروت، 2000م، ج6، ص60.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص80.

(5) بو شامة: الروضتين في اخبار الدولتين، ج1، ص383؛ الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص76؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص259؛ محمود: سيوسولوجيا الفكر الاسلامي، ج6، ص61.

(6) محمود: سيوسولوجيا الفكر الاسلامي، ج6، ص61.

2- الزراعة:

توسَّعت الدولة الزنكية، في مناطق السهول الفيضية الخصبة مثل أنهار النيل، والعاصي، وبردى وغيرها، من الأنهار التي ذخرت بها بلاد الشام والجزيرة ومصر على نحو أدَّى إلى زيادة إنتاجها الزراعي بصورة واضحة، ومن ثمَّ جاءت إشارات الرخالة الذين زاروا بلاد الشام خلال عهد الدولة النورية وبعده إلى الثراء الزراعي الذي كانت عليه⁽¹⁾، إذ احتوت الدولة النورية على أنواع متعددة من المحصول الزراعي الواحد من التفاح والعنب وغيرها، ولا يمكن تجاهل ما كان للحروب الصليبية من أثر في الزراعة والفلاحة في ذلك الوقت، إذ كان كل طرف يعوِّل على تدمير النواير والطواحين وتخريب المساقى لإلحاق الضرر بالخصم، وتحسُّن الحال نسبياً نتيجة بعض الإصلاحات التي قام بها بعض الأتابكة، لكن هذا الازدهار كان عابراً، كما اقتصر على إصلاح نظام الجباية ليس إلّا⁽²⁾.

3 - الصناعة:

من البديهي أن سيادة نمط الإنتاج الإقطاعي، أفضت إلى تدهور الاقتصاد في العالم الإسلامي بأسره، في منتصف القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، فطبيعة هذا الاقتصاد، تستند إلى الإنتاج الزراعي الرعوي، في المحل الأول، وهذا ماينعكس سلباً على القطاعات الاقتصادية الأخرى كالصناعة والتجارة. تعرضت الأسواق في تلك المرحلة لمنافسة السلع الأوروبية، وتقلُّص القوة الشرائية، والضرائب، وتقلُّص رؤوس الأموال، كانت تلك العوامل التي ساهمت مجتمعةً في تدهور الصناعات آنذاك، فاخفت الكثير من الصناعات وتقلَّصت مثلاً صناعة الورق التي قلَّ شأنها في بغداد بعد الحكم السلجوقي⁽³⁾.

4 - التجارة:

شهدت التجارة الخارجية ازدهاراً مؤقتاً، في العصر الأتابكي، ويمكن تتبع علاقات تجارية وتعاون بين الأتابكة وسلاجقة الروم؛ لإيصال السلع الشرقية إلى القسطنطينية، لكن هذا النشاط والتعاون لم يدم طويلاً؛ بسبب السياسة التوسعية لنور الدين، وقد تأثرت التجارة أيضاً بالكساد الاقتصادي، لاعتمادها على الزراعة والصناعة أيضاً، وفقدت بعض المناطق المهمة أهميتها في ظل الحروب الصليبية مثل الإسكندرية، والفسطاط⁽⁴⁾ وذلك بسبب غارات الصليبيين على سواحلها وتدميرها⁽⁵⁾.

(1) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص194.

(2) قاسم، (عبده قاسم): ماهية الحروب الصليبية، دار المعرفة، الكويت، 1990م، ص114.

(3) محمود: سيوسولوجيا الفكر الإسلامي، ج6، ص58.

(4) الفسطاط: مدينة في مصر بناها عمرو بن العاص. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص264.

(5) محمود: سيوسولوجيا الفكر الإسلامي، ج6، ص62؛ هايد، (ف): تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، تر: أحمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م، ج1، ص85.

ب- الأوضاع الاقتصادية في العصر الأيوبي:

1- الإقطاع في العصر الأيوبي:

إنَّ الإقطاع في العصر الأيوبي هو امتداد لما كان عليه في العصر السلجوقي والزنكي، كان الإقطاع السائد في مصر في العصر الأيوبي نوعان: إقطاع إداري، الذي اختصَّ به الأمراء من الأسرة الأيوبية الحاكمة، والإقطاع العسكري الحربي⁽¹⁾، عمل صلاح الدين على تقسيم دولته بين، أولاده، وأهله على أسس إقطاعية، ونهج خلفائه من بعده هذا النهج أيضاً⁽²⁾، وكانت إدارة الإقطاعات تخضع لديوان الجيش، الذي يرأسه ناظر الجيش المسؤول عن النظر في الإقطاعات⁽³⁾، ومن ميزات النظام الإقطاعي في العهد الأيوبي، تباعد الأراضي الممنوحة للمقطع في بعض الأحيان في مناطق متفرقة ومتباعدة من الدولة، وذلك بهدف منع المقطع من القدرة على الانفصال، والاستقلال، وهذا إن دلَّ على شيء فهو يدل على الحنكة، والذكاء السياسيين في المحافظة على وحدة الدولة، ومثال على ذلك أن قطاع الأمير تورانشاه كان مبعثراً بين مصر والشام⁽⁴⁾. كتب المقرئ عن الإقطاع في العصر الأيوبي: "وأما منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا، فإنَّ أراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده"⁽⁵⁾ كما ذكر القلقشندي: "الأرزاق في عصر الأيوبيين تجري على نوعين، الإقطاعات؛ وتجري في مصر على الأمراء والجند، وعامة إقطاعاتهم، بلاد وأرض"⁽⁶⁾.

2- الزراعة:

حدثت في العصر الأيوبي، مشكلات اقتصادية عنيفة، فانتشرت الأوبئة، وتعطلت الزراعة، وانخفض الإنتاج، بفعل عوامل عدّة كالحروب، فحروبهم مع الصليبيين كان لها أثر كبير، إذ أهملت الأراضي الزراعية، نظراً لنقص الأيدي العاملة وانشغال الناس بالقتال، والحروب الأهلية والصراعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي، وأثرت عوامل الطبيعة على المزروعات، كانحباس المطر أو زيادته، حيث كتب ابن كثير في ذلك في أحداث سنة 628 هـ / 1230 م، " فيها كان غلاءً شديداً بديار مصر وبلاد الشام وحلب، والجزيرة، بسبب قلة المياه السماوية والأرضية"⁽⁷⁾، ولم تكن هذه السنة الوحيدة التي حدث فيها انحباس للمطر بل أيضاً 574 هـ / 1178 م، حيث حصل غلاءً شديد بسبب انحباس

(1) الدوري، (عبد العزيز): مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، د. ت، ص69؛ طرخان، (ابراهيم): النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، ص11.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص14؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص183؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص6.

(3) العريني، (السيد الباز): الشرق الأدنى في العصور الوسطى، بيروت، 1386 هـ / 1967 م، ص143.

(4) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص100؛ المقرئ: الخطط، ج2، ص446.

(5) المقرئ، (تقي الدين أبي العباس، ت: 845 هـ / 1441 م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار الخطط المقرئية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ، ج1، ص279.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج4، ص51.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص299.

المطر⁽¹⁾. ولكنَّ الأيوبيين بذلوا قصارى جهدهم لينهضوا بالزراعة، ولم تنتهيم ظروف الحرب التي تعيشها دولتهم من المضي قدماً في هذا المجال، فأولت الدولة عناية خاصّة لإقامة الجسور، وصيانتها، والمحافظة عليها، إذ كان يرصد ربع خراج مصر لعمارة جسورها، وحفر ترعها⁽²⁾، كانت الدولة ترسل في كلّ سنة أميراً لكل ناحية لصيانة الجسور، يطلق عليه كاشف التراب، أو كاشف الجسور، وكان السلطان الكامل يخرج بنفسه لكشف الجسور، ويرتب في كل جسر من الأمراء من يتولاه، ويجمع الرجال لعمله، ثمَّ يشرف على الجسور بعد عملها⁽³⁾.

وكانت الزراعة في المناطق الغالية تعتمد الري بواسطة آلات خاصّة عندما يكون فيضان نهر النيل منخفضاً⁽⁴⁾، واستعمل الأيوبيون في حراثة أراضيهم الوسائل التقليدية القديمة الموروثة ومنها المحراث الذي تجرّه الثيران والفأس وغيرهم. أمّا عن وضع الفلاح في فقد أشرفت السلطة المركزية على أحواله، وحمته القوانين من ظلم سادتهم الإقطاعيين. اشتهرت بلاد الشام بكثرة حاصلاتها كالحبوب، والخضار، والأشجار المثمرة، والكثير من الأنواع الأخرى، كما اشتهرت مصر بالعديد من أنواع المحاصيل، كالقمح، ويزرع في أنحاء الدلتا كلّها⁽⁵⁾.

ومن المحاصيل الأخرى، الفول ويزرع في ضواحي القاهرة⁽⁶⁾، والبصل والثوم⁽⁷⁾، واللوز والتين، والجوز، وسائر الفواكه، والبقول والرياحين⁽⁸⁾، على أنّ الأيوبيين لم يُدخلوا أنواعاً جديدة من المزروعات، إلّا أنهم اعتمدوا على الأنواع الموجودة، وعُدّت أسوان⁽⁹⁾، وضواحيها من أهم مراكز زراعة النخيل⁽¹⁰⁾، وتعددت أصناف الفواكه في مصر⁽¹¹⁾، ويزرع فيها الأجاص⁽¹²⁾، ومن المحاصيل الصناعية، قصب السكر الذي تنتشر زراعته في معظم أنحاء مصر. وكثرت في مصر أيضاً زراعة

(1) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص277؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص299.
(2) النويري، (أحمد بن عبد الوهاب، ت: 733 هـ/1332 م): نهاية الإرب في فنون الأدب، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1424 هـ/2004 م، ج1، ص246؛ المقريزي: الخطط، ج1، ص217.
(3) ابن واصل: مفرج الكروب، ج5، ص157. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص236؛ المقريزي: الخطط، ج3، ص434.
(4) المقريزي: الخطط، ج1، ص394.
(5) ابن حوقل، (محمد بن علي أبو القاسم، ت: 367 هـ/977 م): صورة الارض، مكتبة الحياة، بيروت، 1992 م، ص131.
(6) ابن مماتي، (أسعد ت606 هـ/1209 م): قوانين الدواوين، تح: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، دت، ص238.
(7) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج3، ص344.
(8) النويري: نهاية الأرب، ج1، ص330؛ السيوطي، (جلال الدين عبد الرحمن، ت: 911 هـ/1505 م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، دار احياء الكتب العربية، ط1، القاهرة، 1387 هـ/1967 م، ج2، ص276.
(9) شيخ الربوة، (شمس الدين ابي عبد الله، ت: 727 هـ/1327 م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، الاكاديمية الامبراطورية، بطربورغ، دت، ص232.
(10) ابن حوقل: صورة الأرض، ص148.
(11) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج3، ص457.
(12) الإدريسي، (محمد بن عبد الله، ت: 560 هـ/1166 م): نزهة المشتاق في اختراق الافاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422 هـ/2002 م، ج1، ص129.

الكتّان⁽¹⁾، وهناك القطن، وأهم مناطق زراعته الفيوم⁽²⁾، كما اشتهرت بلاد الشام بكثرة حاصلاتها وجودة أصنافها، من الحبوب، والشعير، والذرة والأرز والفول وقصب السكر⁽³⁾، تعرّضت مصر في العصر الأيوبي لأزمات اقتصادية أعقبها انتشار المجاعات والأوبئة وازدادت الأمراض، ممّا أدّى إلى ازدياد كبير في أعداد الموتى، الأمر الذي أضّر بالاقتصاد الأيوبي؛ فمثلاً في سنة 567 هـ / 1171 م، في عهد السلطان صلاح الدين، كثرت مشكلة قيام الفئران بأكل ثمار النخل والأقصاب والأشجار⁽⁴⁾، وفي شهر شعبان من السنة نفسها، سقط برّد عظيم، كأنّه الأحجار المدوّرة، فاستهلك الغلات⁽⁵⁾.

وفي سنة 570 هـ / 1174 م، وقع بمصر من الجراد ما لا يوصف لكثرتة فأكل الكروم وأنواع الفواكه جميعها، والنخل حتّى خرّبت البساتين والكروم، وتبع ذلك غلاء ووباء⁽⁶⁾.

كانت الأزمة الاقتصادية التي بدأت سنة 596 هـ / 1199 م، في سلطنة العادل أطول وأخطر أزمة اقتصادية تعرّضت لها الدولة الأيوبية على الإطلاق، وكان السبب الرئيسي في حدوثها، قصور النيل، واستمرت ثلاث سنوات متتالية، وقد ورد في بعض المصادر وصف دقيق لهذه السنوات؛ إذ ذُكر أنّه في "السنوات الأولى من حكم العادل، اكتسح مصر مجاعة خطيرة، كادت أن تكون مماثلة للمجاعة التي حدثت في عهد المستنصر بالله الفاطمي، فقد انخفض فيها ماء النيل، حتّى لم تعد المياه كافية لزراعة الأراضي"⁽⁷⁾.

لم تكن هذه الكوارث والأوبئة، الوحيدة من نوعها في العصر الأيوبي، والحديث في هذا المجال يطول، ومن الطبيعي أن تنعكس هذه الأوضاع على الأسعار والزراعة، والصناعة، فتصاعدت الأسعار تصاعداً خطيراً⁽⁸⁾.

3- الصناعة:

كما كان للصناعة الراقية، دوراً مهماً في ازدهار التجارة وتقدمها، فالأيوبيون على الرغم من العبء العسكري الذي ألقي على عاتقهم وبالإضافة للأخطار الداخلية، فمعظم الصناعات بقيت موضع اهتمامهم، فمثلاً صناعة الزجاج في العصر الأيوبي اشتهرت في المغرب والمشرق، وكذلك

(1) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص337؛ المقرئزي: الخطط، ج2، ص436.

(2) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص130.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص86.

(4) النويري: نهاية الإرب، ج8، ص193؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج2، ص511.

(5) المقرئزي: السلوك، ج1، ص45.

(6) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج3، ص12.

(7) ابن واصل: مفرج الكروب، ج3، ص115؛ النويري: نهاية الإرب، ج29، ص5؛ الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص78؛ ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص143؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص251.

(8) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص20؛ المقرئزي: السلوك، ص158.

الصناعات النسيجية، والخشبية، وأعمال النجارة، واهتمت الدولة بتوفير الأخشاب اللازمة لبعض الصناعات كصناعة السفن وذلك باستيرادها من المدن الإيطالية وبلاد الشام⁽¹⁾، كان صلاح الدين يرفع الصناع ويساعدهم في فتح مصانعهم، كما أسهمت الأسواق بدور بارز في تقديم الصناعة والتجارة، كانت المنسوجات الكتانية من أهم أنواع المنسوجات في مصر⁽²⁾ وفي ذلك يقول المقدسي: "لا نظير لكتانهم وصوفهم"⁽³⁾، تأتي بعدها الصوفية والحريية والقطنية. وعرفت الإسكندرية بارتفاع أسعار منسوجاتها الكتانية، فمنسوجاتها الكتانية التي يصنع منها الشرب، كان يباع كل زنة بدرهم فضة، وبعضها نظير وزنها مرّات عدّة⁽⁴⁾. وأثنى ابن حوقل على هذه الصناعة وشهرتها في مصر، فأثنى على ذكر بعض المدن التي تشتهر في هذه الصناعة، مثل مدينة سنباط⁽⁵⁾، التي تشتهر بهذه الصناعة، والإسكندرية أيضاً⁽⁶⁾، ومن المدن المحليّة⁽⁷⁾ التي اشتهرت بمنسوجاتها الكتانية⁽⁸⁾، وازدهرت أيضاً صناعة الجلديات، فعرف أهل مصر صناعة الأحذية الجلدية بأنواعها، واشتهرت القاهرة بوجود دار للدباغة⁽⁹⁾، وسوق لبائعي الفراء⁽¹⁰⁾.

اشتهرت بلاد الشام، في العصر الأيوبي بالعديد من الصناعات، كالصناعات النسيجية، إذ لمع اسم دمشق في هذه الصناعة منذ القدم، وهناك صناعة الحرير، التي برع بها أهل دمشق وحلب وصيدا، وأحدثوا لهذه الصناعة العديد من المصانع، فقد وصف الإدريسي دمشق بأنها جامعة لأنواع من الصناعات، وأنواع من الثياب الحريرية؛ كالخز والديباج وغيرهما⁽¹¹⁾. ومن الصناعات أيضاً، صناعة السكر التي تقوم على قصب السكر الذي يعدّ من أكثر المحاصيل الزراعيّة والصناعيّة انتشاراً في مصر⁽¹²⁾، فاشتهرت الفيوم بزراعة القصب⁽¹³⁾، ودمياط بإنتاج كميات كبيرة من السكر،

(1) الحموي: معجم البلدان، ج2، ص68؛ المقرئزي: الخطط، ج1، ص751؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص284.

(2) البكري، (ابو عبدالله، ت: 487هـ/ 1094م): المسالك والممالك، ج2، تح: ادريان فان ليوفر و اندري فيري، بيت الحكمة، تونس، 1992م، ج2، ص623؛ الحموي: معجم البلدان، ج2، ص51؛ المقرئزي: الخطط، ج1، ص499.

(3) المقدسي، (محمد بن أحمد، ت: 380هـ/ 990م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ط2، ليدن، 1909م، ص203.

(4) المقرئزي: الخطط، ج1، ص457.

(5) سنباط: كذا تقول العوام، ويقال أيضاً سنبوطية وسنموطية وهي بليد حسن في جزيرة قوسنيا من نواحي مصر. الحموي: ج3، ص261.

(6) المقرئزي: الخطط، ج1، ص457.

(7) المحلة: بالفتح هي مدينة مشهورة بالديار المصرية وهي عدّة مواضع، محلة دقلة ومحلة أبي الهيثم ومحلة شرقيون وهي المحلة الكبرى ومحلة منوف ومحلة نقيدة. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص63.

(8) ليون الأفريقي، (الحسن بن محمد لوزان الفاسي): وصف إفريقيا، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983م، ج2، ص518.

(9) المقرئزي: الخطط، ج1، ص301.

(10) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص430.

(11) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الافاق، ص368.

(12) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج3، ص345؛ المقرئزي: الخطط، ج1، ص137.

(13) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص207؛ ابن حوقل: صورة الارض، ص138؛ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج3، ص337؛ المقرئزي: الخطط، ج1، ص294.

وبالاعتماد على هذه الصناعة قامت صناعة الحلوى في العصر الأيوبي، إذ قاموا بصناعة أنواعاً كثيرة من الحلوى التي كانت تصنع من السكر في مصر، عرف الأيوبيون العديد من الصناعات في عصرهم أيضاً كصناعة الزيوت، فنظراً لقلّة زيت الزيتون، اعتمد المصريون على الزيت المستخرج من السمسم، في جميع أطعمتهم⁽¹⁾، وكانت معاصر الزيت منتشرة في مناطق المعصرة على بعد عشرين ميلاً إلى الشمال من القاهرة⁽²⁾، وصناعات معدنية، إذ ترجع شهرة مصر بالتعدين إلى توفر بعض المعادن فيها، كالذهب والفضة، يستخرج الذهب من الفسطاط حيث يوجد جبل يحتوي الذهب⁽³⁾، كما يوجد الذهب في الواحات، ومدينة أسوان⁽⁴⁾، استخدم الذهب والفضة في صناعة صك النقود الذهبية والفضية⁽⁵⁾ وهناك الحديد والنحاس، ولكن إنتاج مصر من الحديد لم يكن يكفي احتياجاتها في تلك الحقبة، فجلبته الدولة من خارجها، ولابدّ للإشارة إلى أنّ الأيوبيين أولوا الصناعات العسكرية اهتماماً بالغاً؛ نظراً لطابع دولتهم العسكري، فصنعوا السيوف، والتروس، والخوذ، و من أهم الصناعات العسكرية كانت صناعتهم للسفن، التي استخدموها كأساطيل حربية، واستخدموها في التجارة البحرية أيضاً إذ إن المصريين عندما قدموا إلى مصر أدركوا أهمية الأسطول في جهادهم ضد الصليبيين، فأولوا صناعة السفن عناية فائقة⁽⁶⁾.

في سنة 572هـ/1176م، قام صلاح الدين بإنشاء ديوان الأسطول؛ للإعفاق على دور صناعة السفن⁽⁷⁾، والتي كانت منتشرة في مصر والإسكندرية، ودمياط⁽⁸⁾، وكان لدور صناعة السفن هذه، دوراً كبيراً، في خدمة الأيوبيين في اليمن وبلاد الشام، وفي جهادهم ضد الصليبيين، وبالطبع لم تكن هذه الصناعات الوحيدة الموجودة في تلك الحقبة وكل ماسلف من ذكرٍ للأوضاع الاقتصادية العامة في تلك المرحلة التاريخية كان ذكراً عاماً، يعطي لمحة عامة عن الحياة الاقتصادية التي عاشها العالم العربي والإسلامي والشرق الأدنى في ذلك الوقت بعيداً التفاصيل. ومجمل القول أنّ الاقتصاد في هذه المرحلة التاريخية التي عاصرت حياة المؤرخ ابن الأثير الجزري، التي هي موضوع دراسة هذا المبحث المهم، كان متأثراً بالأحداث السياسية التي كانت تعيشها المنطقة، فتارةً تستقر الأمور، وتارةً تأخذ منحى آخر من التدهور، أو الانحسار.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص344؛ ليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ص610.

(2) ليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ص609.

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص309.

(4) شيخ الربوة: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص232.

(5) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص332.

(6) المقرئزي: الخطط، ج3، ص17.

(7) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص348. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص289؛ المقرئزي: الخطط، ج3، ص17.

(8) الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص72؛ المقرئزي: الخطط، ج3، ص17.

4- التجارة:

أسهمت التجارة إسهاماً مهماً، في الحياة الاقتصادية للعصر الأيوبي، واشتهرت بعض مدن مصر في العصر الأيوبي، كمراكز تجارية، مهمة، كالإسكندرية، التي تعد مركزاً مهماً للتجارة على البحر المتوسط⁽¹⁾، ومدينة دمياط⁽²⁾، ومدينة تنيس⁽³⁾، التي ساعد موقعها على سهولة اتصالها بداخل مصر وخارجها. ومن أبرز المدن وأهمها، مدينة القاهرة، عاصمة الدولة ومركز نشاطها توسعت في العصر الأيوبي لتشمل القاهرة، والفسطاط⁽⁴⁾، وقد اهتم الأيوبيون بتحسيناتها⁽⁵⁾. كانت مصر حلقة وصل بين الشرق والغرب، وسوقاً مهماً، للتبادل التجاري، بين إفريقيا وآسيا وبلدان حوض المتوسط⁽⁶⁾، كما حرصت المدن الإيطالية على إقامة علاقات تجارية وثيقة، ووطيدة، مع السلاطين في مصر، حيث رَّحِب صلاح الدين الأيوبي، بالتجار الإيطاليين، وفتح لهم أبواب بلاده⁽⁷⁾.

ولم تسوء العلاقة بينهما إلا عندما استجابت هذه المدن للمشاركة، في الحملة الصليبية الخامسة على مصر 615-618 هـ / 1218-1221 هـ، وكانت البندقية أكثر هذه المدن استجابة في هذه الحملة⁽⁸⁾، استوردت مصر أنواع عديدة من المعادن (حديد، وورصاص، وقصدير، ونحاس). أمّا عن علاقاتهم مع البيزنطيين، فقد اتسمت العلاقة الأيوبية البيزنطية بالإيجابية منذ بداية حكم الأيوبيين، كانت تصدر الكتّان بكثرة. نشطت التجارة بين بلاد الشام ومصر، منذ توحدتا في ظل الدولة الزنكية، و زاد حجم المبادلات التجارية بشكل خاص بعد استعادة صلاح الدين لحصن الكرك، والشوبك، الواقعين على طريق القوافل التجارية، وفرض الأمن في المنطقة⁽⁹⁾ وتشجيعه الدائم للتجارة الداخلية، والخارجية، البرية والبحرية⁽¹⁰⁾. كانت بلاد الشام محط أنظار التجار من الشرق والغرب، وشكّلت المدن الساحلية، والداخلية محطات تجارية مهمة حيث تاجروا بالقطن، والسكر، والزجاج، وغيرها من السلع. وازداد النشاط التجاري، في الشام عامّة وفلسطين خاصّة بعد صلح الرملة 588 هـ / 1192 م، الذي جاء مؤكداً على حرية التجارة بين المسلمين والصليبيين⁽¹¹⁾، وفي عصر خلفاء صلاح الدين

(1) المقرئزي: الخطط، ج1، ص92.

(2) دمياط: وهي من أشهر الموانئ البحرية، التي تقع عند مصب نهر النيل الشرقي، وهي همزة الوصل بين نهر النيل والمتوسط. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص472؛ لقلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص465.

(3) تنيس: تتوسط ثغري الفرما من الشرق، ودمياط من الغرب، جزيرة وسط بحيرة، مفردة عن البحر المتوسط وبينها وبين البحر بر آخر مستطيل. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص51.

(4) الفسطاط: مدينة في مصر، بناها عمر بن العاص. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص262.

(5) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص293؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص52.

(6) هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص32.

(7) هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص47.

(8) هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص55.

(9) بيطار، (امينة): تاريخ العصر الايوبي، دار الطباعة الحديثة، دمشق، 1982 م، ص221.

(10) بيطار: تاريخ العصر الأيوبي، ص221.

(11) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص224.

يذهب بعض الباحثين بالقول، إنَّ التجارة في زمنهم قد تدهورت، وإنَّ أيَّ ذكرٍ لازدهارٍ تجاريٍّ في ذلك الوقت، فُصِدَ به تجارة الكماليات كتجارة الكارم⁽¹⁾، وازدهار تجارة الرقيق على أثر الهجرات التركية الخوارزمية، والغزوات المغولية⁽²⁾، ولربما أيضاً من الشواهد على هذا التدهور تخريب أسواق الاسكندرية، والقاهرة، والتضييق على التجار النصاري، بمنعهم من الحركة داخل البلاد خشية تجسسهم لصالح الصليبيين، ومنها أيضاً تدهور النظام النقدي الأيوبي، بسبب التكاليف العسكرية، الباهظة، إذ انخفضت قيمة الدينار في عهود خلفاء صلاح الدين، ونقص عيار الفضة في الدراهم الأيوبية عموماً⁽³⁾.

كانت هذه نظرة خاطفة للتجارة في العصر الأيوبي، ويستطيع القارئ أن يدرك مدى تأثير الأحداث السياسية في الاقتصاد في الدولة الأيوبية، فكلّما عمَّ الهدوء والاستقرار السياسي والعسكري، ازدهرت التجارة والزراعة و القطاعات الاقتصادية المختلفة، والعكس صحيح. ولا يخفى على الباحثين والمهتمين بتتبع تاريخ الدولة الأيوبية، ما شهدته من أحداث سياسية، وتصارع قوى كثيرة على السيطرة على بلاد الشام ومصر، بالإضافة للصراعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي بعد صلاح الدين، فمن المنطقي أن تشهد التجارة والزراعة تدهوراً في ظلِّ هذا التزاحم السياسي الكبير والخطير.

ثالثاً: الحياة العلمية :

1- منهج الكتابة التاريخية في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين:

شهد العالم الإسلامي في العصور الإسلامية المتأخرة لاسيّما في القرنين السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، والقرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، ازدهاراً في الكثير من العلوم والمعارف، فظهرت مراكز ثقافية وعلمية عدّة مثل: بغداد، والموصل، والقاهرة، ودمشق، وحلب، وغيرها، ففي الموصل ازدهرت الحياة الفكرية في العصر الأتابكي، الذي يعدّ من أزهى العصور الحضارية في مدينة الموصل، وذلك لتوفر عوامل عديدة تضافرت في دعم هذا الازدهار، من حيث الاستقرار السياسي والتطور الاقتصادي، وكذلك تشجيع الأتابكة ونوابهم ووزرائهم للعلماء والأدباء، وكانوا يزينون بلاطهم بهذه النخبة من الناس، كما أنهم أنشؤوا المؤسسات التعليمية لاسيّما المدارس، ولم ينته العصر الأتابكي إلا وقد انتشرت المدارس انتشاراً واسعاً⁽⁴⁾، وفي ذلك أشار الرحالة الأندلسي ابن جبير

(1) تجارة الكارم: الكارم فئة من كبار التجار الذين اشتغلوا باحتكار تجارة الهند و الشرق الأقصى، وكان مركز نشاطهم الأول، المحيط الهندي، الذي كانت تتجمع في موانئه سلع الشرق الأقصى، والهند وأهم السلع التي تاجروا بها الفلفل والبهار، والخشب والملبوسات والحريز وأدوات الزينة. ابن واصل: مفزج الكروب، ج2، ص127.

(2) اسماعيل: سيوسولوجيا الفكر الإسلامي، ج6، ص63.

(3) اسماعيل: سيوسولوجيا الفكر الإسلامي، ج6، ص64.

(4) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص348؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص289؛ المقرئ: الخطط، ج3، ص17.

في رحلته، إلى تلك المدارس عند زيارته الموصل سنة 580هـ/1184م، واصفاً إيّاها بالقول: "وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست وأزيد على دجلة فتلوح كأنه القصور المشرفة"⁽¹⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه، أنّ الثقافة الغالبة في الموصل والشّام وفي معظم المدن العربية الإسلاميّة في القرنين السادس والسّابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، كانت الثقافة الإسلاميّة، وآداب اللغة العربيّة، وهذا الاهتمام يمثل ردّاً على التحديات التي واجهتها الشّعوب والمدن الإسلاميّة ممثلاً بالحروب الصليبيّة والاحتلال الصليبي للعديد من المدن لاسيّما في بلاد الشّام، ومن ثمّ إلغاء الخلافة العبّاسيّة سنة 656هـ/1258م، وهي آنذاك رمز وحدة العرب والمسلمين، ووقوع العراق وعدد من مدن الشّام مثل دمشق وحلب تحت وطأة الحكم المغولي⁽²⁾.

وقبل البدء بالحديث عن الجوانب العلميّة والفكريّة التي ازدهرت في هذه الحقبة، يجدر الإشارة إلى الكتابة التاريخيّة، والمؤرّخون في القرنين السادس والسّابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، إذ شهد هذين القرنين نشاطاً ثقافياً ملحوظاً في بلاد الشّام من حيث كثرة المدارس والمكتبات، وظهور نخبة من ألمع المؤرّخين في هذه الحقبة، إذ نشط التأليف، وجمع الكتب، وأنشئت المكتبات في القرن السّابع الهجري/ الثالث عشر الميلاديّ.

كما ازدهرت الكتابة التاريخيّة في القرنين السادس والسّابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، و كان لها أنواع متعددة كالتاريخ العالميّ مثلاً: الكامل في التاريخ لابن الأثير، والمنتظم لابن الجوزي (ت 597هـ/1200م)، وهناك التاريخ المحليّ، وتواريخ المدن مثال على هذا النوع من الكتابة التاريخيّة تاريخ دمشق لابن القلانسي (ت: 555هـ/1160)، وزبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم (ت: 660هـ/1261م)، وهناك أيضاً الكتابة في التّراجم، وكتب التّراجم وفيرة وقيّمة في هذين القرنين مثل وفيات الأعيان لابن خلّكان (ت: 681هـ/1282م)، و معجم الأدباء لياقوت الحمويّ (ت: 626هـ/1228م)، وكتب السّير الشّخصيّة مثل كتاب النّوادر السلطانيّة لابن شداد (ت: 532هـ/74م)، وهناك كتب تتحدث عن الأسر الحاكمة كالباهر في الدّولة الأتابكيّة لابن الأثير، ومفرّج الكروب لابن واصل وغيرهما الكثير، إضافة إلى كتب السيرة وغيرها. ظهر العديد من كبار المؤرّخين وفي الحديث عن أبرزهم:

(1) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص289؛ المقرئزي: الخطط، ج3، ص17.
(2) ابن ممّاتي: قوانين الدّواوين، ص348. أبو شامة: الرّوضتين في أخبار الدّولتين، ج2، ص289؛ المقرئزي: الخطط، ج3، ص17.

- ابن القلانسي (ت: 555هـ/1160م):

هو أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي، ألّف كتاب ذيل تاريخ دمشق، كتبه على السنين، مضيفاً إليه التّراجم في كل سنة. وتبرز أهمية كتابه في كونه أضحى مصدراً لكتابات المؤرخين اللاحقين كابن الأثير، وابن الجوزي، وأبو شامة⁽¹⁾.

- العظيمي (ت: 556هـ/1161م):

محمد بن علي، عمل في حلب معلماً للصبية، ثم مديراً في إحدى مدارسها، اجتمع بابن عساكر في دمشق وبالسّمعاني في بغداد، كتب التاريخ العظيم الذي يعدّ من أهم ما كتب عن تاريخ سوريا الشمالية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي⁽²⁾.

- ابن عساكر (ت: 571هـ/1175م):

هو علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله، الإمام، العلامة، الحافظ الكبير، صاحب تاريخ دمشق، الذي صار أنموذجاً للتأليف في تاريخ المدن، وهو ليس مؤلفه الوحيد لكنه الأشهر⁽³⁾.

- القاضي الفاضل (ت: 596هـ/1199م):

عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمي، حصل على مكانة واسعة زمن صلاح الدين، تولى مناصب إدارية في مصر في السنوات الأخيرة لحكم الفاطميين، وخدم الأيوبيين، عرفت الوثائق التي جمعها باسم الرسائل وقد استعان بها الكثير من مؤرخين تلك الحقبة، وكان له كتابات أخرى متعلقة بالإدارة، وأعماله الإدارية كتبها بوصفه كاتباً لصلاح الدين الأيوبي⁽⁴⁾ وتأتي أهمية كتاباته بأنها تظهر حجم المادة التي ينبغي على مؤرخي تلك الحقبة الاستفادة منها⁽⁵⁾.

- العماد الأصفهاني (ت: 597هـ/1225م):

أبو عبد الله محمد بن صفى الدين، ألّف كتابين مهمين عن بلاد الشام، وعن صلاح الدين الأيوبي، الأول هو البرق الشامي، والثاني الفتح القسي في الفتح القدسي، وله كتاب آخر هو نصرة الفترة وعصرة الفطرة، عالج فيه أخبار السلاجقة، وما يتعلّق بسلطينهم كلّ⁽⁶⁾، ويمكن وصف كتاب الروضتين لأبي شامة، بأنه تلخيص لكتابي أبو العماد، البرق، والفتح.

(1) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص3.

(2) ابن منظور، (محمد بن مكرم، ت: 711هـ/1312م): مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تح: إبراهيم صالح، دار الفكر، ط1، دمشق، 1408هـ/1988م، ج23، ص120؛ الزركلي: الأعلام، ج6، ص277؛ العريني، (السيد الباز): مؤرخو الحروب الصليبية، دار النهضة، القاهرة، 1381هـ/1962م، ص194.

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج20، ص554.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص15.

(5) روزنثال، (فرانز): علم التاريخ عند المسلمين، تر: صالح العلي، مكتبة المثنى، بغداد، 1963م، ص240.

(6) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج23، ص120؛ الزركلي: الأعلام، ج6، ص277؛ العريني، (السيد الباز): مؤرخو الحروب الصليبية، دار النهضة، القاهرة، 1381هـ/1962م، ص194.

- ابن أبي طيء (ت: 630هـ/1232م):

يحيى بن حميدة بن ظافر، مؤرخ شيعي من أهل حلب، وتعدّ كتاباته التاريخية مصدراً مهماً، أخذ عنه كبار المؤرخين أمثال أبي شامة، وابن الفرات، ومن مؤلفاته: معادن الذهب في تاريخ حلب، وسلك النظام في أخبار الشام، والحاوي في رجال الإمامية، شرح بهجة البلاغة⁽¹⁾.

- أبو شامة (ت: 665هـ/1267م):

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، كتب في موضوعات متنوعة في الحديث والنحو والعقيدة، وأصول الفقه والتاريخ⁽²⁾، أهم مؤلفاته الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، والذيل على الروضتين وحسب ما ذكر الكتبي أنّه اختصر تاريخ دمشق لابن عساكر مرتين، وله كتاب عن الفاطميين⁽³⁾، ولم يتبق من هذه الكتب سوى الروضتين والذيل، كان لمؤلفاته الأثر والأهمية الكبيرين إذ أمكن اعتمادها في دراسة تاريخ القرنين السادس والسابع الهجريين.

- ابن خلّكان (ت: 681هـ/1282م):

أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان يكنى "أبو العباس" مؤرخ، وقاضي وأديب⁽⁴⁾، يعدّ من أعلام مدينة دمشق، وهو صاحب كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، وهو أشهر كتب التراجم العربية، ومن أحسنها ضبطاً وإحكاماً. دفن في سفح قاسيون⁽⁵⁾.

- العلوم:

نشطت الحركة العلمية، في العصر الزنكي في مختلف المناطق التي خضعت للحكم الزنكي، وقد تمثّل ذلك بإنشاء العديد من دور التعليم التي حملت على عاتقها مهمّة تثقيف الناس، وتعليمهم، كالمساجد والمدارس والكتاتيب، كما دُرست فيها العديد من فروع المعرفة كالعلوم الشرعية، واللغوية والأدبية، والتاريخية، والرياضيات، والفلك، وغيرها. وبرز عدد كبير من العلماء في مختلف ميادين العلوم والمعارف التي ظهرت، والحديث عنهم يطول لكثرتهم، وفيما يلي عرض سريع لنخبة منهم:

(1) ابن حجر العسقلاني، (أحمد بن علي بن محمد، ت: 852هـ/1448م): لسان الميزان، ط2، الأعلمي للطبوعات، بيروت، 1390هـ/1971م، ج6، ص263.

(2) الكتبي، (محمد بن شاكر، ت: 764هـ/1363م): فوات الوفيات والذيل عليها، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت، ج2، ص270؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص250.

(3) الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص270.

(4) ابن المستوفي: تاريخ أربل، ج1، ص38.

(5) الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص110.

-الزمخشري(444-538هـ/1052-1143م):

أبو القاسم، محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، الأديب البار، وعالم اللغة، إمام العصر في التفسير، والحديث، والنحو، له كتاب مقامات الزمخشري، أساس البلاغة، المفصل في النحو⁽¹⁾.

-ابن عساكر(441-567هـ/1049-1171م):

أبو القاسم، علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، رائد موسوعات التراجم، وتاريخ المدن، نشأ في دمشق، كتب تاريخ دمشق، معجم الأدباء، معجم المدن⁽²⁾.

- القفطي(568-646هـ/1172-1249م):

ابن القاضي الأشرف، يوسف بن إبراهيم بن الواحد بن موسى القفطي، ولد بمصر ولي القضاء في أيام الملك الظاهر، ثم الوزارة في أيام الملك العزيز، أطلق عليه لقب الوزير الأكرم، له مصنفات: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، أخبار المصنفين وما صنّفوه، أخبار مصر، أخبار المغرب، تاريخ آل سلجوق، وغيرهم الكثير⁽³⁾.

- القزويني(597-684هـ/1200-1284م):

أبو يحيى زكريا بن محمد بن محمود القزويني، عالم مبدع في الجغرافية، والفلك، والنبات الطبيعي، من مؤلفاته: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وآثار البلاد وأخبار العباد⁽⁴⁾.

- ابن النفيس(605-688هـ/1208-1288م):

الطبيب البار، مكتشف الدورة الدموية، والعالم الذي فحص جسد الإنسان، ووصف الدواء لكل داء، ولد بدمشق، ودرس اللغة العربية، والقرآن الكريم، قرأ في التاريخ، والفلسفة، والطب، وافته المنية في القاهرة عن عمر يناهز الثمانين، من كتبه: الشامل في الطب، المذهب في الكحل، موجز القانون، كتاب في النحو، كتاب في المنطق⁽⁵⁾.

- السويدي(690-600هـ/1203-1291م):

إبراهيم بن محمد بن علي بن طرخان الدمشقي، الأنصاري، السويدي، العلامة الفذ في الطب، والعقري في علم النبات، والشاعر، والمبدع، والأديب، ولد في دمشق، ودرس علوم اللغة، وحفظ القرآن الكريم، ودرس السيرة، والأحاديث، وقد تعلم الطب، برع في الأدب والشعر، عمل بالبيمارستان

(1) الذهبي، (شمس الدين، ت748هـ/1349م): الإشارة إلى وفيات الأعيان المنتقى من تاريخ الإسلام، تح: إبراهيم صالح، دار ابن الأثير، ط1، بيروت، 1411هـ/1991م، ص275؛ الذهبي: العبر في خبر من غير، ج2، ص453.

(2) الحموي: معجم الأدباء، ج4، ص1496؛ الذهبي: الإشارة إلى وفيات الأعيان، ص314..

(3) الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص96؛ البغدادي: هدية العارفين، ج5، ص709؛ القفطي، (جمال الدين، ت:646هـ/1247م): أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تح: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1426هـ/2005م، ص3. الزركلي: الأعلام، ج5، ص23؛

(4) عبد الفتاح: أعلام المبدعين، ج1، ص785.

(5) الكتبي: الوافي بالوفيات، ج1، ص110؛ عبد الفتاح: أعلام المبدعين، ج1، ص790.

الكبير النوري، وبیمارستان باب البرید بدمشق من كتبه: الباهر في الجواهر، قلائد المرجان في طب الأبدان، التذكرة الهادية في الطب⁽¹⁾.

شجعت سياسة الأيوبيين العلوم والعلماء، كما كانت حال الزنكيين من قبلهم، فحازت الحياة العلمية على جانب كبير من اهتمامهم، ويلاحظ أن هناك عدد كبير من العلماء كان لهم دور في الحياة السياسية، كما كان لحالة الجهاد التي يعيشها العالم الإسلامي، والرغبة في القضاء على الصليبيين والمغول من بعدهم⁽²⁾ أثر كبير في تنشيط الحركة العلمية، وأهم ما يلحظه الباحث في الحركة العلمية في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، أن حياة علماء هذين القرنين كانت تعتمد الحل والترحال اعتماداً كبيراً، ولاسيما من كتب بالتاريخ، والحديث منهم⁽³⁾، لا يستطيع الباحث أيضاً أن يغفل الدور الذي اهتم به العلماء، في هذه المرحلة الحرجة من التاريخ العربي الإسلامي، من نشر للعلوم الشرعية الصحيحة، ونشر الوعي المعرفي، في مجالات العلوم وفروعه عامة في المغرب والمشرق على حد سواء، فازدهر إلى جانب الفقه والحديث، والتاريخ، علوم عديدة كعلم الطب، والنبات، وعلم النفس، والجغرافية، والفلك، وغيرها الكثير، ولا يستطيع أحد أن يغفل دور علماء العرب في هذين القرنين وفضلهم في خدمة العلم والمعرفة، بل وقد غدا بعضهم بمؤلفاته ومنهجه العلمي مثلاً لدى الغرب يحتذى به، وتتلمذ على يدهم نخبة من كبار العلماء الذين توارثوا العلم فيما بينهم جيلاً بعد جيل/ فكان لهم دور بارز، وربما كانوا أصحاب الفضل الأكبر، في تأسيس دور العلم من مدارس، ومكتبات، وكل ما من شأنه أن ينشر العلم والمعرفة في ذلك الوقت⁽⁴⁾.

3- المدارس في العصرين الزنكي والأيوبي:

لاشك في أن الحياة العلمية والحركة العلمية والفكرية، قد نشطت في العصرين الزنكي والأيوبي، ولاقت الكثير من العناية والتشجيع من قبل الحكام الزنكيين والسلطين الأيوبيين، ولاسيما صلاح الدين الذين قاموا بدورهم بإنشاء العديد من دور التعليم التي حملت على عاتقها تثقيف الشباب والنشئة، ومن أبرز هؤلاء الحكام الذين اهتموا بهذا الجانب وكان لهم بصمة واضحة في هذا المجال من خلال إنشاء العديد من دور العلم والمدارس؛ الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، إذ عُرف عنه أنه كان حريصاً على معرفة العلوم وفهمها⁽⁵⁾، ولا ننس تشجيعه ومساندته لابن عساكر صاحب كتاب تاريخ دمشق الذي أتم تأليفه في عهده، وكان كثير الإطلاع، وصاحب معرفة بالفقه الحنفي⁽⁶⁾، وفي الموصل عمل سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي على إكرام الشعراء،

(1) عبد الفتاح: أعلام المبدعين، ج1، ص800.

(2) المزيني، (ابراهيم): الحياة العلمية في العهد الزنكي، ط1، الخرطوم، 1424 هـ/2003 م، ص13.

(3) الصلابي: الدولة الزنكية، ص622.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص29.

(5) الصلابي: الدولة الزنكية، ص622.

(6) عبد الفتاح: أعلام المبدعين، ج1، ص800.

والتذوق بشعرهم، أنشأ الزنكيون العديد من المدارس في المناطق التي حكموها، كما أنشأ الأيوبيون أيضاً العديد منها، وأكملوا النهج الذي اتبعته الدولة العربية الإسلامية زمن الزنكيين، كانت المواد التي تدرّس في هذه المدارس تختلف من مدرسة لأخرى بحسب اختلاف أعمار الطلاب، قبل إنشاء المدارس، كانت تعقد حلقات التعليم في مراكز مختلفة كالمساجد، ومنازل العلماء، والكتاتيب وغيرها من أماكن التعليم، وبعد تأسيس المدارس وانتشارها، ازدادت فرص التعليم، وكثر الإقبال عليها وهناك أمثلة عديدة عن هذه المدارس التي انتشرت في هذين العصرين، ومنها:

1- المدرسة الأتابكية:

بصالحية دمشق، غربيها المرشدية، ودار الحديث الأشرفية المقدسية، أنشأتها بنت نور الدين أرسلان بن أتابك صاحب الموصل واسمها ترکان خاتون، والصواب أنها أخت أرسلان كما قال الذهبي في كتابه العبر في سنة أربعين وستمئة⁽¹⁾ والحجة الأتابكية، امرأة الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحبة المدرسة والترية، ترکان خاتون بنت السلطان الملك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن أتابك بن زنكي بن آق سنقر⁽²⁾، قال أبو شامة: "في ليلة وفاتها كان وقف مدرستها، وتربتها بالجبل، ودفنت بها"⁽³⁾. درّس في هذه المدرسة: تاج الدين أبو بكر بن طالب المعروف بالإسكندري، بالشحرور⁽⁴⁾، والعلامة صفي الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن محمد الهندي الأرموي الشافعي⁽⁵⁾. وماتزال موجودة إلى اليوم وهي مصلّى الأتابكية، في حي الصالحية⁽⁶⁾.

2- المدرسة النورية الصغرى:

بجامع قلعة دمشق، واقفها الشهيد نور الدين محمود بن زنكي، لم يعلم من درّس بها من زمن نور الدين إلى زمن الملك الأشرف، سوى بهاء الدين عياك، كان خطيباً للجامع، وكان رجلاً فاضلاً، وتولاها من بعده تاج الدين بن سوار إلى أن انتقلت إلى شمس الدين وغيرهم⁽⁷⁾.

3- المدرسة النورية الكبرى:

أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر⁽¹⁾، في سنة ثلاث وستين وخمسمئة، كانت قديماً دار معاوية بن أبي سفيان، ويقال إنها الدار المعروفة الآن بابن المقدم، وهي

(1) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ص243؛ الذهبي: العبر في خبر من غير، ج3، ص238. النعمي، (عبد القادر بن محمد، ت 978هـ/1571م): الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1410هـ/1990م، ج1، ص434.

(2) الذهبي: العبر في خبر من غير، ج3، ص238. العلبي، (أكرم): خطط دمشق، دار الطباعة، دمشق، 1979م، ص153.

(3) أبو شامة: الدليل على الروضتين، ج5، ص264. الذهبي: العبر في خبر من غير، ج3، ص238؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص174.

(4) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص97.

(5) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص97.

(6) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص97.

(7) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص499.

تربة الملك العادل نور الدين ومدرسته، ونور الدين أول من بنى داراً لتعليم الحديث⁽²⁾. زارها الرحالة ابن جبير بعد افتتاحها بسنوات قليلة وقدم وصفاً جميلاً لها، فكتب أنها من أحسن مدارس الدنيا مظهرًا، وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب فيه الماء في حوض وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر⁽³⁾.

كان الشيخ قطب الدين النيسابوري أول من ولي التدريس في هذه المدرسة، وكان قدم إليها من دمشق، ثم ولي تدريسها بعده مجد الدين طاهر بن جهيل⁽⁴⁾، وتقع هذه المدرسة بحي الخواصين⁽⁵⁾، وقد أسست المدرسة النورية الكبرى على مساحة 1500 متر مربع تقريباً، ولكن المساحة الحالية تنقص عن ذلك بحوالي 150 متر؛ إذ سلبها جيرانها من الجهة الغربية، وقد هدم البناء الأصلي، وتجدد بناؤه، ولم يبق من البناء القديم إلا الباب، والبهو، والقبّة، ومخطط الصحن⁽⁶⁾.

4- المدرسة العادلية الكبرى:

داخل دمشق، شمالي الجامع، أول من أنشأها نور الدين محمود بن زنكي، وتوفي ولم تتم ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين، الذي توفي أيضاً، ولم يكمل بناءها فتابع والده الملك المعظم⁽⁷⁾.

5- المدرسة العادلية الصغرى:

أسستها زهرة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين، أبي بكر بن أيوب⁽⁸⁾ شقيق صلاح الدين الأيوبي وأيضاً ساهمت في تأسيسها ابنة عم أبيها واسمها بابا خاتون، وهي ابنة أسد الدين شيركوه. ذكر ابن شداد أن أول من ولي التدريس فيها أشرف الدين بن أحمد بن نعمة المقدسي، ثم خلفه تقي الدين بن حياة الرقي، ثم عاد إليها شرف الدين أحمد بن أحمد المقدسي مرة ثانية⁽⁹⁾.

(1) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ج5، ص229؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص499.
 (2) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص499.
 (3) شلبي، (أحمد): التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، النهضة المصرية، ط11، القاهرة، 1999م، ص32.
 (4) ابن المبرد، (يوسف عبد الهادي)، ت909هـ/1503م: الذيل على ثمار المقاصد في ذكر المساجد، تح: محمد طلس، المعهد الافرنسي، بيروت، 1943م، ج3، ص258.
 (5) حي الخواصين: وهو الحي الذي يسميه أهل دمشق في الوقت الحاضر، الخياطين، وهي في الجنوب الغربي بالنسبة للجامع الأموي، وتبعد عنه قرابة نصف ميل تقريباً.
 (6) ابن المبرد: الذيل على ثمار المقاصد في ذكر المساجد، ص258؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص499.
 (7) الذهبي: العبر في خبر من غير، ج3، ص164؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص270.
 (8) ابن شداد: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص343؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص368.
 (9) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ص343.

6- المدرسة الناصرية الجوانية:

تقع داخل باب الفراديس إلى الشمال من الجامع الأموي ⁽¹⁾، شيدها الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز عثمان في 659 هـ / 1260 م ⁽²⁾، وحضر مراسيم الافتتاح الملك الناصر يوسف ⁽³⁾، أول من درس فيها القاضي صدر الدين أحمد بن سني الدولة ⁽⁴⁾، ثم جاء بعده القاضي نجم الدين محمد ابن أحمد بن يحيى بن هبة الله السن، بنى سني الدولة 679 هـ / 1280 م ⁽⁵⁾، وهي من المدارس التي تعنى بتدريس اللغة العربية والفقه ⁽⁶⁾.

7- المدرسة الصالحية:

تنسب إلى الملك الصالح أبو الجيش إسماعيل بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب 648 هـ / 1250 م، ومن العلماء الذين تولوا مشيخة هذه المدرسة في العصر الأيوبي نجم الدين أحمد ابن محمد بن خلف بن راجح بن بلال بن هلال الحنبلي الشافعي ⁽⁷⁾، وقد جمعت المدرسة بين تدريس الفقه والحديث والقرآن الكريم ⁽⁸⁾.

8- المدرسة الركنية (الجوانية):

تنسب إلى الأمير ركن الدين منكورس الفلكي 631 هـ / 1233 م، غلام فلك الدين أخ الملك العادل أبو بكر بن أيوب ⁽⁹⁾، وهي تقع في جبل قاسيون، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة ⁽¹⁰⁾، درس فيها القاضي شمس الدين سني الدولة، ومن ثم ولده صدر الدين، أشار ابن خلكان إلى بعض الكتب الفقهية المعتمدة في مناهج هذه المدرسة؛ فذكر لما نزل بها سنة 660 هـ / 1263 م، شرع في تدريس كتاب المزني (المختصر) ⁽¹¹⁾، وبدأ فيه من أوله ⁽¹²⁾.

لم تكن هذه المدارس هي الوحيدة التي شيدها الزنكيون والأيوبيون، بل كان هنالك العديد منها وقد اختلفت مناهجها، والعلوم التي تعنى بها، وانتشرت في بلاد الشام ومصر والموصل. وللتوسع في

(1) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج 1، ص 459.

(2) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج 1، ص 459.

(3) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج 8، ص 793؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 3، ص 206..

(4) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ص 244. الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج 3، ص 299.

(5) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ص 244.

(6) ابن تغري بردي: (جمال الدين، ت 874 هـ / 1470 م) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، القاهرة، 1984 م، ص 282.

(7) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ص 250. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج 1، ص 316.

(8) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج 1، ص 239. العلبي: خطط دمشق، ص 130..

(9) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج 8، ص 606. ابن كثير: البداية والنهاية، ج 13، ص 154.

(10) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ص 236. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج 1، ص 253.

(11) المزني: هو إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن أبي عمر بن إسحاق المزني، أحد الأئمة في المذهب، عالماً، زاهداً، مجتهداً، توفي 264 هـ / 877 م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 1، ص 217. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج 2، ص 93.

(12) ابن كثير: البداية والنهاية، ج 13، ص 247.

هذا المجال ذكر النعيمي في كتابه الدّارس في تاريخ المدارس المدارس التي شيدت في هذين العصرين، وأتى على ذكر مؤسس كل منها، وجمع بعض المعلومات عنها⁽¹⁾.
رابعاً: الأوضاع الاجتماعية:

1- الأوضاع الاجتماعية في المشرق الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين:

- الأوضاع الاجتماعية في الموصل وبلاد الشام في العصر الزنكي:

سعى نور الدين محمود إلى تقديم، أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه، وجعل مؤسسات الدولة صالحة في خدمة الناس، وسعت لتغطية شتى الحاجات ابتداءً من قضايا المسكن والملبس والمأكل، وانتهاءً بقضايا الروح، ومروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال، وحيناً عن طريق إنشاء مؤسسات كالملاجئ، ودور الأيتام، والمدارس، ودور الحديث، والجسور، والقنوت، والأسواق، والحمامات، والطرق العامة، والمخافر⁽²⁾.

ففي مجال الصحة، اهتم نور الدين بإنشاء المستشفيات، وجعلها تقدم الخدمة الطبية المجانية للشعب، وانتشرت في أغلب المدن الزنكية، فعُرف عن الملك العادل نور الدين محمود وخلفائه من البيت الأيوبي عرف عنهم الاهتمام بدراسة الطب وممارسته⁽³⁾.

بالإضافة إلى ذلك كانت الخوانق والرُّبُط؛ وهي تعدّ من أهم مراكز الصّوفيّة في العهد الزنكي، التي لم تقتصر وظيفتها على الوظيفة الدينية فقط؛ بل تعدتها إلى القيام بالعديد من الوظائف الدينية والاجتماعية الأخرى، وكان هناك عدد كبير من الخوانق⁽⁴⁾، ومنها ما هو خاص بالرجال، ومنها ما هو خاص بالنساء؛ يتعبدن فيها ويتلقين دروساً في الوعظ والإرشاد الديني، وكان لهذه المؤسسات مشاركة فعّالة في إثراء الحياة العلمية في ذلك العهد، ومن جانب آخر أولت الدولة الزنكية الأرامل والأيتام اهتماماً بالغاً لما كانت هذه الدولة ذات طابع جهادي، وحروبها مع الصليبيين كثيرة مما أدّى لكثرة أعداد الشهداء⁽⁵⁾.

(1) النعيمي: الدّارس في تاريخ المدارس، ج1، ص316 و ما بعدها.

(2) الصلابي: القائد المجاهد نور الدين محمود، ص130.

(3) الصلابي: القائد المجاهد نور الدين محمود، ص122.

(4) الخوانق: جمع خانكاه، وهي كلمة فارسية معناها بيت الأكل، وقيل في أصلها خونقاه؛ أي الموضع الذي يأكل فيه الملك والخوانك نشأت في الإسلام في حدود القرن الرابع للهجرة، وجعلت لتفرغ الصوفية فيها لعبادة الله تعالى، أمّا في مصر فلم تظهر الخوانق إلّا في القرن السادس الهجري. ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ص191؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج3، ص139.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص34؛ أبو شامة الروضتين، ج1، ص556؛ الصلابي: القائد المجاهد نور الدين محمود، ص122.

ومن ثم كثرة عدد الأرمال والأيتام، إذ أشرفت الدولة النورية على تزويج الأرمال، والاهتمام بهنّ، وأشارت المصادر إلى أنّ الدولة حرصت على علاج أوضاعهم، من خلال تخصيص أموال وكساء لهم⁽¹⁾، ففي سنة 569هـ/1173م استدعى نور الدين محمود بن زنكي رؤساء دمشق، ومشايخها، ومقدمي حاراتها، وقال: أريد منكم أن تكشفوا عن أحوال مجاوركم فعرّفوني باليتامى والأرمال ومن انقطع عن الكسب⁽²⁾، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على مدى حرص نور الدين على الإلمام بأحوال شعبه ومساندتهم، وفي هذا المجال لم يكن نور الدين محمود الوحيد الذي عني بأمور الأيتام وتأمين احتياجاتهم، فقد قام الأمير مجاهد الدين قايمار والي القلعة في الموصل بإنشاء مكتب للأيتام بالموصل إلى جانب مدرسته⁽³⁾.

وبالحديث عن بنية المجتمع في ذلك الوقت، والعناصر الموجودة فيه؛ كانت العناصر العربية موجودة بكثرة في ذلك الوقت، إذ اتجهت إلى بلاد الشام للمتاجرة، وللتخلص من موجات الجفاف التي كانت تشهدها شبه الجزيرة العربية⁽⁴⁾، ووجدت قبائل عدّة استقرت في بلاد الشام، مثل قبيلة بني كلاب، وبني طيء، وبني كلب⁽⁵⁾. كذلك وجدت العناصر التركية التي قدمت مع تقدّم القبائل التركية، إلى المنطقة لاسيّما في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي⁽⁶⁾. بالإضافة لاستقرار الأكراد في بلاد الشام وشمال العراق⁽⁷⁾. أضف إلى هذه العناصر أهل الذمة وتمثلوا في المسيحيين الذين عملوا في الأنشطة الصناعيّة والتجاريّة، واليهود الذين استقروا في المدن الشاميّة والجزيريّة، مثل دمشق وحلب، واهتموا بالنشاط التجاري، ووجدت حارة باسمهم في دمشق ذكرها ابن عساكر⁽⁸⁾، كما ازداد نفوذ العناصر العسكريّة اجتماعياً، وبالطبع الإقطاعات التي حصلوا عليها كانت مسوّغاً في تمييزهم الطبقي، وازدهر شأن الطبقة الوسطى العاملة بالتجارة، في حين انحدر الوضع الاجتماعي للفلاحين في بلاد الشام والجزيرة، بالإضافة لما عانوه من فرض التجنيد الإجباري⁽⁹⁾.

(1) ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص39.

(2) ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج4، ص82.

(3) المزيني: الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص121.

(4) الحويري، (محمود): الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، القاهرة، 1979م، ص15.

(5) عوض: في الصّراع الإسلاميّ الصليبي سياسة نور الدين الخارجيّة، ص252.

(6) عوض: في الصراع الإسلاميّ الصليبي، ص252.

(7) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص185.

(8) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج23، ص111.

(9) عوض: في الصّراع الإسلاميّ الصليبي، ص256.

– الأوضاع الاجتماعية في بلاد الشام ومصر في العصر الأيوبي:

وبالحديث عن الحياة الاجتماعية التي عاشها المجتمع الأيوبي، فيمكن الحديث عن تقسيمات المجتمع الأيوبي آنذاك، إذ قُسم المجتمع الأيوبي إلى فئات عدة، منها الفئة الخاصة؛ وهي فئة السلاطين والأمراء وكانت تعيش حياة ترف، وصفها الوهراني في مناماته قائلاً: "حصل بنو شادي على الرتبة الفاخرة، قصدهم الملك والمملوك، وانتابهم الغني والصعلوك، فوهبوا الجياد والعباد، وفرقوا المال والأعمال"⁽¹⁾. وتلي فئة السلاطين فئة علماء الدين التي عاشت قريبة من السلاطين، ونال علماء الدين مكانة خاصة في المجتمع المصري، فارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بطبقة الحكام، فالقاضي الفاضل بن عبد الرحيم بن علي، كان وزيراً لصلاح الدين الأيوبي⁽²⁾، أما التجار فهم الفئة الثالثة؛ فقد ساهموا في الازدهار الاقتصادي للدولة الأيوبيّة، وفئة العامة التي تشمل الفلاحين والصنّاع والجند، وأهل الذمة، ومن الفئات التي سادت آنذاك القضاة الذين كانوا يحظون بمنزلة عالية في المجتمع المصري في العصر الأيوبي، يحكمون بالشريعة الإسلامية، ومعظمهم كان ميسور الحال؛ حتّى إنّ القاضي ضياء الدين الشهرزوري، كان يملك داراً بالقاهرة، ومنزلاً في مصر يستضيف الناس فيه⁽³⁾. ساد المجتمع الأيوبي العديد من المظاهر الاجتماعية السلبية منها والإيجابية، فمثلاً انتشرت في مصر الحمّامات⁽⁴⁾ العامة التي أدّت دوراً اجتماعياً بارزاً في مصر فقد كانت ملاذاً لعامة الناس من الرجال والنساء، وارتبطت بالعادات والتقاليد، فهي ظاهرة اجتماعية مهمة أدّت دوراً بارزاً في أنها كانت ملقياً للكثير من فئات المجتمع، ومن جانب آخر ساد العصر الأيوبي أشكالاً من الفساد الاجتماعي، الذي كان استمراراً للعصور السالفة، ولربما يرجع مسوّج هذا الفساد إلى انشغال الدولة الأيوبيّة بالأمر القتالية والحروب مع الصليبيين، فمن أشكال هذا الفساد تعاظم الحشيش والأفيون؛ إذ كثر وجوده في أسيوط، وكان يعتصر من ورق الخشخاش الأسود⁽⁵⁾، الذي يؤدي إلى السكر⁽⁶⁾ وكانوا يتعاطونها بحجة أنها تُذهب الهموم، وتجلو الأفكار⁽⁷⁾، وانتشرت في العصر الأيوبي تجارة الرقيق، وكثر التنافس في اقتناء الجواري⁽⁸⁾، أمّا القتل والفتك فقد احترفه كثيرون على طرق التجارة⁽¹⁾، كما كثر القتل على يد

(1) الوهراني، (ركن الدين محمد بن محمد، ت 575هـ/ 1179م): منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تح: ابراهيم شعلان و محمد نغش، مؤسسة الجمل، ط1، ألمانيا، 1998م، ص5.

(2) ابو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج3، ص89؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص24؛ المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص266.

(3) البنداري: سنا البرق الشامي، ص117.

(4) الحمّامات: مفردا حمام، وهو مشتق من الحميم، وهو الماء الحار الذي يسخن والحمام هو المكان الذي يسخن فيه الماء. ابن منظور، (محمد بن مكرم، ت 711هـ/ 1311م): لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، 1414هـ، ج12، ص153.

(5) البغدادي، (عبد اللطيف، ت 629هـ/ 1231م): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، تح: أحمد سيانو، دار قتيبة، ط1، دمشق، 1403هـ/ 1983م، ص112؛ الحموي: معجم البلدان، ج1، ص193.

(6) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص112.

(7) المقرئزي: المواعظ، ج3، ص419.

(8) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص93.

السُّكاري بمن يلقونه ليلاً، وضربهم إيَّاه بالسكاكين⁽²⁾، لم تكن هذه فقط هي الظواهر الاجتماعية الفاسدة التي عمّت في المجتمع الأيوبي، لكن كانت هذه نظرة شاملة وعامة عن الحياة السائدة في العصرين الزنكي والأيوبي، وإن لم يأت ذكر الكثير من الظواهر والنواحي الاجتماعية الأخرى. فحال المجتمع الأيوبي كحال المجتمعات الأخرى في العصور كلّها، تعددت فيه الفئات الاجتماعية، وكثرت فيه الظواهر السلبية؛ وخاصة أن الأيوبيين كانوا في حال صراع دائم مع الصليبيين، وكانوا متعرضين للأخطار في أي وقت.

خامساً: الحركة العمرانية:

1- المساجد:

يعدّ المسجد أول وأهم مكان للتعليم في الإسلام، بل هو المكان الرئيس للحياة العلمية في أيّ مكان في العالم الإسلامي، ولاسيما المدة التي سلفت إنشاء المدارس وانتشارها. نالت المدارس في هذا العصر اهتماماً كبيراً، لتأتي الدولة الأيوبية وتهتم بعمارة المساجد وتوليها الاهتمام الذي نالته المدارس في ذلك الوقت، ففي زمن صلاح الدين الأيوبي، أصبح بالإمكان استخدام المدرسة، بوصفها مدرسةً وجامعاً في آنٍ معاً، فمثلاً جامع الظاهر بيبرس مربع ذو ثلاثة أبواب، بارزة من ثلاثة جهات، ورواق أوسط من جهة القبلة، وقبة أمام المحراب، وعندما شاع استعمال المدرسة، وُسع المبنى، إذ أصبح بالإمكان استعماله بوصفه مسجدًا ومدرسةً في الوقت نفسه. وتميزت المساجد في هذا العصر من حيث الشكل، فهناك الساحة، وهي من ميزات عمارة المساجد بشكل عام، كما هو الحال في المدرسة الصلاحية والركنية، التي كانت مسجدًا ومدرسةً في الوقت نفسه، وكان لها قبة تغطي هذه الساحة، والبركة تكون غالباً إمّا مضلعة أو مستطيلة الشكل. وهناك الحرم، وهذا الشكل بقي قائماً حتى العهد العثماني⁽³⁾، والقبة عنصر مهم من عناصر العمارة الأيوبية، ولها طابعها الخاص إذ زاد ارتفاعها عن ذي قبل وتنوعت أشكالها⁽⁴⁾، لقد تميزت القباب بأنها ليست مرتفعة أو ضخمة إذ لا يضيع المنظر العام، كما استخدمت الواجهات في الأبنية الأيوبية كلّها، وهي واجهات من الحجر، وهناك المقرنصات؛ وهي نوع من أنواع الزخارف تُقلد بها الأعمدة التي تنشأ في بعض المغاور يسمونها الإفريقية، وأكثر ما تستخدم في زوايا السقوف، وعقود الأبواب وهذا ما نشاهده في مدارس ومساجد الأيوبيين في دمشق⁽⁵⁾. وأهم أجزاء المساجد هي المآذن، كانت تتكون من طابقين الأول مربع، والثاني مثنى وتنتهي بمبخرة، على شكل هرم، أمّا الشرفة الخشبية فقد وجدت بين الطابقين كانت تقليد للمآذن

(1) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص 91.

(2) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص 91؛ المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ص 248.

(3) البدر، (جودت): المساجد الأيوبية في دمشق، الجامعة الأردنية، الأردن، 1996، ص 160.

(4) البدر: المساجد الأيوبية في دمشق، ص 140.

(5) العلوي، (عبد الباسط بن موسى بن محمد، ت 981هـ/ 1573م): مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمساجد والمدارس، تح: صلاح المنجد، مديرية الآثار القديمة، دمشق، 1947م، ص 130.

الأموية⁽¹⁾. والأمثلة على هذه المساجد كثيرة منها ما خُصص للعبادة، ومنها ما كانت له وظيفتان دينية وتعليمية فاستخدم بوصفه مسجداً ومدرسة في آن واحد.

2- البيمارستانات:

ومفردتها بيمارستان⁽²⁾، فيكون معنى بيمارستان "مكان المريض"، وقد اختصرت كلمة بيمارستان في الاستعمال، فصارت تدعى مارستان، ويراد بها في العربية المستشفى، وهو المكان المخصص لمداواة المرضى وإسعافهم، وتقديم العلاج اللازم لهم، إضافة إلى كونها مدرسة لتعليم الطب، وكان لها أنواع عديدة أهمها: البيمارستانات الثابتة؛ وهي التي تبنى في أماكن معينة، وبنائها ثابت لا يتنقل، وجد هذا النوع في المدن الكبرى، فانتشرت البيمارستانات في العصر الزنكي بدايةً، وكان من أبرز البيمارستان، فذاع صيته وكان له الكثير من الشهرة منذ ذلك الوقت وحتى الوقت الحاضر، هو البيمارستان النوري يقع في قلب مدينة دمشق، ويعدّ واحداً من ثلاثة بيمارستانات اشتهرت بها المدينة، بناه الملك العادل نور الدين زنكي، وخصصه بوصفه مشفى للمساكين والفقراء، ثم تحول ليصبح واحداً من أشهر المشافي ومدارس الطب والصيدلة في البلاد الإسلامية، وقد تعلم فيه كبار الأطباء مثل ابن سينا والزهرابي⁽³⁾.

يقع في قلب مدينة دمشق القديمة في الحريقة، جنوب غرب الجامع الأموي، شرق سوق الحميدية، ويعدّ البيمارستان النوري من أهم المباني التاريخية في مدينة دمشق⁽⁴⁾

كما انتشرت البيمارستانات في أرجاء الدولة الأيوبية، وأشهرها الصلاحي أو الناصري الموجود خلف قصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله في القاهرة⁽⁵⁾. وصف ابن جبير البيمارستان الناصري في رحلته المشهورة فقال: "وما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان البيمارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة"⁽⁶⁾.

(1) حسن، (محمد كامل): دراسات في الشعر الأيوبي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1957م. نقلاً عن البدور: المساجد الأيوبية في دمشق، ص141.

(2) بيمارستان: وهي كلمة فارسية مركبة من كلمتين، بيمار؛ وتعني المريض أو الحزين أو العليل؛ وستان؛ ومعناها الدار أو المكان، فيكون معنى بيمارستان، مكان المريضشتا، (إبراهيم الدسوقي): المعجم الفارسي الكبير، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1992م، ج1، ص446.

(3) العلبي: خطط دمشق، ص150.

(4) العلبي: خطط دمشق، ص151.

(5) العزيز بالله: نزار بن معد، المعز لدين الله، ابن المنصور، صاحب مصر والمغرب، ولد بالمهديّة 344هـ/955م وكان في أيامه فتن وقلاقل، زكان كريم الاخلاق، حليماً. الزركلي: الاعلام، ج8، ص16.

(6) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص26.

وأنشأ الملك الناصر صلاح الدين بيمارستاناً آخر في الإسكندرية، سنة 577 هـ / 1181 م، كما عرف في مصر بالبيمارستان العتيق⁽¹⁾. وفي البيمارستانات الثابتة يراعى أن يتكون من قسمين منفصلين، أحدهما للذكور والآخر للإناث، وأن يضم كل قسم قاعات عدّة لمختلف الأمراض والجراحة والأمراض النفسية⁽²⁾، زودت البيمارستانات بمكتبات تضم العديد من المخطوطات الطبية، كما ألحقت بها بيوت الخلاء، وأحواض مائيّة، ومطبخ وقاعة لغسل الموتى⁽³⁾.

بالإضافة إلى أنواع أخرى من البيمارستانات الثابتة كبيمارستان أهل الدّمة، وكانت ملحقة بالأديرة والكنائس⁽⁴⁾. وبيمارستانات السّجون، وهي ملحقة بالسّجون تتولى رعاية المساجين المرضى، وتقديم الأدوية والأطعمة لهم⁽⁵⁾.

- البيمارستانات المتنقلة:

هي التي تنتقل على الحيوانات من مكان إلى آخر، كلما دعت الحاجة لذلك، ولها أشكال متعددة أيضاً منها بيمارستانات مواكب السلاطين تسير بمصاحبة المواكب السلطانية في الحروب⁽⁶⁾، وبيمارستانات الجند⁽⁷⁾.

وبيمارستانات القرى التي تنتقل بين القرى، خصوصاً عند انتشار الأمراض المعدية، والأوبئة⁽⁸⁾، وبيمارستانات الإسعاف، في وقت صلاة الجمعة والأعياد⁽⁹⁾، وتشير المصادر إلى أن أول من استحدث البيمارستانات في مصر كان أحمد بن طولون⁽¹⁰⁾، في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

(1) عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص 82.
(2) الخطيب، (حنيفة): الطب عند العرب، الأهلية للنشر، ط 1، بيروت، 1986 م، ص 217.
(3) عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص 18. هياجنة، (سهيل علي): البيمارستانات في العصرين الأيوبي والمملوكي في بلاد الشام 570 هـ - 922 هـ / 1174 - 1517 م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، أربد، الأردن، 2002 م، ص 148.
(4) هياجنة: البيمارستانات في العصرين الأيوبي والمملوكي في بلاد الشام، ص 142.
(5) عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص 74.
(6) عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص 16.
(7) هياجنة: البيمارستانات في العصرين الأيوبي والمملوكي في بلاد الشام، ص 145.
(8) ابن أبي أصيبعة: عيون، ص 301. عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص 111.
(9) المقرئزي: المواعظ، ج 1، ص 64. هياجنة: البيمارستانات في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص 147.
(10) أحمد بن طولون: أبو العباس، الأمير صاحب الدّيار المصريّة والشّاميّة، والثّغور، تركي مستعرب شجاع، جواد، حسن السيرة، بنى الجامع المنسوب إليه في القاهرة، توفي في مصر 270 هـ / 883 م. الزركلي: الأعلام، ج 1، ص 140.

كانت المساجد والبيمارستانات أنموذجاً عن العمائر التي كانت منتشرة في عصر الدولة الأيوبيّة، وهو مثال صغير عن إنجازات هذه الدولة العمرانيّة، فإلى جانبها كان هناك العديد من الأبنية العمرانيّة التي تدل على براعة الأيوبيين العمرانيّة، فكانت الحمامات، كما سلف الحديث عنها، والأسواق كسوق للحدّائين، وسوق للزهور والورود وهو سوق الرّيحان⁽¹⁾ وغيرها، والقلاع فهم لم يهملوا المنشآت العمرانيّة، والحربيّة، والمدنيّة منها التي تعنى بحياة عامّة الشعب وأطرافه وفئاته كافة.

(1) زكار؛ بيطار: تاريخ الدولة العربيّة في المشرق، ص309.

الفصل الثاني

ابن الأثير: حياته، وثقافته ومؤلفاته (555-630هـ / 1160-1233م)

1- حياة ابن الأثير: أ- اسمه وكنيته ونسبه.

ج- أسرته

د- نشأته وعلومه الأولى

هـ - رحلات ابن الأثير: - رحلاته الى الحج

- رحلاته في طلب العلم

و- وفاته

2- ثقافته: أ- أثر أسرته

ب- شيوخه.

ج- تلاميذه

3- مؤلفاته: أ- اللباب في تهذيب الأنساب.

ب- أسد الغابة في معرفة أخبار الصحابة .

ج- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية.

د- الكامل في التاريخ.

4- علاقته بعلماء عصره

5- مكانته العلمية وآراء العلماء فيه

1- سيرة ابن الأثير:

أ- اسمه وكنيته ونسبه:

هو علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري⁽¹⁾، أبو الحسن عز الدين بن الأثير، المؤرخ، الإمام، من العلماء بالنسب والأدب، الملقب عز الدين⁽²⁾

ب- ولادته:

ولد بجزيرة ابن عمر⁽³⁾ ونشأ بها. في رابع جمادى الأولى سنة 555هـ/ 1160م⁽⁴⁾ ثم سار إلى الموصل مع والده وإخوته في سنة 579هـ/ 1184م. وبالعودة إلى المصادر التي ترجمت لابن الأثير يُلاحظ الباحث في التاريخ أنه ضنّ بالترجمة لنفسه فلا يقرأ عن صفاته وطفولته الكثير.

ج- أسرته:

نشأ ابن الأثير في أسرة اشتهرت بالعلم والثقافة، كان والده متولي ديوان المدينة من قبل قطب الدين مودود بن زنكي⁽⁵⁾. بعد وفاة قطب الدين لا يعلم إن كان محمد قد بقي متولي المدينة لنور الدين محمود⁽⁶⁾. يعد ابن الأثير الأوسط بين أخويه، نبغوا في ميادين الدراسات العربية والإسلامية أخوه مجد

(1) السمعاني، (عبد الكريم محمد بن منصور التميمي السمعاني، ت562هـ/ 1133م): الأنساب، تح: عبد الرحمن المعلم، دائرة المعارف العثمانية، ط1، حيدر آباد، 1382هـ/ 1962م، ج3، ص269؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج22، ص354.

(2) الصفدي، (صلاح الدين بن خليل أبيك الصفدي: ت764هـ/ 1367م): الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ/ 2000م، ج7، ص48؛ الزركلي: الأعلام، ج4، ص331.

(3) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام أول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي، تحيط بها دجلة من إلا من ناحية واحدة شبه الهلال، هي داخلية ضمن الحدود التركية حالياً في أعلى الجزيرة السورية، يحاطها نهر دجلة من ثلاث جهات لذلك سميت بجزيرة. الحموي: معجم البلدان ج2، ص138؛ غندور، (محمد يوسف): تاريخ جزيرة ابن عمر، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990، ص274.

(4) الذهبي، (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان بن قايماز، ت748هـ/ 1347م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، بشار عواد معروف، شعيب الأرنؤوط، صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1408هـ- 1988م، ج13، ص926.

(5) قطب الدين مودود بن زنكي: قطب الدين مودود بن زنكي، الأعرج، صاحب الموصل، وابن صاحبها، تملك بعد أخيه سيف الدين غازي، فعدل وأحسن السيرة، توفي في شوال عن نيف وأربعين سنة، كان محبباً إلى الرعية، الذهبي، (الحافظ، ت748هـ/ 1347م): العبر في خبر من غبر، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1405هـ- 1985م، ج3، ص64.

(6) نور الدين محمود: نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر، ملك حلب، سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ص329.

الدين أبو السعادات المبارك، اشتهر برواية الحديث الشريف⁽¹⁾. أشهر مؤلفاته النهاية في غريب الحديث والأثر، وكتابه جامع الأصول⁽²⁾.

كان لأسرة ابن الأثير مكانة سياسية واجتماعية كبيرة لدى أمراء الموصل وحكام الشام ومصر، حيث أسهم أفرادها بمناصب حكومية مرموقة، فالوالد أثير الدين أبو الكرم محمد كان استلم وظيفة متولي ديوان جزيرة ابن عم، وهو من أهل هذه الجزيرة وكان نائباً لأتابك الموصل⁽³⁾. وفي هذا كتب ابن الأثير عن منصب والده ومكانته قائلاً: "حدثني والذي رحمه الله - قال: كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين" وانتقل بهذا المنصب مع أسرته إلى الموصل سنة خمسمائة وخمس وستون للهجرة، وظلّ يعمل في خدمة عز الدين مسعود⁽⁴⁾.

كان أثير الدين من عليّة القوم ثرياً، له تجارة رابحة ويملك الضياع والبساتين بالجزيرة وبالعقيمة مقابل الجزيرة حيث قال في هذا ابنه المؤرخ ابن الأثير: "كان من جملة أعمال جزيرة ابن عمر قرية تسمى العقيمة⁽⁵⁾؛ مقابل جزيرة ابن عمر من الجانب الشرقي، وكان لنا عدّة بساتين فيها"⁽⁶⁾.

تطرق ابن الأثير لمكانة أسرته لدى حكام الموصل في مقدمة كتاب الباهر في الدولة الأتابكية، بعد أن اعترف بما لهذه الدولة من فضل عليه وعلى أسرته⁽⁷⁾، فاتضح من خلال كتابه الباهر في الدولة الأتابكية أنّه من أسرة عربية شيبانية لها عظيم المكانة والجاه والثراء لدى الأتابكة.

وبعد انتقال الأسرة إلى الموصل جعل أثير الدين منزله منتدى يجتمع فيه كبار الدولة من العلماء، والأدباء والموظفين، فكانت تدور أحاديث متنوعة في هذا المنتدى، كان ابن الأثير يحضر هذه الأحاديث ويدونها⁽⁸⁾.

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص5.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص5.

(3) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص8.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص9.

(5) العقيمة: قرية تحاذي جزيرة ابن عمر وفيها بساتين كثيرة. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص109.

(6) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص5.

(7) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص10.

(8) طليمات، (عبد القادر): ابن الأثير الجزري المؤرخ، دار الكاتب العربي، مصر، 1969م، ص10.

ولم يُخفِ ابن الأثير ذلك حيث صرّح في مقدمة كتابه الباهر أنّه نقل أكثر ما كتبه في الكتاب عن والده وقد ذكر والده كمصدر له عن الزنكيين⁽¹⁾.

جاء ابن الأثير من أسرة عريقة، اجتمعت فيها خصال الأسر العريقة، كالثراء والنسب، والمكانة السياسية، فمن ناحية الثراء -فكما سلف ذكره- أنها أسرة ثرية امتلكت عقارات واقطاعات، وكان لهذه الأسرة المكانة الاجتماعية المرموقة لدى أمراء الجزيرة والموصل وحكام مصر والشام⁽²⁾.

و إخوته هم:

المبارك أبو السعادات (544 / 606 هـ - 1150 / 1210 م):

أخوه المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، أبو السعادات، مجد الدين، المحدث، اللغوي، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، وانتقل إلى الموصل، فاتصل بصاحبها، فكان من أخصائه، وأصيب بمرض فبطلت حركة يديه ورجليه⁽³⁾، ولأزمه هذا المرض إلى أن توفي في إحدى قرى الموصل، قيل: أنّ تصانيفه كلّها ألّفها زمن مرضه، إملاءً على طلبته وهم يعينونه بالنسخ والمراجعة⁽⁴⁾.

كما أنّه تولى وظائف عدّة، منها النظر على خزانة سيف الدين غازي، صاحب الموصل، ثم تولى ديوان جزيرة ابن عمر، ثم عاد إلى الموصل فكان نائباً للوزير جلال الدين علي بن منصور الأصفهاني على ديوانها، ثم عمل فيها كاتب الإنشاء لبعض ملوكها وظلّ في وظيفته هذه حتى أقعده المرض⁽⁵⁾، فأقام في داره يزوره الأكابر والعلماء، وقد ألّف كتبه كلّها أثناء مرضه⁽⁶⁾.

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص8.

(2) طليّات: ابن الأثير المؤرّخ، ص15.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص5.

(4) ابن كثير، (عماد الدين اسماعيل بن عمر، ت776 هـ/1374 م): طبقات الشافعية، تح: عبد الحفيظ منصور، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، 2001 م، ج2، ص5.

(5) عرض له مرض كف يديه ورجليه فمنعه من الكتابة مطلقاً.

(6) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص142.

كان عالماً فاضلاً وسيّداً كاملاً⁽¹⁾، قد جمع بين علوم اللغة العربية والقرآن والنحو واللغة والحديث، والفقه، كان شافعيّاً، وصنّف في كلّ ذلك تصانيف مشهورة بالموصل وغيرها واشتهر برواية الحديث الشريف⁽²⁾، له من التصانيف الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف، الباهر في النحو، جامع الأصول لأحاديث الرسول، النهاية في غريب الحديث والأثر⁽³⁾، وكتابه جامع الأصول قد جمع فيه بين علم اللغة والقرآن والنحو والحديث توفي 606 هـ / 1210 م⁽⁴⁾

ضياء الدين ابن الأثير (558-637 هـ / 1163-1239 م):

نصر الدين ضياء الدين بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير، الجزري، الموصلّي⁽⁵⁾.

وهو الأخ الأصغر لابن الأثير المؤرّخ، وإلى جانب المناصب السياسية التي تقلّدها كأخيه الأكبر ووالده، كان له الأثر المحمود في الأدب والشعر وغيرها فهو سليل أسرة على ناحية كبيرة من العلم والأدب. كان مولده بجزيرة ابن عمر ونشأ بها، وانتقل مع والده إلى الموصل، حصل فيها العلوم، وحفظ كتاب الله الكريم، وكثيراً من الأحاديث النبوية، وطرفاً صالحاً من النحو، واللغة وعلم البيان، وشيئاً كثيراً من الأشعار. كان أديباً من كبار أدباء العرب، وكتّاباً من كتّابهم المعدودين، وكذلك كان ابن الأثير شاعراً، وإن غلبت صناعة الكتابة على فنّه الأدبي. وقد كان وزيراً للملك الأفضل نور الدين بن صلاح الدين الأيوبي صاحب دمشق، ولمّا خرجت دمشق من يد الأفضل، التحق بخدمة الظاهر غازي⁽⁶⁾ صاحب حلب، ولكن لم يطل مقامه عنده وخرج مغاضباً له وسار إلى الموصل، إلّا

(1) الحموي، (ياقوت بن عبد الله، ت 626 هـ / 1288 م): إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1993 م، ص 2268.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 1، ص 5.

(3) البغدادي: هدية العارفين أسماء، ج 2، ص 2.

(4) الذهبي: العبر في خبر من غير، ج 3، ص 14.

(5) ابن الأثير، (نصر الله بن أبي الكرم بن محمد، ت 637 هـ / 1240 م): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، ط 1، القاهرة، دت، ج 1، ص 5.

(6) -الظاهر غازي: صاحب حلب ولد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد بمصر سنة ثمان وستين وخمسائة، كان بديع الحسن، كامل الملاحه، سمحاً جواداً، توفي سنة ثلاثة عشر وستمائة. الذهبي: العبر في خبر من غير، ج 3، ص 156.

أنّه لم تطب له الإقامة بها، فرحل منها إلى أربل⁽¹⁾. فلم يستقم حاله بها أيضاً، ورحل عنها إلى سنجار⁽²⁾، ثم عاد إلى الموصل واستقر بها، والتحق بخدمة ملكها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود بوظيفة كاتب الإنشاء، وذلك سنة 618 هـ / 1221 م. واستقرّ به الأمر في بغداد بعد وفاة ناصر الدين محمود⁽³⁾. و بعد ما آلت الموصل لبدر الدين سنة 637 هـ / 1240 م، سيّره بدر الدين إلى بغداد حيث توفي فيها⁽⁴⁾.

له من التصانيف الدالة على غزارة فضله الكثير، كتابه الذي أسماه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، وهو في مجلدين، وكتاب: الواشي المرقوم في حل المنظوم، وكتاب المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء، ومجموعة اختار فيها شعر أبي تمام والبحري وديك الجن، وصُنِفَتْ في مجلّد واحد كبير⁽⁵⁾. كتب ابن خلّكان في وفيات الأعيان: "وتوفي سنة 637 هـ / 1239 م ببغداد، وقد توجه إليها رسولاً من جهة صاحب الموصل وصُلِّيَ عليه في الغد"⁽⁶⁾. ودفن بمقابر قریش⁽⁷⁾.

(1) - أربل: مدينة في كردستان يعود تاريخها إلى عصر الأشوريين، واصبحت مقراً للأتابكة، وتعتبر الآن أكبر المحافظات العراقية، الحموي: معجم البلدان، ص 230.

(2) - سنجار: بكسر اوله وسكون ثانيه ثم جيم وآخره راء، مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهي في لحف جبل عال. الحموي: معجم البلدان، ج 3، ص 262.

(3) بدر الدين لؤلؤ: الملقب بالملك الرحيم، وهو أرمني الأصل سُبي صغيراً من أرمينيا فاشتره رجل خياط ثم صار إلى الملك نور الدين أرسلان شاه، وكان مليح الصورة، ومن أعز ممالك نور الدين عليه، نهض لؤلؤ بتدبير المملكة سنة 630 هـ، وله موقف مع هولاكو بعد أن دمر هولاكو بغداد سار إليه بدر الدين لؤلؤ محملاً بالهدايا وقَدّم له جوهرة ثمينة وضعها بإذنه، ووالى هولاكو ثمّ رجع إلى بلاده وقد مات سنة 657 هـ، وعمره ثمانون سنة. ابن كثير: البداية والنهاية، ج 2، ص 246.

(4) ابن خلّكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان، ج 1، ص 557.

(5) ابن الأثير، نصر الله: المثل السائر، ج 1، ص 11.

(6) ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج 2، ص 213.

(7) مقابر قریش: في الجانب الغربي بمشهد موسى بن جعفر رضي الله عنهما. ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج 2، ص 213.

ومما سلف ذكره يلاحظ الباحث في التاريخ أنّ ضياء الدين ومجد الدين اتجها وجهة أبيهما في الالتحاق بالوظائف الحكومية، أمّا المؤرّخ عز الدين فلم يشاركهما هذا الاتجاه.

حيث كتب الأسنوي في ذلك : "أنّه لم يدخل في خدمة ملوك الموصل كإخوته ووالده حيث لم يذكر شيء في المصادر عنه أنّه تولّى منصباً سياسياً أو إدارياً كإخوته ولربما عمل بالتجارة بين الشام والموصل⁽¹⁾".

والمُطلع على حياة ابن الأثير وسيرته يعلم أنّه لم يتقلّد منصباً حكومياً كإخوته. وأنّ جُلّ اهتمامه كان مُنصباً على الكتابة والتأليف.

ومما لا شك فيه أنّ ابن الأثير ليس اسماً لشخصية واحدة إنّما هو لثلاثة أخوة كان لكلّ منهم بصمته في التاريخ، وبرع كل واحد منهم في مجال من المجالات حيث اختار مجد الدين العلوم الدينية واللغوية، واختار الأخ الثاني وهو المؤرّخ عز الدين الحديث والتاريخ، واختار ضياء الدين العلوم الأدبية، فاشتهر كلّ منهم في ميدانه وحققوا شهرة كبيرة في عصرهم وامتدت هذه الشهرة إلى يومنا هذا⁽²⁾.

ويبدو أنّ مكانة ابن الأثير الاجتماعية في الموصل بعدما انتقلوا إليها من جزيرة ابن عمر، لم تكن تقل عن مثيلاتها من الأسر الموصلية الكبيرة⁽³⁾ ويعود ذلك لمكانة والد ابن الأثير ومكانة إخوته كموظفين كبار في حكومة الموصل، وعلاقتهم بحكّامها وأنّ والده عمل في التجارة⁽⁴⁾.

وقد أبرز ابن الأثير هذه المكانة الرفيعة التي نالتها أسرته في مقدمة كتابه الباهر في الدولة الأتابكية قائلاً: ".....أمّا بعد، والذي غمرنا من أنعام هذه الدولة العزيزة القاهرة، والأيام الأتابكية الزاهرة، وشمّلنا من إحسانها، وأنالّتنا من عز سلطانها، فقد اشتهر خبره، وطاب مخبره وطار ذكره في الآفاق، وتحذّث به الرفاق، لم يخلُ من مبرة تسديها، ونعمة توليها، ودرجة في العلا ترفع بضبعنا إليها، ومرتبة في الفخار تشرف بنا عليها، وحالة من القرب تتضاءل دونها درجات المقربين، ومنزلة

(1) الأسنوي، (عبد الرحمن، ت772هـ/1370م): طبقات الشافعية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1407هـ/1987م، ج1، ص75.

(2) طليعات: ابن الأثير المؤرّخ، ص15.

(3) ابن خلّكان : وفيات الأعيان، ج3، ص348.

(4) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص147؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص572.

من الوثوق بنا تقاصر عنها منازل المخلصين." (1) وفي هذه المقدمة الشيء الكثير من المبالغة في الثناء ورفع الدرجة، والمديح وربما يرجع مسوِّغ ذلك في رغبة ابن الأثير أن يبقى على مكانة أسرته لدى الحكام الزنكيين ويجدد ولاء أسرته لهم من خلال هذا الكتاب.

د - نشأته وعلومه الأولى:

لم تمدّنا المصادر بأيّة معلومات عن طفولة ابن الأثير وصباه، وإن كان من المفروض أنه كان قد قضى هذه المرحلة في جزيرة ابن عمر، بدأ عز الدين حياته تلميذاً في كتاتيب الجزيرة، ومدارسها، ثم في مساجدها، ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب وعلوم اللغة والدين (2). وقام بالإشارة إلى ذلك في كتابه الكامل في التاريخ عندما ذكر ذلك في حوادث سنة 571هـ / 1175م؛ "ففي شهر رمضان من سنة 571هـ / 1175م انكسفت الشمس جميعها وأظلمت الأرض حتى بقي الوقت كأنه ليل مظلم، وكنت حينئذ صبيّاً بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخ لنا من العلماء أقرأ عليه الحساب، فلما رأيت ذلك خفت خوفاً شديداً، وتمسكت به، فقوى قلبي، وكان عالماً بالنجوم أيضاً، وقال لي: الآن ترى هذا جميعه انصرف، فانصرف سريعاً." (3) وبذلك قضى ابن الأثير طفولته في الجزيرة وكما تلقى علومه الأولى فيها فقد هيأ والده له ولإخوته أسباب الحياة الرغيدة وييسر لهم ما يريدون وهيأ لهم سبيل التعليم فألحقهم بأحد كتاتيب الجزيرة (4). على ماجرت عليه تقاليد أهل ذلك العصر في تعليم صبيانهم، فحفظ فيها القرآن، وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة (5)، ثم نشط للحصول العلمي فأخذ ينتقل بين الجزيرة والموصل لتحصيل العلم عن شيوخهما (6).

وفي الموصل تلقى علومه على يد علمائها وشيوخها، وقَدِمَ مراراً حاجباً ورسولاً من صاحب الموصل ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع عن جماعة من شيوخه، ثم عاد إلى الموصل ولزم بيته

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص2.

(2) عكاوي، (رحاب): موسوعة عباقرة الإسلام في الطب والجغرافية والتاريخ والفلسفة، دار الفكر العربي، ط1، بيروت، 1993م، ج3، ص348.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص78.

(4) ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج3، ص348؛ شمساني، (حسن): عز الدين المؤرخ الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ / 1990م، ص35.

(5) طليعات: ابن الأثير الجزري المؤرخ، ص20.

(6) ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج3، ص348؛ شمساني: عز الدين المؤرخ الجزري، ص35.

منقطعاً إلى النظر في العلم والتصنيف⁽¹⁾، وكان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين عليها⁽²⁾. فالموصل هي المكان الذي كَوّن فيه ابن الأثير ميوله الثقافية، ولكن هذا لا يعني أنّها المكان الوحيد بل إنه ارتحل إلى دمشق وحلب ومكة والقدس⁽³⁾.

ومن خلال قراءة سيرة ابن الأثير العلمية يُلاحظ القارئ الجهد الذي بذله ابن الأثير، والمصاعب التي واجهها في سبيل تلقي العلم، والحصول عليه، وجمع المادة التاريخية.

هـ - رحلات ابن الأثير:

- رحلاته إلى الحج:

كانت المعلومات التي زودنا بها ابن الأثير عن حياته الخاصة قليلة، لكن يستطيع الباحث في التاريخ أن يستخلصها من ثنايا كتبه في الأخبار العامة التي دَوّنها بنفسه ومن هذه الأخبار التي توصّلت إليها الدراسة أن ابن الأثير ذكر أنه حجّ أكثر من مرّة، وجاء ذلك في كتابه الكامل حيث ذكر حجته الأولى في خبر مقتل عضد الدين⁽⁴⁾، ابن رئيس الرؤساء ووزير الخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله .

وجاء هذا الخبر في حوادث سنة 573هـ/1177م ذكر: "فيها رابع ذي القعدة، قتل عضد الدين، كان قد عزم على الحج فعبر دجلة ليسير، وعبر معه أرباب المناصب، وهو في موكب عظيم وتقدّم إلى أصحابه أن لا يمنعوا عنه أحداً، فلمّا وصل إلى باب قطيبا لقيه كهل فقال: أنا مظلوم وتقدم ليسمع الوزير كلامه، فضربه بسكين في خاصرته فصاح الوزير قتلني، ووقع من الدابة، وسقطت عمامته، فغطّى رأسه بكمّاه، وضرب الباطني بسيف، وعاد إلى الوزير فضربه، وأقبل حاجب الباب لينصر الوزير فضربه الباطني بسكين....." ⁽⁵⁾.

(1) المنذري: التكملة، ج6، ص75-76؛ ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج3، ص348؛ أبو الفداء، (عماد الدين، ت732هـ/1273م): المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، دبت، ج3، ص154؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، دبت، ج4، ص1399؛ سير أعلام النبلاء، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ/1985م، ص353 .

(2) ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج3، ص348.

(3) السبكي، (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ابن علي بن عبد الكافي، ت771هـ/1369م): طبقات الشافعية الكبرى، تح: عبد الفتاح محمد الحلّو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دبت، ج8، ص299.

(4) عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله ابن المظفر ابن رئيس الرؤساء، أبي القاسم بن مسلمة، ووزير الخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص88.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص88.

وذكر في نهاية الحديث عنه أنه كان حافظاً للقرآن، وداره مجمع للعلماء وختمت أعماله بالشهادة وهو على قصد الحج. فكانت هذه الحجة الأولى لابن الأثير والتي دون أحداثها في تاريخه.

أما الحجة الثانية فقد أتى على ذكرها في أحداث سنة 545هـ/1150م، حيث يقرأ الباحث في ثنايا أخبار هذه السنة خبراً أورده ابن الأثير يذكر فيه حادثة خروج عرب زعب⁽¹⁾. على الحاج، ونهبهم إيّاهم في هذه السنة حيث أنّ ابن الأثير بعد أن أتى على ذكر تلك الحادثة بالتفصيل كتب: "إنّ الله تعالى اقتصّ للحاج من زعب، فلم يزلوا في نقص وذلة، ولقد رأيت شاباً منهم بالمدينة سنة ست وسبعين وخمسائة، وجرى بيني وبينه مفاوضة، قلت له فيها: إني والله، كنت أميل إليك، حتّى سمعت أنّك من زعب فنفرت وخفت شرك. فقال: لم؟ فقلت: بسبب أخذكم الحاج، فقال لي: أنا لم أدرك ذلك الوقت، وكيف رأيت الله صنع بنا، والله ما أفلحنا ولا نجحنا، قل العدد، وطمع العدو فينا." (2). والحجة الثالثة كانت سنة 620هـ/1223م، حيث ذكر في كامله: "ذكر ملك اليمن مكة حرسها الله تعالى فقال: وصل صاحب اليمن إلى مكة ونهبها عسكره إلى العصر، فحدثني بعض المجاورين المتأهلين أنهم نهبوها حتّى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهم" (3).

وكان ابن الأثير يسير إلى الحج برفقة أخيه الأكبر مجد الدين، حيث ذكر في ترجمته لشيخه ابن صدقة المتوفي سنة 593هـ/1196م، أنه سمع على الشيخ ببغداد مع أخيه مجد الدين أثناء عودتهما من الحج، ولكنّه لم يحدد هل كان ذلك في سفرته الأولى أو الثانية، ولم تكن في سفرته الثالثة، لأنّ أخاه توفي سنة 606هـ/1209م (4).

- رحلاته في طلب العلم:

الرحلة في طلب العلم عادة كانت عند العلماء والمؤرخين العرب والمسلمين، فقد جرت العادة أن يقبل الأديب والمؤرخ والعالم والطبيب، على العلم أينما كانت أرضه، حيث كان العلم والمعرفة والاستكشاف والتقصي مقصدهم، وغايتهم، وكان واحد منهم يمضي من حياته السنين الطوال وهو يجمع مادته العلمية ويتحرى فيها الصحيح من المغلوطة، فلا بدّ من البحث وراء العلم. والمتعلّم لا يكتفي من

(1) زعب: بكسر الزاي وسكون العين المهملة في آخرها الباء الموحدة، ومفردا الزعبي، وترجع بأصولها إلى أشراف الحجاز من أشراف مكة، من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كحالة، (عمر): معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ط4، بيروت، 1414هـ/1994م، ص474.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص365.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص435.

(4) طليمات: ابن الأثير الجزري المؤرخ، ص29.

نهر العلم فهو ينهل من أفرع هذا النهر ما استطاع من فروع العلوم المختلفة، علوم الدين، واللغة، أو الطب وسائر العلوم الأخرى ليروي بها ظمأه للعلم والمعرفة فيرتوي، ويروي الأجيال من بعده، ولا يكون هذا إلا بشدّ الرجال، والتنقّل بين البلدان، والبحث عن العلماء الأفاضل، ومن أهم دوافع ابن الأثير إلى رحلته في طلب العلم حبّه للعلم، وخاصّة علم الحديث، والتاريخ، ورغبته في معرفة أخبار وأحوال الأمم السالفة ومعرفة الصحيح منها، فقال: فإنني لم أزل محبّاً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، مؤثراً للاطلاع على الجليّ من حوادثها وخافيتها، مائلاً إلى المعارف، والآداب، والتجارب المودعة في مطاويها (1).

ويمكن للقارئ في سيرة ابن الأثير أن يتحرّى الصعاب والمشاق التي واجهته في رحلاته من خلال ما كان يذكره في كتبه ويدوّنه بصفته شاهداً على أحداث عصره، كانت بداية رحلات ابن الأثير أن زار بغداد مرّات عدّة، ورحل إلى دمشق والقدس وحلب، ثم عاد إلى الموصل (2).

عندما سافر ابن الأثير إلى دمشق كان على صلة برجال الأسرة الأيوبية، فأصبح من المقرّبين للقائد صلاح الدين الأيوبي، يخرج معه في حروبه، ويشاهد المعارك، وعاصر الزحف الصليبي على الشرق (3).

وبهذا كوّن بما شاهده ذخيرة علمية قيّمة، استطاع الانصراف إلى تدوينها وكتابتها. بدأ ابن الأثير في تأليف كتاب أسد الغابة في الموصل، وجمع أكثر مادته قبل سفره إلى دمشق ثمّ حمله معه عندما سافر إليها لكي يستكمّله.

كوّن ابن الأثير لنفسه مكانة ممتازة في الشام بسبب تردّده عليها أكثر من مرّة، فقد تردّد عليها في سنوات: 584هـ/1188م، و590هـ/1193م، وسنتي 625هـ/1228م و626هـ/1229م (4)، وكان يقضي في كل مرّة مدّة تطول أو تقصر، فقد ظلّ -مثلاً- يتردد بين حلب ودمشق بين سنتي 626 - 628هـ/1229-1231م ولم يعد إلى الموصل إلا في أثناء سنة 628هـ/1231م، ويلاحظ أنّ سفره إلى الشام كان أيام الأيوبيين، وقد نتج عن أسفاره هذه صداقات مع علماء الشام ورجالها البارزين من

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص10.

(2) المنذري: التكملة، ج6، ص75؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص348.

(3) طليعات: ابن الأثير الجزري المؤرّخ، ص50.

(4) طليعات: ابن الأثير الجزري المؤرّخ، ص27.

أبناء الأسرة الأيوبية، وكبار موظفي حكومتهم، فنال فيها شهرة واسعة، وكان ينتهز فرصة وجوده في الشام أيام صلاح الدين، فيخرج معه في حروبه لقتال الصليبيين - لا كمحارب - وإنما كمشاهد⁽¹⁾.

وأتى على ذكر هذه الحوادث في كتابه الكامل حيث يصف مجرياتها وصفاً دقيقاً، يؤكد أنه حضر الواقعة وكان شاهداً عليها والأمثلة عن ذلك كثيرة منها عندما صرح ابن الأثير في كتابه الكامل في حوادث سنة 584هـ/1188م، أنه حضر مع صلاح الدين فتح قلعة برزية⁽²⁾ وغيرها، فكتب في ذلك موقف حدث معه وقتها: "ومن أعجب ما يحكى من السلامة أنني رأيت رجلاً من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة المؤمنين شمالي القلعة إلى طائفة من المؤمنين جنوبي القلعة فألقيت عليه الحجارة، وجاءه حجر كبير لو ناله لبعبه....."⁽³⁾. وفي قوله هذا دليل على أنه حضر مع صلاح الدين بعض الوقائع ويسرت له هذه الرفقة وصف المعارك كما شاهدها، فدونها في كتابه الكامل، ولكن السؤال هنا هل كتب ابن الأثير مجريات المعركة وأحداثها فعلاً كما شاهدها وحضرها أم أن صلته الوثيقة بصلاح الدين الأيوبي وصحبته له في هذه المعارك كان لها أثراً في وصفه لهذه المعارك وهذا ما سيتم التطرق إليه وتحليله في ثنايا هذه الدراسة فيما بعد.

وأما عن رحلته إلى بغداد كانت غنية حيث ساحت له الفرصة للقاء شيوخها والاستفادة من علمهم⁽⁴⁾. وحطت به الرحال في نهاية ترحاله في الموصل فلزم بيته منقطعاً في العلم والتصنيف بعد أن حمل في جعبته الكثير في علوم الحديث والفقه، والقراءات، وفي التاريخ، والأنساب والتراجم فانصرف فيها للتأليف والتدوين والتصنيف مفرغاً ما في جعبته من روايات وأحداث تاريخية، وأحاديث بإسلوب مألوف ومبسّط⁽⁵⁾.

و - وفاته:

في الثلث الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، خسر العالم العربي والإسلامي أشهر مؤرخيه، وأهم مصدر له في القرون السبعة الهجرية الأولى. توجه ابن الأثير إلى

(1) طليعات: ابن الأثير الجزري المؤرخ، ص27.

(2) برزية: وهي حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق، يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج بالحصانة تحيط بها اودية من جميع جوانبها . الحموي: معجم البلدان، ج1، ص384.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص173.

(4) ستأتي الدراسة على ذكرهم بالتفصيل.

(5) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج3، ص348.

الموصل، حيث توفي فيها سنة 630هـ / 1232م⁽¹⁾، وقد أجمع على سنة وفاته المؤرخين، مع اختلاف الشهر الذي توفي فيه فيقول ابن خلّكان أنّه توفي في شهر شعبان⁽²⁾، وأمّا السبكي فيقول أنّه توفي في شهر رمضان⁽³⁾.

كتب ابن كثير أنّه توفي في الخامس والعشرين من شعبان في هذه السنة وقد بلغ من الخامسة والسبعين من عمره⁽⁴⁾، في حين كتب أبو شامة أنّ ابن الأثير توفي في شعبان سنة 631هـ / 1235م⁽⁵⁾، ومن المرجّح أنّ هذا التاريخ للوفاة غير دقيق حيث أنّه لم يرد إلّا عند أبي شامة في الذيل على الروضتين، أمّا بقية المصادر فأجمعت على تاريخ وفاة ابن الأثير ولم يحدّدوا في مصادرهم اليوم الذي توفي فيه.

2- ثقافته:

أ- أثر أسرته:

ولد ابن الأثير المؤرخ، في أسرة عريقة، كان لها الفضل الكبير في ما حقّقه من إنجازات علمية أغنى بها الخزانة العربية والإسلامية، فكانت أسرة علمية نبغ أبناؤها الثلاثة فكانوا من العلماء البارزين في مختلف العلوم، وكانت لهم شهرة علمية ذائعة في عصرهم وامتدت هذه الشهرة إلى ما بعد عصرهم، حيث كتب الزبيدي في كتابه تاج العروس "وأبناء الأثير الأئمة المشاهير الإخوة الثلاثة"⁽⁶⁾ وقام بذكرهم وذكر مصنفاتهم ولا يمكن أن يغفل أحد الدور الإيجابي الذي كان لوالدهم أثر الدين والذي أسهم بوظائف حكومية كثيرة في جزيرة ابن عمر فكان رئيساً لديوانها، ونائب وزير الموصل فيها⁽⁷⁾،

(1) سعداوي، (نظير): المؤرخون المعاصرون لصالح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962م، ص8.

(2) ابن خلّكان : وفيات الأعيان، ج3، ص348.

(3) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص299.

(4) الذهبي: العبر في خبر من غير، ج3، ص24؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص211؛ الحنبلي، (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد، ت1089هـ / 1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط1، بيروت، د.ت، ج5، ص137..

(5) أبو شامة، (شهاب الدين بن محمد عبد الرحمن، ت665هـ / 1268م): الذيل على الروضتين، تراجم القرنين السادس والسابع للهجرة، تح: محمد الكوثري، دار الجيل، ط2، بيروت، 1974م، ص162.

(6) الزبيدي، (محمد بن محمد بن محمد عبد الرزاق الحسيني، ت1205هـ / 1790م): تاج العروس من جواهر القاموس، تح: علي شيري، دار الفكر، ط2، بيروت، 1414هـ، ج10، ص24.

(7) ظلمات: ابن الأثير الجزري المؤرخ، ص15.

وعلى الرغم من أنّ الأخبار التي تطلعنا عن مدى ثقافة والدهم أثير الدين معدومة⁽¹⁾، ولكن من يستلم هذه المناصب الرفيعة في أية دولة لابدّ أن يكون قد حصل على العلم والثقافة، مايمكنه ويؤهله لتقلد مثل هذه المناصب في الدولة، فعمل على توفير البيئة المناسبة لأبنائه الثلاثة. وقدّم الدعم المادي والمعنوي لهم وخاصة أنّه كان على جانب كبير من الثراء فإلى جانب المناصب الحكومية التي تقلدها، كان تاجراً⁽²⁾.

ومع أنّ أثير الدين لم تكن لديه اهتمامات في العلم والتصنيف، إلّا أنّه أنجب أولاده الثلاثة فهيّا لهم العلم وسبله كافة، فأبدعوا وتركوا بصمات تشهد على مدى عبقريتهم وإبداعهم⁽³⁾. اتجه كل من مجد الدين وضياء الدين وجهة أبيهما في الالتحاق بالوظائف الحكومية إلى جانب الوجهة العلمية التي سلكها كلّ منهما⁽⁴⁾، أمّا المؤرخ ابن الأثير فاكتفى بالوجهة العلمية والعمل بالتجارة وتابع تحصيل علومه بأحضان أسرته التي كان لها عظيم الأثر في حياته ومؤلفاته، فلم يخف ذكره لأبيه وأخويه في أيّ منها.

ب - شيوخه:

وفي الحديث عن شيوخ ابن الأثير الذين أخذ وسمع عنهم في الحديث وغيره حيث دَوّن ما سمعه في كتبه وتصانيفه. لم يبخل ابن الأثير في ذكر من كان له فضل عليه، فأطلع القارئ على شيوخه الذين روى وسمع عنهم، وترجم لبعضهم وذكر أفضالهم ومروياتهم ووثقها في طيّات كتبه التي ألّفها في التاريخ، والحديث، والأنساب، وأشار ابن الأثير إلى شيوخه في كتابه الكامل في التاريخ عن طريق ذكر الحوادث المهمة في كل سنة، وقد روى عنهم بألفاظ مثل: "حدّثني"، أو "حدّثنا"، "أنبأني"، "أنبأنا"، "خبرني"، "خبرنا"، فذكر شيوخه الذين سمع عنهم في الجزيرة، والموصل، وبغداد، والشام، وغيرهم من المدن التي رحل إليها.

وسيتّم عرضهم في الدراسة وترتيبهم وفق سنوات الوفاة بدءاً من الأقدم وفاة:

(1) طليّات: ابن الأثير الجزري المؤرّخ، ص16.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص320.

(3) طليّات: ابن الأثير الجزري المؤرّخ، ص17.

(4) ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج3، ص348.

1- أبو الفرج الأصبهاني الصوفي (ت584هـ/1187م):

هو أبو الفرج بن يحيى بن محمود بن سعد الثقفي الأصبهاني الصوفي⁽¹⁾، أخذ عنه ابن الأثير في صحيح مسلم بن الحجاج، فقال: "أخبرنا بجميع الصحيح تأليف أبي الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري - رضي الله عنه- أبو الفرج بن يحيى بن محمود ابن سعد الأصفهاني الثقفي، قرأه عليه وأنا أسمع"⁽²⁾.

2- ابن سويدة التكريتي (ت584هـ/1187م):

ذكره ابن الأثير في الكامل⁽³⁾ في حوادث سنة أربع وثمانين وخمسائة عندما كتب "في هذه السنة توفي شيخنا أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن سويدة التكريتي، كان عالماً بالحديث، وله تصانيف حسنة"⁽⁴⁾.

3- ابن أفضل الزمان (ت585هـ/1188م):

" وفيها في صفر توفي شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان المعروف بابن أفضل الزمان، بمكة"⁽⁵⁾ وكان "رحمه الله عالماً، متبحراً في علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه، كالحساب، الفرائض، والنجوم، والهيئة، والمنطق وغير ذلك، وختم أعماله بالزهد، ولبس الخشن، وكان من أحسن الناس صحبةً وخلقاً"⁽⁶⁾.

4- جمال الدين ابن راحة (ت585هـ/1188م):

وهو جمال الدين أبو علي بن راحة الحموي وقد قتل في هذه السنة في وقعة عكا، فقد حضرها صلاح الدين الأيوبي، فلما انهزم قلب جيش صلاح الدين من الصليبيين، وصل الصليبيون

(1) ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج10، ص187؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج21، ص136.

(2) النيسابوري: نسبة إلى نيسابور، وهي من أعمال خراسان، وبها تعمل الثياب الرفيعة من الحرير والقطن، افتتحها عبد الله بن عامر بن كريز، في خلافة عثمان بن عفان، في سنة ثلاثين للهجرة، واهلها أخلاط من العرب والعجم، ومشربها من الأودية والعيون. ابن الحسين: آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، ص72.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص166.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص179.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص190.

(6) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص190.

إلى التل الذي عليه خيمة صلاح الدين⁽¹⁾ وقتلوا من فيه وكان جمال الدين يقف عند خيمة صلاح الدين فقتلوه وهو من أهل العلم وله شعر حسن وما ورث الشهادة من بعيد؛ فإنَّ جدَّه عبد الله بن راحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله الروم البيزنطيين يوم مؤتة⁽²⁾، وهذا قتله الفرنج يوم عكا، ولم يترجم له ابن الأثير أكثر من ذلك في كتابه.

5- مكارم بن أحمد (ت 588هـ/ 1192م):

هو مكارم بن أحمد بن سعد المؤدب الموصل، القلانسي البقّال كان من أهل الموصل، أخذ ابن الأثير عنه كتابي مسند المعافي بن عمران⁽³⁾، وكتاب طبقات محدّثي الموصل لأبي زكريا الأزدي⁽⁴⁾.

6- أبو العباس بن مهدي الزرزاري (ت 591هـ/ 1194م):

هو أبو العباس أحمد بن عثمان بن أبي علي بن مهدي الرازي، كان إماماً زاهداً ورعاً، سلك في الدين مسلك التابعين، رحل الرحلة الواسعة في طلب الحديث فسمع الكثير، وكتب الكثير، سمع عليه الحديث بالموصل، توفي سنة 591هـ/ 1194م⁽⁵⁾. أخذ ابن الأثير عنه كتاب تفسير القرآن لأبي اسحاق الثعلبي، وقال: "أخبرنا أبو العباس أحمد بن عثمان بن أبي علي بن مهدي الرازي، الشيخ الصالح - رحمه الله -"⁽⁶⁾.

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 10، ص 187؛ طليعات: ابن الأثير الجزري المؤرّخ: ص 21.

(2) مؤتة: بالضم، ثمَّ واو مهموزة ساكنة، وتاء مثناة من فوقها، وبعضهم لا يهمزها، وأما ثعلب فإنَّه قال في الفصيح: موتة بمعنى الجنون غير المهموز، وأما البلد الذي قتل به جعفر بن أبي طالب فإنَّه مئة بالهمزة، ومؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام وقيل: موتة من مشارف الشام وبها كانت تطبع السيوف وإليها تنسب المشرفة من السيوف، بعث النبي عليه الصلاة والسلام إليها جيشاً في سنة ثمان وأمر عليهم زيد بن حارثة مولاه، وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب الأمير، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن راحة الحموي: معجم البلدان، ج 5، ص 220.

(3) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 1433هـ/ 2012م، ج 1، ص 47.

(4) ابن الأثير: أسد الغابة، ج 1، ص 47.

(5) ابن المستوفي، (أبو البركات شرف الدين بن أحمد بن المستوفي، ت 637هـ/ 1239م): تاريخ أربل، تج: سامي بن السيد، بغداد، دار الرشيد، 1980، ج 1، ص 38.

(6) ابن المستوفي: تاريخ أربل، ج 1، ص 38؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 2، ص 355؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى: ج 7، ص 338.

7- يعيش بن صدقة (ت593هـ/1196م):

يعيش بن صدقة بن علي الفراتي، الضرير، الفقيه الشافعي، كان إماماً في الفقه، مدرّساً صالحاً، كثير الصلاح⁽¹⁾. يعيش بن صدقه الفراتي ونسب هنا إلى نهر الفرات، وكان رأساً في المذهب، والخلاف، تخرّج على يديه الفقهاء، وكان سيد الفتاوى، قوي المناظرة، كبير القدر⁽²⁾.

8- أبو الفضل المنصور الطبري (ت595هـ/1198م):

هو أبو الفضل المنصور بن أبي الحسن بن عبد الله الطبري⁽³⁾، الفقيه المخزومي المعروف بالديني، ولد سنة 515هـ/1121م، ولد بمدينة آمل⁽⁴⁾ بطبرستان⁽⁵⁾، ونشأ بمرّو⁽⁶⁾، وكان رجلاً صالحاً سمع الكثير من الحديث، وقد ورد أربل وسمع عليه الكثير، ثم نزل الموصل وهناك درس على يده ابن الأثير. ت595هـ/1198م

9- ابن كليب الحرّاني⁽⁷⁾ (ت596هـ/1199م):

عبد المنعم بن أبي عبد الوهاب بن سعد بن صدقة بن كليب الحرّاني الملقب بشمس الدين، أبو الفرج حرّاني الأصل، عاش في بغداد، وقد ذكره ابن الأثير بقوله "توفي شيخنا أبو الفرج عبد المنعم

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص248؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج2، ص356؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج7، ص338.

(2) ابن الأثير: أسد الغابة، ج1، ص46؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج7، ص338.

(3) ابن المستوفي: تاريخ أربل، ج1، ص191.

(4) آمل: هي مدينة في محافظة مازنوران في إيران، يبعد مركز آمل عن شاطئ بحر قزوين 18 كم، و180 كم عن شمال شرق مدينة طهران، كما نسب إلى المدينة العديد من العلماء والفلاسفة والأدباء منهم الطبري. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص255. محمد، (بهاء الدين): تاريخ طبرستان، تر: محمد بن نادي، ط1، 2002م، ص73.

(5) طبرستان: وهي في أعمال خراسان، مملكة عظيمة، وهي بلاد كثيرة الحصون. وهي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص13. (ابن الحسين، اسحاق)، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، عالم الكتب، ط1، بيروت 1408هـ/1988م، ص69.

(6) مرّو: تعني بالفارسية، المرج وهناك مدينتان تحملان اسم مرّو، والمقصودة هنا مرّو خراسان، وتبعد عن خط المغرب، خمس وثمانون درجة، وعن خط الاستواء ثمان وثلاثون درجة، افتتحها حاتم بن النعمان الباهلي، في خلافة عثمان سنة إحدى وثلاثين، ابن الحسين: آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، ص75.

(7) ابن المستوفي: تاريخ أربل، ج1، ص38؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج2، ص355

بن عبد الوهاب المقيم ببغداد وله ستة وتسعون سنة وشهران، وكان عالي الإسناد في الحديث، وكان ثقة صحيح السماع⁽¹⁾.

10- ابن شبه النحوي (ت 603هـ/1206م):

كتب ابن الأثير في الكامل "وفيها في شوال، مات شيخنا أبو الحرم مكّي بن ريان بن شبه النحوي المقرئ بالموصل، كان عارفاً بالنحو واللغة والقراءات"⁽²⁾. وقد كان عالماً متواضعاً، برع في الفقه والحساب، وعُرفَ بتقواه وصلاحه⁽³⁾.

11- ابن سكيّنة البغدادى (ت 607هـ/1210م):

أورد الذهبي ترجمة له في كتابه سير أعلام النبلاء "هو عبد الوهاب بن علي بن علي البغدادى، الشيخ، العالم، الإمام، الفقيه، المحدث، الثقة، المعمّر، القدوة، شيخ الإسلام، الصوفي الشافعي. ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن الشيخ الأمين أبي منصور علي بن علي بن عبيد الله بن سكيّنة البغدادى ولد في شعبان سنة تسع عشرة وخمسائة للهجرة. وسكيّنة هي والدّة أبيه، اختصّ بالحديث، وبالقراءات فبرع فيها، كان طلاب العلم يأتون إليه من أنحاء البلاد لينالون من علمه، وكان تقيّاً حجّ بيت الله وكان دائم الصوم لا يقطع صلاة الجمعة ولا يخرج من بيته إلاّ لحضور صلاة الجمعة أو حضور العيد أو القيام بواجب العزاء، ولا يدخل بيوت الناس الذين لم يُعرفو بدينهم وتقواهم لا في أفراحهم ولا أتراحهم، ويستعمل السنّة في أموره ويحبّ الصالحين، ويتواضع للناس ويعظّم العلماء"⁽⁴⁾.

12- ابن طبرزر البغدادى (ت 607هـ/1210م):

ذكره ابن الأثير في حوادث سنة 607هـ/1210م فكتب "وفيها توفي شيخنا أبو حفص عمر بن محمد بن المعمّر بن طبرزر البغدادى، وكان عالي الإسناد"⁽⁵⁾.

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 13

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 331؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج 1، ص 45.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 331.

(4) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 21، ص 503.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 13.

13- الخطيب الطوسي (ت 622 هـ / 1223 م):

هو الشيخ عبد المحسن بن عبد الله الخطيب الطوسي حيث أورد ابن الأثير عنه: "خطيب الموصل، توفي في الوباء الذي انتشر في الموصل في هذه السنة، ومات منه كثيرون" ولم يذكر ابن الأثير ما هو الداء الذي انتشر حينها، توفي سنة 622 هـ / 1223 م، وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور، كان من صالحى المسلمين⁽¹⁾.

14- زين الأمان ابن عساكر الدمشقي (ت 627 هـ / 1228 م):

هو الحسن بن محمد بن عساكر الدمشقي، الشافعي، الشيخ، العالم، المسند، الجليل و العابد. حدّث عنه الإمام عز الدين بن الأثير، وكمال الدين بن العديم، وغيرهما، وكان شيخاً جليلاً، نبيلاً، عابداً⁽²⁾.

15- ابن غنائم ابن العديم الحلبي (ت 628 هـ / 1229 م):

ذكره ابن الأثير في الكامل في حوادث سنة ستمائة وثمان وعشرون للهجرة: "فيها توفي القاضي، ابن غنائم بن العديم الحلبي، الشيخ، الصالح، وكان من المجتهدين في العبادة، والرياضة، والعاملين بعلمهم، فلو قال قائل: أنّه لم يكن في زمانه أعبد منه لكان صادقاً - فرضي الله عنه وأرضاه - كان من جملة شيوخنا سمعنا عليه الحديث، وانتفعنا برؤيته وكلامه"⁽³⁾.

وبعد هذا الاستعراض السريع لأبرز شيوخ المؤرخ عز ابن الأثير، يمكن أن يستنتج القارئ أنهم شيوخه في بغداد، وحلب ودمشق والقدس حيث التقى بجماعة من العلماء هناك⁽⁴⁾. وأنّه بالإضافة إلى ترجمته لبعض شيوخه في كتاب الكامل، قام في مقدمة كتابه "أسد الغابة" بالتحدّث بالتفصيل عن أساتذته والعلوم التي أخذها عنهم، وكانت في علم الحديث في الدرجة الأولى، ثم في التفسير، والفقه.

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 458.

(2) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 22، ص 286.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 496.

(4) -ابن المستوفي: تاريخ أربل، ج 1، ص 38.

ج- تلاميذه:

وفي الحديث عن تلاميذ ابن الأثير سيتم ذكرهم وترتيبهم، حسب الأقدم وفاة وهم كالتالي:

1- ابن خلّكان (ت 681 هـ / 1281 م):

أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلّكان، "قاضي القضاة شمس الدين الإربلي الشافعي"⁽¹⁾. قاضي قضاة دمشق وعالمها ومؤرخها ولد بأربل سنة 608 هـ / 1211 م⁽²⁾، وصنّف كتاب وفيات الأعيان، وقد اشتهر كثيراً، وله مجاميع أدبية، تلقّى علومه الأولى في أربل، وتركها وهو في الثامنة عشرة من عمره حيث توجه إلى الموصل، وتلقّاه فيها، ثمّ ذهب إلى حلب ودرس على يد ابن الأثير، ترك عدّة مؤلفات، أهمها: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان وهو كتاب مشهور جداً في موضوعه في التراجم العامّة⁽³⁾. مرض ابن خلّكان يوم 22 رجب، ثمّ وافته المنية 26 رجب سنة 618 هـ / 1281 م، وصليّ عليه بدمشق ثمّ دفن بسفح جبل قاسيون⁽⁴⁾.

2- كمال الدين بن العديم (ت 660 هـ / 1261 م):

عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، صاحب العلامة، "رئيس الشام، كمال الدين العقيلي الحلبي، المعروف بابن العديم، ولد سنة 586 هـ / 1190 م"⁽⁵⁾. سمع عن أبيه وعن عمّه أبي غانم وابن طبرزد، والكندي، والحرستاني، وأخذ الكثير من الحديث الذي سمعه من شيوخ ومحدّثين بدمشق وحلب، والقدس، والحجاز، والعراق، وكان محدّثاً حافظاً، مؤرخاً، صادقاً وفقياً، مفتياً، بليغاً، كاتباً،

(1) الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، ج 1، ص 110؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 7، ص 354.

(2) ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج 7، ص 513؛ الأمير، (إبراهيم بن منصور الهاشمي): رأي القاضي المؤرخ الأديب ابن خلّكان في مصنفات الأعيان، مكتبة الغرباء الأثرية، ط 1، جدّة، 1429 هـ / 2008 م، ص 16.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج 13- ص 301. الزركلي: الأعلام، ج 1، ص 220.

(4) الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، ج 1، ص 110.

(5) الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، ج 3، ص 127؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 1، ص 588.

درس وأفتى، وصنّف⁽¹⁾. لكمال الدين من المصنّفات كتاب: الدراري في ذكر الذراري⁽²⁾ وتاريخ حلب. كان من أسرة واسعة الثراء، مشهورة بالفقه، والعلم، والقضاء، والزهد، والأدب، والشعر⁽³⁾.

3- أحمد بن أبي عبد الله (ت 637 هـ / 1239 م):

أحمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي الخليل مفرّج الأموي، كان فقيهاً، ظاهرياً، متعصباً لأبي حزم الأندلسي، كان كثير الرحلة في طلب العلم، حيث رحل إلى المغرب، مصر، مكّة، بغداد، تكريت ثم الموصل، حيث تلقى علومه بها من ابن الأثير، توفي 637 هـ / 1239 م⁽⁴⁾.

4- أبو عبد الله محمد بن الديبشي (ت 637 هـ / 1239 م):

"هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن يحيى بن علي بن الحجاج بن محمد بن الحجاج الديبشي، قدم أربل في سنة 611 هـ / 1214 م، ولم يكن قد وردها من قبل. شيخ حسن، مؤرّخ، سمع الحديث وكتبه وله محفوظات كثيرة"⁽⁵⁾. ألف كتاباً مذيلاً على تاريخ ابن سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني، المذيل على تاريخ بغداد، ويبدو أنّه التقى بابن الأثير عند زيارته أربل ثم الموصل. توفي سنة 637 هـ / 1239 م⁽⁶⁾.

5- شرف الدين بن المستوفي (ت 637 هـ / 1239 م):

أبو البركات المبارك بن أبي الفتح أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمي، ولد في قلعة أربل سنة 564 هـ / 1186 م، الملقب بشرف الدين المعروف بابن المستوفي الأربلي، كان رئيساً جليل القدر كثير التواضع⁽⁷⁾. كان عارفاً بالحديث وعلومه وأسماء رجاله وجميع ما يتعلّق به⁽⁸⁾.

(1) الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، ج3، ص127.

(2) الكتبي: الوافي بالوفيات والذيل عليها، ج3، ص127.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ص19. الكتبي: الوافي بالوفيات والذيل عليها، ج3، ص127.

(4) المراكشي الأوسي، (محمد بن عبد الملك): الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: احسان عباس، دار الغرب الاسلامي، ط1، تونس، ج1، ص652.

(5) ابن المستوفي: تاريخ أربل، ج1، ص194.

(6) ابن المستوفي: تاريخ أربل، ج1، ص194.

(7) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص151؛ ابن المستوفي: تاريخ أربل، ج1، ص147.

(8) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص151.

6- أحمد بن يوسف بن الحسين⁽¹⁾:

أحمد بن يوسف بن الحسين أبو العباس الكواشي⁽²⁾، رجل من الصالحين الأخيار، والأولياء الأبرار، عالم فضيل، فقيه، عارف بالنحو، والتفسير، وسمع الحديث. حدّث عن شيخنا أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير⁽³⁾، ولم يعرف تاريخ وفاته.

3- مؤلفاته:

كان ابن الأثير ميّلاً للتأليف في التاريخ، على الرغم من أنّه اشتهر كمحدث، ومؤرخ، إلّا أنّه أثار التخصص في التأليف في التاريخ، وكان مسوّغ ذلك ما كتبه في مقدّمة كتابه الكامل وهو حبّه وميله إليه بطبيعته⁽⁴⁾.

كتب ابن الأثير في أربعة أنواع من الكتابة التاريخية، وهي أنواع كانت معروفة قبل ابن الأثير؛ كتب في التاريخ العام، والأنساب، وتراجم الصحابة، وفي تاريخ الزنكيين وهو موضوع جديد لم يتطرّق له أحد من قبله، وفي الحديث عنها بالتفصيل :

أ- اللباب في تهذيب الأنساب:

كان كتاب الأنساب الذي هدّبه ابن الأثير، هو للسمعاني⁽⁵⁾، فقام ابن الأثير على تهذيبه واختصاره، وقد ذكر مسوّغ إقدامه على هذا العمل في مقدمة الكتاب، فقال فيه: "إنّي رأيت العلم بالأنساب دائراً والجهل به ظاهراً، وهو ممّا يحتاج طالب العلم إليه، ويضطرُّ الراغب في الأدب والفضل إلى التعويل عليه. وكثيراً ما رأيت نسباً إلى قبيلة أو بطن أو جد أو بلد أو صناعة، أو مذهب أو غير ذلك، وأكثرها مجهول عند العامّة غير معلوم عند الخاصّة"⁽⁶⁾، اختصر فيه ابن الأثير أنساب السمعاني

(1) لم يتم العثور على تاريخ وفاته.

(2) الكواشي نسبة إلى قلعة حصينة في الجبال التي تشرف على الموصل، ليس إليها طريق إلّا لرجل واحد، وكانت قديماً تسمى أرذُمُشت وكواشي اسم محدث. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص486.

(3) ابن العديم: بغية الطلب، ج3، ص1261.

(4) الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، ج3، ص127.

(5) السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني نسبة إلى سمعان بطن من بطون تميم المروزي، ولد في مدينة مرو، نشأ في أسرة اشتهرت بالعلم والصلاح، فنشأ في حب العلم وطلبه من رجال القرن السادس الهجري، (ت510هـ/1116م)؛ ابن كثير: طبقات الشافعية، ج2، ص115 وما بعدها.

(6) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، 1400هـ/1980م، ج1، ص7.

وزاد فيه⁽¹⁾. كما أنه استدرك عليه في مواضع ونبه على أغلاط، وزاد أشياء أهملها وهو كتاب مفيد جداً، وأكثر ما يوجد اليوم بأيدي الناس هذا المختصر، وهو في ثلاث مجلدات، وكان الأصل في ثمانية، ومن الصعب العثور عليه واقتناه⁽²⁾.

وأشار ابن خلّكان في وفيات الأعيان أنه لم يره سوى مرّة واحدة في مدينة حلب ولم يصل إلى الديار المصرية سوى المختصر المذكور، فكانت صياغة ابن الأثير لكتاب السمعاني صياغة جديدة في كتابه الأنساب فأصبح محلّ تقدير من معاصريه كابن خلّكان. وهو مفيد في معرفة الأعراف والتقاليد القبلية للعرب قبل ظهور الإسلام وبعده، وقد راجع نصوص السمعاني بدقّة، وكتب في المقدمة بأنّه اعتمد على أصل صحيح موثوق⁽³⁾. كما أعاد ترتيب التراجم بشكل أسهل ممّا وضعه السمعاني الذي ظهرت التراجم لديه متداخلة، كما حذف التراجم المكرّرة وصوّب بعض المعلومات التي رأى فيها أخطاءً وأكمل المعلومات الناقصة⁽⁴⁾.

وقد حرص ابن الأثير على أن يذكر أنّه اعتمد عند تهذيب كتاب السمعاني على نسخة صحيحة موثوق بها منقولة عن نسخة المؤلف نفسه. وقد حظي الكتاب باهتمام القدامى من المتخصصين. أمّا إذا عقدنا مقارنة تفصيل بين كتابي السمعاني وابن الأثير، من حيث الفائدة للمهتمين بتراجم الأشخاص من الباحثين المحدثين، فلاشك أن كتاب السمعاني يفضل كتاب ابن الأثير من حيث توافر الأخبار التي أغنى بها السمعاني تراجمه، والتي تمد الباحث بالمعلومات التي يهّمه أن يجدها أينما وجدت⁽⁵⁾.

ب - أسد الغابة في معرفة أخبار الصحابة:

اهتمّ المؤرّخون بالتأليف للصحابة⁽⁶⁾ منذ عهد مبكّر، وكان المفسرون والمحدثون هم أوّل من اهتمّوا بسيرهم كونهم أوّل رواة حديث النبي، والمصدر الأوّل لأحداث عصر الرسول ومن ثمّ كان

(1) الزركلي: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج4، ص331.

(2) ابن العديم: بغية الطلب، ج3، ص1261.

(3) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج1، ص12؛ ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج4، ص151.

(4) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج1، ص12.

(5) طليعات: ابن الأثير الجزري المؤرّخ، ص61.

(6) الصحابة: هم الذين أسلموا- رجالاً ونساء- في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، على اختلاف بين القدامى في التعريف المحدد للصحابي، أي في من يطلق عليه اسم الصحبة

الاهتمام في التأليف في تراجمهم. ثم كان هناك سبب آخر للاستمرار بالتأليف عنهم، هو كون سيرهم سبل هداية يجب أن يقتدي بهم المسلمون⁽¹⁾. اهتم ابن الأثير في كتابه هذا بشرح الألفاظ الغربية التي ترد في حديث بعض المذكورين في آخر ترجمته⁽²⁾.

وهذا الكتاب، كما يدل عليه عنوانه، تراجم للصحابة والصحابيات ممن صحبوا النبي في حياته⁽³⁾، وقد ذكر في مقدمة الكتاب سبب تأليفه، أنه لم يعجبه من ترجم للصحابة غير أبي عبد الله بن منده⁽⁴⁾، وأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني⁽⁵⁾.

والإمام ابن عمر بن عبد البر القرطبي⁽⁶⁾، وكلّ منهم سلك طريق مختلف عن الآخر، وذكر بعضهم أسماء لم يذكرها صاحبه، فرأى أن يجمع بين هذه الكتب وأن يضيف إليها، ثم ذكر طريقته في الجمع واستدراكاته في مقدمة طويلة، شمل سيرة حياة الصحابة واعتمد كما سلف ذكره على أعمال مبكرة، قام بدراساتها وأعاد انتاجها، وحذف منها الإعادات والسلاسل الطويلة للإسناد، وقام بتلخيص هذه السلاسل وترتيبها هجائياً⁽⁷⁾.

في المقدمة تحدّث عن أهمية موضوع الكتاب، ومصادرة منهجه، فأشار أولاً، إلى أهمية دراسة الصحابة؛ بوصفهم أول رواة السنّة، هم الذين شهدوا الرسول صلى الله عليه وسلّم، وسمعوا كلامه وشاهدوا أحواله. وتعد دراسة الصحابة أمراً ضرورياً لمعرفة السنن التي تثبت بعد معرفة رجال السند

(1) طلبات: ابن الأثير الجزري المؤرخ، ص 67.

(2) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج 1، ص 43.

(3) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص 14.

(4) محمد بن يحيى بن منده العبدى (ت 395 هـ / 1005 م)، أبو عبد الله بن منده الحافظ العَلَم محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى العبدى الأصبهاني، الجوّال، صاحب التصانيف، طاف الدنيا، وجمع وكتب مالا ينحصر، وسمع من ألف وسبعمئة شيخ، وأول سماعه ببليده في سنة ثمان عشرة وثلاثمئة، ومات في ذي القعدة. الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج 2، ص 187؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 2، وفيات 470 هـ.

(5) أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصفهاني (ت 336 هـ / 1038 م)، المؤرخ المسلم الرحالة وصاحب كتاب حلية الأولياء ولد في أصفهان زار نيسابور والكوفة وبغداد ومكة والاندلس. الذهبي سير أعلام النبلاء، ج 17، ص 454.

(6) يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي (ت 463 هـ / 1071 م)، أبو عمر بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر إمام وفقيه ومحدث مؤرخ أندلسي له العديد من التصانيف والكتب. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 21، ص 152.

(7) ابن الأثير، (علي بن محمد، ت 630 هـ / 1234 م): أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار صادر، بيروت، 1400 هـ / 1980 م، ج 1، ص 4.

ورواتها، وأولهم والمقدّم عليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾ وهذا يتطلب دراسة أنساب الصحابة وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية فإنّ المجهول لا تصحّ روايته⁽²⁾، وهو في ست مجلدات. وبالنسبة لما يخص سيرة النبي عليه الصلاة والسلام قدم ابن الأثير مادة تاريخية متوازنة شاملة عنها، وأعطى نسبه اهتماماً خاصاً فعرضه بالتفصيل، فرصد موضوعات السيرة من ولادة النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر وفاة أمّه، وجدّه عبد المطلب، وكفالة عمّه له كما ناقش أهم الأحداث في سيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم قبل هجرته وبعدها، وتابع في ذكر الأحداث التي تلتها واختصر في ذكر بعضها واستفاض في ذكر بعضها الآخر، كما كان ابن الأثير مهتماً بالأحاديث ذات الأهمية التاريخية المرتبطة ببعض الصحابة عند ترجمة كل منهم، ولم يصرّح عن بعض مصادره في الحوادث والتراجم فأصبحت مجهولة، وكما تضمن كتابه أسد الغابة على ترجمة عدد كبير من الشعراء الصحابة من الرجال والنساء كحسن بن ثابت شاعر رسول الله عليه الصلاة والسلام⁽³⁾.

وبهذا العرض السريع والموجز لمضمون كتاب أسد الغابة يستطيع القارئ إدراك مدى أهمية الكتاب من حيث تراجم الصحابة، وكان له الكثير من المميزات التي انتفع بها الكثيرون من خلال عناية ابن الأثير بشرح الألفاظ الغريبة، وضبط الأسماء، والأماكن وغيرها. كما يتضح فيه أهوائه الشعرية وتذوقه للأدب حيث تطرّق لترجمة الشعراء من الصحابة ولشعرهم، ولا يغفل جهد ابن الأثير في تحرير كتابه وتنسيقه وجهده لإخراج الكتاب على هذا النحو من الدقة والإتقان.

ج- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية:

بعد تنقلات ابن الأثير بين الموصل وبغداد ودمشق، والقدس، عكف على تدوين ما جمعه وما شهدته في كتابين من كتب التاريخ⁽⁴⁾، خصص أولهما لأمرأ البيت الزنكي، ونشأة ملكهم بالموصل سنة 477هـ/1084م، أي منذ ولاية آق سنقر قسيم الدولة، صاحب الموصل. وكتب فيه عن امتداد حكم الزنكيين إلى المدينتين الكبيرتين حلب ودمشق، ثم تقلص ملكهم، وعودته إلى الموصل أخيراً، وانتهى

(1) طلبات: ابن الأثير الجزري المؤرخ، ص 67.

(2) -ابن الأثير: أسد الغابة، ج1، ص4.

(3) -ابن الأثير: أسد الغابة، ج1، ص157.

(4) سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصالح الدين الأيوبي، ص8.

فيه بانتهاء سنة 607 هـ / 1211 م، وهي بدء ولاية القاهرة مسعود الذي أهدى إليه الكتاب، تحدث فيه ابن الأثير عن عظمة البيت الزنكي⁽¹⁾.

وقد أطلق ابن الأثير على هذه الدولة " الدولة الأتابكية " نسبة إلى لقب "آتابك"، وقد أطلق هذا اللقب على عماد الدين - مؤسس الدولة الزنكية - بعد أن ولي إمارة الموصل سنة 521 هـ / 1127 م، وكان هذا اللقب لأتابكة دمشق أيضاً فهناك ظهير الدين طغتكين الذي أسس أتابكية دمشق.

ترجم ابن الأثير في كتاب الباهر لبعض كبار رجال الدولة من الوزراء والقواد، وأبرز في هذه التراجم أثر بعضهم في نشأة الدولة وارتقائها، وأثر بعضهم الآخر في إضعافها، وأبدع في وصفه المعارك التي دارت بين الصليبيين وبين كل من عماد الدين ونور الدين، وأبرز الجهود الضخمة التي كان يبذلها كل من الزنكيين، والصليبيين من ناحية الاستعدادات للعمليات الحربية، والكتاب يعد مكملاً لما ينقص من أخبار الزنكيين في كتابه "الكامل في التاريخ". فجاء كتاب الباهر في مجلد واحد. في تاريخ الدول أو الأسر، والدولة الزنكية، أو الدولة الأتابكية - كما يسميها ابن الأثير - إحدى الأسر الحاكمة في الإسلام ظهرت في العصر العباسي. وتاريخ الأسر لا يقل أهمية عن التاريخ العام⁽²⁾.

وقد ذكر ابن الأثير في مسوِّغ تأليفه الكتاب؛ أنه ألفه لإظهار الدور العظيم الذي أدّاه الزنكيون في محاربة الصليبيين، وفي السياسة الداخلية، وذلك وفاء منه لهم، ولكي تكون سيرتهم دستوراً يهتدي به الملك القاهرة مسعود الذي خلف أباه على ملك الموصل⁽³⁾، وقد قدّم ابن الأثير كتابه بمقدمة أظهر فيها علاقة أسرته الوثيقة بملوك الموصل، ولخص فيها جهادهم للصليبيين، ثم بدأ بسرد أخبار قسيم الدولة آق سنقر، والد عماد الدين زنكي، وبعدها بدأ بسرد أخبار عماد الدين زنكي وأحداث حكمه، وأخبار من تلاه من الحكّام الزنكيين، والجدير بالذكر أن ابن الأثير قد ذكر في كتابه معلومات لم يرد ذكرها في كتابه الكامل مثل مصير عماد الدين بعد مقتل والده، وتقلّبه في خدمة أمراء الموصل، واشترائه معهم في حروبهم منذ صغره، ومن هذا يعرف سرّ نجاحه الحربي والمهني⁽⁴⁾. ويلاحظ القارئ للكتاب أنه جاء خالياً من روح النقد، وتنقصه قواعد الجرح والتعديل، على الرغم من أنه حوى أحداثاً لم ترد عند مؤرّخ غيره

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 15 ومابعد.

(2) طليحات: ابن الأثير الجزري المؤرّخ، ص 79.

(3) طليحات: ابن الأثير الجزري المؤرّخ، ص 78.

(4) سعداوي: المؤرّخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي، ص 8.

يؤخذ على ابن الأثير، أنه على الرغم من ذكائه وفطنته وفراسته، ظل متحزباً متطرفاً، متعصباً للزنكيين، وهنا يكون السؤال لماذا هذا التعصب والانحياز للزنكيين هل لأن أسرته كانت على علاقة وثيقة بالزنكيين أو أن الأمر يتعلق به شخصياً وهل صحيح بأنه اتهم بأنه يحوّر روايات غيره ما استطاع في سبيل إشباع نزعة نفسية نحو الزنكيين، وسيطرت تلك النزعة على تفكيره، حتى بعد زوال سلطان تلك الأسرة؟ سيتم تحليل هذه القضايا في الفصل المتعلق بدراسة تاريخ الباهر ومنهج ابن الأثير فيه.

د - الكامل في التاريخ:

أما كتاب ابن الأثير الثاني في التاريخ، عنوانه "الكامل في التاريخ"، وهو موسوعة كبيرة في التاريخ، العام للعالم الإسلامي، ابتدأه بأول الزمان وأنهاه بسنة 628 هـ / 1231 م⁽¹⁾، وهو من أمهات كتب التاريخ الإسلامي بلا ريب، سار فيه على طريقة الحوليات، مع ذكر جميع تفاصيل الأحداث التي تقع يوماً بيوم، وشهراً بشهر، وسنة بعد أخرى. انعكست ثقافة ابن أثير التي أخذها من تنقلاته وترحاله بين مدن حلب والموصل وبغداد ودمشق على كتاباته وخاصة أن هذه المدن كان مصدر الإشعاع العلمي والفكري والأدبي في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فهي تعجّ بالعلماء والفقهاء، والأدباء والقراء وغيرهم، فانعكس ذلك على كتاباته فكان كتاب الكامل في التاريخ ثمرة هذه الرحلات والتنقلات بين البلدان والمدن. ولم يكن ابن الأثير في كتابه ناقلاً، للأخبار أو مسجلاً أحداث فقط، وإنما كان محللاً بارعاً، وناقداً بصيراً؛ حيث حرص على تحليل بعض الظواهر التاريخية ونقد أصحاب مصادره، وناقش كثيراً من أخبارهم، وكان سبب تأليفه للكتاب حبّه للتاريخ⁽²⁾، وأنه بعد أن اطلع على كتب التاريخ وجد فيها عدّة عيوب، حيث أن منها المطول الممل، والمختصر المخل، وأن المؤرخين الذين قرأ لهم قد أثقلوا كتبهم بصغائر الأمور دون الأمور المهمة، وأن كلّ منهم أّخ في زمانه وأن المؤرخ الشرقي

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 1، ص 5؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 13، ص 203.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 1، ص 5.

اقتصر بالتأريخ للمشرق، والغربي أرخ للمغرب⁽¹⁾. وقد استكمل ابن الأثير في كتابه ما توقف عنده تاريخ الطبري في سنة 302 هـ / 914 م⁽²⁾.

أمّا عن منهجه في كتابه الكامل فقد رتب أخبار العالم الإسلامي على السنين وقد أشار إلى منهجه في تدوين الخبر وذكر في كل سنة لكل حادثة مشهورة ترجمه تخصّها أمّا عن الحوادث الصغيرة فأفردّها في نهاية كل سنة مشيراً إليها بعبارة (ذكر عدة حوادث). كما التزم في نهجه التوازن بين أقاليم العالم الإسلامي، مُقارناً ما يجري من الأحداث في كلّ منها، عام بعد عام. واعتمد على المتخصصين في تاريخ كل إقليم⁽³⁾، وتجلّت مواهب ابن الأثير في طريقة عرضه للحقائق، إذ حذف التفاصيل التي لا تدعو الحاجة إليها، وأمعن في فحص المصادر، واختار من النصوص ما يناسب الحقائق، وألف في كل ذلك خلاصة لكل ما جرى من الأحداث في السنة.

ومن الناحية الجغرافية غطّى ابن الأثير مناطق العالم المعروف لديه في ذلك الوقت، وأوضح في مطلع كتابه منهجه في التأليف، كما أشار إلى مصادره وموارده التي ابتدأ منها في تأليف الكامل، فقال: "أخذت غيره من التواريخ المشهورة، فطالعتها، وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه ووضعت كلّ شيء منها موضعه"⁽⁴⁾. وتطرّق أيضاً في المقدمة لأسباب تأليفه لكتابه الكامل متطرقاً إلى فوائده الدنيوية، وفوائده الدينية⁽⁵⁾.

ولكتاب ابن الأثير ابتداءً من الجزء العاشر، أهمية خاصّة؛ نظراً لأنّه يؤرّخ الأحداث القريبة زمنياً في عصره، سمع بها وشارك فيها وعالج في هذه الحقبة الممتدة من سنة 450 هـ / 1058 م، ما وقع من صدام بين الغرب المسيحي والعالم العربي الإسلامي، فيما يُعرف باسم الحروب الصليبية، حيث يعد كتابه من المصادر الأصلية للحروب الصليبية. وكتابه هذا كان مصدراً لكثير من مؤرّخي عصره، ومن

(1) طلبات: ابن الأثير الجزري المؤرّخ، ص 94.

(2) هو الإمام محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر ت سنة 310 هـ، المفسر، المقرئ، المحدث الفقيه، ولد بآمل طبرستان في آخر سنة 224 هـ، الحموي، (ياقوت): معجم الأدباء، القاهرة، مطبعة دار المأمون، 1355 هـ / 1936 م، ج 18، ص 40؛ انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 4، ص 191.

(3) عبد الغني، (يسري): معجم المؤرّخين المسلمين حتّى القرن الثاني عشر الهجري، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1411 هـ / 1991 م، ص 36.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 1، ص 7.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 1، ص 6..

أتى بعدهم فأخذ عنه الكثيرون، أمثال أبي الفداء في كتابه المختصر في أخبار البشر فكتب "صنّف في التاريخ كتاباً سمّاه الكامل، وقد شهد لهذا الكتاب جملة من المؤرخين فقد ذكر ابن خلكان⁽¹⁾

وابن كثير أنّه من أحسنها حوادث⁽²⁾، وهو المنقول منه غالب هذا المختصر⁽³⁾، فجاء الكامل باثني عشر مجلداً مرتب على السنين، وأكثر من جاء بعده من المؤرخين لم يرقوا في كتاباتهم على كتابه هذا. حيث مزج ابن الأثير في تاريخه بين الكتابة على السنين أو الحوليات، وبين الكتابة حسب الموضوعات، وقدّم بذلك مادة متوازنة زمنياً وجغرافياً مبتدئاً من بدء الخليقة وحتى أيام عصره سنة 628 هـ / 1231 م، فهو بذلك أكمل تاريخ الطبري الذي وقف فيه عند أحداث سنة 302 هـ / 914 م، وحرص باستمرار على تبيان آرائه من خلال تعليقاته التي كان يكتبها على الحوادث، فيستطيع القارئ بذلك أن يستشف ميوله التاريخية من خلال تعليقاته هذه، فهو لم يكن مجرد ناقل للأحداث، والأخبار، بل نظر إليها نظرة الناقد والمحلّل، وأعطى رأيه بالكثير منها. ويتضح من مضمون الكتاب النواحي التي اهتم بها ابن الأثير حيث كتب فيه عن الفتن الداخلية على تعدد أسبابها من مذهبية واجتماعية وغيرها، وكتب فيه عن النواحي الاقتصادية من الغلاء والفقر وغيرها، وعن ما تعرضت له البلاد والعباد من كوارث طبيعية كالزلازل، وذكر الأوبئة والمجاعات التي عصفت بالبلاد ويصف آثارها بروعة تجعل القارئ يعيش هذه الأحداث وكأنّه فيها، بالإضافة إلى ذكره ما شهِد من بيمارستانات ومساجد. كما أولى ابن الأثير عناية خاصّة لأخبار الغزو الخارجي لدار الإسلام، ممثلاً بغزو الفرنجة، والنتز، وجهاد المسلمين لهم وقد عدّ غزو النتز للمشرق الإسلامي أعظم كارثة حلّت بالإنسانية⁽⁴⁾.

4- علاقته بعلماء عصره:

احتل ابن الأثير مكانة اجتماعية وعلمية كبيرة بين علماء عصره؛ فلا شكّ بأنّه تتمّع بمكانة اجتماعية كبيرة ورفيعة بين معاصريه، وقد اكتسب هذه المكانة من مكانة أسرته، لما كان لهذه الأسرة من نفوذ واسع لدى أمراء الجزيرة والموصل وحكام الشام ومصر فاكتسب مكانته الاجتماعية كونه فرداً في هذه الأسرة، إضافة إلى ذلك، أجمّع كل من ترجم لابن الأثير أنّه كان يتحلّى بالخلق الفاضل

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص348.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص149.

(3) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج5، ص25.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص375. بروكلمان، (كارل) تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه فارس و منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط5، بيروت، 1968 م، ص375.

والصفات الحميدة، وكان من صفاته أنه يكره البخل والبخلاء⁽¹⁾، ولا عجب في ذلك فكيف يكون لمؤرخ مثله أمضى من حياته السنين الطوال في جمع الأخبار التاريخية والتحقق منها، وفي تعلّم العلوم وجمعها وتصنيفها، لكي تكون ذخيرة علمية للأجيال التي تلتها، أن يتصف بغير هذه الصفات الحميدة.

وبهذه المكانة التي حظي بها، في أسرته، بالإضافة الى الرحلات التي قام بها في سبيل طلب العلم إلى مدن الإشعاع العلمي والفكري في ذلك الوقت كلّها مسوّغات جعلت من ابن الأثير شخصية مرموقة، مقربة ومحبة بين علماء عصره، فالتقى بالكثير منهم في رحلاته، بالإضافة إلى من كانت تربطه بأسرته علاقة صداقة امتدت وأصرها إلى ابن الأثير كعلاقته بابن خلّكان ت 651 هـ/ 1282 م⁽²⁾، الذي كان والده صديقاً لابن الأثير لذلك أكرم ابن الأثير ابنه وقربه إليه⁽³⁾.

كان ابن الأثير محل تقدير وثناء من عرفه من معاصريه، ومن جاء بعده، واستفاد من مؤلفاته، وفي هذا المجال سيتم التركيز على علاقة ابن الأثير بابن خلّكان، بالإضافة إلى ما ذكرته المراجع والمصادر عن قصة مكتبة ياقوت الحموي صديق ابن الأثير فكان لا بد من ذكر كل ما احتوته المصادر والمراجع عن علاقات ابن الأثير بمعاصريه سواء أكانت هذه العلاقات ودّية أو كانت علاقات يشوبها شيء من العدائية والوقوف على سبب هذه العدائية وخاصة لشخصية مثل ابن الأثير الذي قلّ ما كتبت المصادر والمراجع ما ينقده في علاقاته الاجتماعية وخاصة أنه كان على جانب كبير من الذكاء والفتنة، تجعلانه بعيداً عن الوقوع بمثل هذه الهفوات.

أمّا عن علاقته بابن خلّكان فيستطيع الباحث في التاريخ، أن يستشف علاقة ابن الأثير بمعاصره ابن خلّكان من خلال ما كتبه الأخير في ترجمته لابن الأثير في كتابه وفيات الأعيان وخاصة أن ابن خلّكان كما سلف ذكره كان صديقاً مقرباً لابن الأثير الذي كان على معرفة بوالد ابن خلّكان محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان، فإكراماً لهذه المعرفة والصداقة التي جمعتها بأبيه، أكرم ابنه وقربه منه، حيث كان مقرباً له وملازماً له حتّى وفاته، وتردد إليه كثيراً في أثناء تواجده في حلب سنة 626 هـ/ 1228 م، فكتب في كتابه وفيات الأعيان عن ابن الأثير "كان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته، وما يتعلّق به، وحافظاً للتواريخ المقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأنساب العرب وأخبارهم"⁽⁴⁾.

(1) ظلمات: ابن الأثير الجزري المؤرخ، ص 94.

(2) ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج 3، ص 349.

(3) ظلمات: ابن الأثير الجزري المؤرخ، ص 94.

(4) ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج 3، ص 348.

ويستشف الباحث من خلال ذلك أنَّ ما كتبه ابن خلّكان دليل على أنّه لربما كان قد حضر هذه الاجتماعات والمجالس والنقاشات العلمية في منزل ابن الأثير فوصفها كما شاهدها. وبالإضافة إلى أنّ ابن خلّكان وبحكم علاقته القويّة مع ابن الأثير حدد مكونات ثقافته الأساسية في علوم الحديث والتاريخ والأنساب في كتابه وفيات الأعيان.

يلفت نظر الباحث في طيّات المصادر والمراجع ما ذكره القفطي عن ابن الأثير، ولأنّها حادثة مفردة لم تأت المصادر على ذكر غيرها أو ما يماثلها، وجب ذكرها فإذا كان كلّ من جاء بعد ابن خلّكان يرددون قوله نفسه عن ابن الأثير، فهذا لا يلغ ما ذكره القفطي الذي كان يحمل على ابن الأثير بسبب مكتبة ياقوت الحموي⁽¹⁾، حيث اتهم القفطي ابن الأثير بسرقة المكتبة، فيقول القفطي في ترجمته لياقوت الحموي " وكان قد وقف كتبه على المسجد الزيدي⁽²⁾، وسلّمها إلى الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير صاحب التاريخ الكبير، فحملها إلى هناك"⁽³⁾. ويدور في ذهن القارئ أنّ ابن القفطي كان يأمل أن يرث هو المكتبة للصلة الوثيقة بينه وبين ياقوت، فلمّا خاب أمله اغتاض من ابن الأثير وياقوت، لأنّ ياقوت أيضاً لم يسلم من القفطي الذي ترجمه ترجمة قبيحة وكتب عنه أنه مملوك وكتب " علمت أنّه لا يصلح للعشرة"⁽⁴⁾. وكتب أيضاً ".... على عسر كان في فهمه، ومكابرة كانت في خلقه"⁽⁵⁾. وكتب في روايته عن المكتبة "وأما ابن الأثير فإنّه تصرّف في الكتيبات التي له، والأوراق المجمّعة التي بخطّه تصرّفاً غير مرضي، ولم يوصلها بعد أن حصل بالموصل إلى الجهة المعنية برسمها، بل فرّقها على جماعة، أراد انتفاعه بهم وبها عندهم، ولم ينفعه الله بشيء من ذلك"⁽⁶⁾.

إنّ ما ذكره القفطي عن ابن الأثير ينقض ما كتبه وذكره المعاصرين له عن أخلاقه وصفاته، ولم يكن هناك ذكراً لأية حادثة مشابهة في سيرة ابن الأثير وحياته.

(1) طليعات: ابن الأثير الجزري المؤرّخ، ص32.

(2) - المسجد الزيدي: الذي يدرب دينار ببغداد. القفطي، (جمال الدين علي بن يوسف، ت624هـ/1227م): إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط1، دبت، ج4، ص80.

(3) القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج4، ص80.

(4) القفطي: إنباه الرواة، ج4، ص81.

(5) القفطي: إنباه الرواة، ج4، ص81.

(6) القفطي: إنباه الرواة، ج4، ص84.

5- مكانته العلمية وآراء العلماء فيه:

شغل ابن الأثير مكانة علمية ومنزلة كبيرة، وأشاد به من جاء بعده من المؤرخين، فشهد له الكثير بقيمة مؤلفاته، وموروثه الثقافي والتاريخي، فاشتهر في علمي الحديث والتاريخ وأبدع بهما، على الرغم من أن شهرته كانت قد ذاعت من كونه مؤرخاً، أكثر من كونه محدث. فكانت مكانته لا تقل عن مكانة أخويه، رغم أنه لم يتولى الوظائف الإدارية التي استلموها إلا أن نتاجه الثقافي قد فرض نفسه على معاصريه ومن تلاهم، فكتب في وصفه الذهبي: "كان صدرًا معظمًا، كثير الفضائل، وبيته مجمع الفضلاء"⁽¹⁾ هذا كان تأييداً لكلام ابن خلكان عنه "كان بيته بالموصل مجمع الفضلاء، اجتمعت به في حلب، فوجدته مكمل الفضائل، والتواضع، وكرم الأخلاق فتددت إليه"⁽²⁾، ووصفه الحنبلي: "إماماً، نسابة، مؤرخاً، أديباً، إخبارياً نبيلًا محتشماً"⁽³⁾. أمّا عن سبط بن الجوزي الذي كان أيضاً من المعاصرين لابن الأثير، فهو لم يترجم له كما فعل ابن خلكان في وفيات الأعيان، بل كان يلقبه بالأستاذ، فيقول: "ذكر الأستاذ الجزري في تاريخه"⁽⁴⁾ وجاء في مرآة الجنان وعبرة اليقظان مدحاً لمؤلفاته ولشخصه على يد اليافعي فكتب "كان خبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم"⁽⁵⁾.

ترجم له الصفدي "العلامة عز الدين ابو الحسن بن الأثير أبو الكرم الشيباني الجزري، الحافظ المؤرخ، أخو مجد الدين وضياء الدين"⁽⁶⁾ ويصفه ابن كثير بـ "الإمام العلامة"⁽⁷⁾، كما شهد له بمثل هذا كل من المنذري⁽⁸⁾

(1) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص1398.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص348.

(3) الحنبلي، (ابن العماد أبو الفرج عبد الحي، ت1089هـ/1679م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي، القاهرة، 1351هـ، ص391.

(4) ابن الجوزي، (شمس الدين أبي المظفر، ت654هـ/1275م): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: ابراهيم الزبيق، دار الرسالة العالمية، ط1، دمشق، 1434هـ/2013م، ج22، ص319.

(5) اليافعي، (عبد الله بن أسعد، ت768هـ/1366م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1417هـ/1997م، ج1، ص5.

(6) الصفدي، (صلاح الدين خليل، ت764هـ/1262م): الوافي بالوفيات، دار احياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1420هـ/2000م، ج22، ص86.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص210.

(8) المنذري: التكملة لوفيات النقلة، ج6، ص76.

وابن الفوطي⁽¹⁾، والسخاوي⁽²⁾، وابن قاضي شهبه⁽³⁾، حيث أجمعوا له على سعة اطلاعه وحسن خلقه ودقته وأمانته في نقل الأخبار.

(1) ابن الفوطي، (كمال الدين عبد الرزاق بن تاج الدين، ت 723 هـ / 1323 م): تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تح: مصطفى جواد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1962 م، ج 4، ص 260.

(2) السخاوي، (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ت 902 هـ / 1497 م): الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دار الجيل، ط 1، بيروت، 1413 هـ / 1992 م، ص 146.

(3) ابن قاضي شهبه، (أبو بكر بن أحمد بن محمد، ت 851 هـ / 1447 م): طبقات الشافعية، عالم الكتب، ط 1، بيروت، 1407 هـ / 1987 م، ج 2، ص 81.

الفصل الثالث: دراسة تاريخ الباهر

منهج ابن الأثير في تأليف كتابه الباهر في الدولة الأتابكية

1- وصف الكتاب ومحتواه

2- الموضوعات التي تناولها ابن الأثير في الباهر: أ- النهضة العلمية

ب- الإنجازات العمرانية

ج- الإنجازات العسكرية ضد الفرنج

د- الأوضاع الاقتصادية

3- منهج ابن الأثير في التأليف: أ- مقدمة الكتاب ومحتواها

ب- لغة الكتاب

ج- منهجه في عرض المادة العلمية

4- أهمية الكتاب

1- وصف الكتاب ومحتواه:

يغطي كتاب الباهر حقبة زمنية تمتد بين سنة 521هـ/1127م؛ وهي سنة قيام الحكم الزنكي على يد عماد الدين حتى سنة 607هـ/1210م؛ عند تولي القاهرة مسعود بن الملك نور الدين أرسلان شاه حكم الموصل برعاية بدر الدين لؤلؤ.

فالكتاب مخصّص لتخليد ذكر الأسرة الزنكية، وذكر بطولاتهم وإنجازاتهم في مجال الحروب العسكرية ضد الصليبيين، والمعارك الداخلية التي كانت تسعى لتثبيت أركان دولتهم، فكان ابن الأثير يحرص بكتابه على ذكر كل ما يتعلق، بهم من حيث وفاة خليفة، واستلام خليفة آخر للحكم، وتحديث الشيء المختصر عن نسبهم كما كتب عن موت سلطان سلجوقي وتولي غيره، وأول مرة ينشر فيها كتاب الباهر كانت في الموسوعة الفرنسية في مصادر تاريخ الحروب الصليبية، ثم نشر في القاهرة من قبل عبد القادر طليمات الذي كتب عن مشاهدته للمخطوطة في مقدمة تحقيقه وذكر أنّ الكتاب ليس له سوى مخطوطة وحيدة ليس لها نسخة أخرى، موجودة في المكتبة الأهلية بباريس ثم نشر الكتاب في الموسوعة الشامية للحروب الصليبية للدكتور سهيل زكّار في الجزء الثالث عشر منها⁽¹⁾.

وهو لا يُعنى بالأمور الاقتصادية والاجتماعية إلا ما ندر لكن ابن الأثير تطرّق في ثناياه بالإشارة إلى بعض الكوارث كالسيول، والغلاء والوباء، كما كان يتحدث عن أعمال بعض الأمراء الزنكيين والسلطين الأتراك، وصفاتهم وأمثلة عن ذلك عندما ذكر بعض صفات نظام الملك و وزير السلطان ملكشاه: "كان عالماً فقيهاً، ديناً خيراً، متواضعاً، عادلاً"⁽²⁾. وذكر بعض أعماله الحسنة كبنائه لمدرسة تعرف بمدرسة رضي الدين⁽³⁾. وأتى على ذكر بعض الكوارث الطبيعية كالزلازل حيث ذكر "في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة أنّه كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة، أخرجت البلاد وأهلكت العباد وكان أشدّها بحماة وحصن شيزر فإنهما خربتا، وكذلك ما جاورهما كحصن بارين وغيرهما من البلاد....."⁽⁴⁾.

(1) زكار، (سهيل): الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، 1416هـ\1995م، ج14، ص210.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص119.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص119.

(4) ابن لأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص243.

وذكر في حوادث سنة 565هـ/1169م، الزلزلة العظيمة التي جرت بالشام وما فعله نور الدين محمود وقتها، حيث كتب أن "كانت زلزلة عظيمة لم يرَ الناس مثلها، عمّت أكثر البلاد من الشام ومصر، وديار الجزيرة والموصل، و العراق وغيرهما، إلا أن أشدها كان في الشام فخربت بعلبك، وحمص، وحماة وشيزر، وبعرين، وحلب وغيرها من البلاد، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها فلما أتاه هذا الخبر - ويقصد هنا نور الدين - سار إلى بعلبك، ليعمر ما هُدم من أسوارها فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بارين فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البتة، فجعل فيها طائفة سالحة من العسكر مع أمير كبير⁽¹⁾. فبهذا وصف ابن الأثير الحادثة وأهوالها، وما فعله نور الدين من أعمال تحد من أثرها على الناس.

كما وصف الغلاء والوباء، الذي عم في البلاد فأتى على ذكرهما في حوادث سنة 554هـ/1159م، فقال "اشتد الغلاء، وعم أكثر البلاد في العراق والموصل وديار بكر والشام وغير ذلك، من البلاد ودام إلى أن انقضى أكثر سنة 575هـ/1179م، وخرج الناس في سائر البلاد يستسقون فلم يُسَقُوا، ثم إن الله تعالى رحم عباده ولطف بهم، وأنزل عليهم الغيث.⁽²⁾

ومن خلال قراءة الكتاب يُلاحظ أنه حاول ذكر محاسن الأمراء الزنكيين وصورهم بأجمل صورة، ووصفهم بأحسن الصفات وذكر كل عمل صالح قاموا به، فالباهر لا يخلو من ذكر أعمالهم ومناقبهم، فذكر فيه ما بنوه من مدارس ورُبَط، ومساجد، وما قاموا به من أعمال.

ومن المواضيع التي تطرّق لها ابن الأثير في كتابه الباهر ذكره لتولي سلطان سلجوقي أو أمير زنكي أو خليفة عباسي، وكان يذكر بعض من أعماله ووفاته ثم ينتقل بالحديث لولاية سلطان آخر، فذكر عن ابتداء قسيم الدولة آق سنقر وتمليكه لحلب⁽³⁾، ومقتله⁽⁴⁾. كما كتب عن ولاية البرسقي للموصل⁽⁵⁾.

وكتب عنه مقتله⁽⁶⁾ وعن ولاية زنكي، وأعماله وحروبه مع الأراقة وعن مقتله ووفاته أيضاً، وتبعها بالحديث عن أعماله وصدقائه وحسناته فكتب "كانت سيرته من أحسن سير الملوك وأكثرها حزمًا، وضبطاً للأمور، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف"⁽⁷⁾ وذكر

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 287.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 330.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 116.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 126.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 137.

(6) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 146.

(7) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 199.

بعض أرائه الصائبة، ومنها أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها، وكان مع اهتمامه بالأمر الكبير والهامة من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير فيها، وكان يقول: "إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً"⁽¹⁾، وكتب أنه كان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميرى ظاهرة، ويتصدق في ما عداه من الأيام سرّاً مع من يثق إليه⁽²⁾.

ونذكر كذلك محاسن العديد من السلاطين والأمراء الزنكيين، فكتب بعد وفاة المولى السعيد يذكر شيء من سيرته فيقول "أنه كان لين الجانب، كريم الأخلاق، كثير الإحسان إلى الناس يتعهدهم بالنفقات، والسؤال عن أحوالهم"⁽³⁾.

وكان زكي يتصف بالحياء حتى وُصف بأنه كما قيل أشد حياءً من العذراء، لم يحدث أحداً قط إلا وهو مخفض رأسه، ومن الأمثلة على حيائه ما أورده ابن الأثير عندما قال أنه "أمر طائفة من عسكره بالتجهيز للغزاة، وكان فيهم مملوك لم يكن له محل إنما هو بمفرده، فحضر في خدمته وقال: لي مهم أريد قوله، فأذن له في القول، فقال: "بلغني إنني في جملة العسكر المسير إلى الغزاة، وعجب من مولانا كيف يسمح بمثلي ويرسلني، ويبعدني عن خدمته، ولا شك أن المولى لا يعرف محلي، وإلا فما كان أمر بذلك فقال له: صدقت: مثلك لا ينبغي أن يفارقنا مع علو محلك، وارتفاع قدرك فلما خرج من عنده أظهر الإنكار، وقال: قد صار مثل هذا المدبر المنحوس، يقول لي هذا القول، ومن هو ومحلّه، وقد سيرنا في هذه الغزاة جماعة من أكابر الأمراء، أليس له بهم أسوة، فقال له بعض الحاضرين: لم لا أمر المولى بتأديبه وإقامته من خدمته، وكيف استمع حديثه؟ فقال: استحييت منه. فقالوا: أفلا تؤدبه وتعرف ذنبه؟ فقال: قد أحسن الظنّ بنفسه فلا نعاقبه عليه"⁽⁴⁾.

احتوت مادة ابن الأثير التاريخية ذكر لأعمال الأمراء الزنكيين والسلاطين الأتراك، فكانت هذه الموضوعات من بنائهم للمدارس، وأعمالهم العمرانية، والإصلاحية، وبنائهم للجوامع و البيمارستانات والخانات، وأبراج المراقبة، ترد في غالبية صفحات كتابه الباهر، وعلى الرغم من أن ابن الأثير أشار في مقدمة كتابه إلى أنه مخصص لأخبار الزنكيين، وأن المساحة التي شغلت لذلك كبيرة، إلا أن المادة التي توفرت في الكتاب تجاوزت حدود الأسرة الزنكية والموصل، لذا لا يمكن عدّه تاريخاً محلياً، فقد احتوى قدراً كبيراً من الأحداث في الفترة بين 477 - 607هـ / 1084 - 1201م، وأعطى صورة شاملة و دقيقة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والنشاط العسكري، وتحركات الجيوش في تلك المرحلة في كل من العراق والشام.

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص202.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص206.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص340.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص341.

بدأ ابن الأثير خطته في كتاب الباهر بأخبار قسيم الدولة آق سنقر؛ والد عماد الدين زنكي، وعلاقته الوثيقة بالسلطان السلجوقي ملكشاه 465-485هـ / 1072-1092م، إذ ولّاه حلب وأعمالها باقتراح من الوزير نظام الملك، وقدّم بعض المعلومات عن الدولة السلجوقية، لاسيما السلطان ملكشاه، ووزيره نظام الملك، ومشاكل البيت السلجوقي بعد وفاة ملكشاه، ومعلومات عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد التي كانت تحت ولاية قسيم الدولة، فذكر حدود مملكة السلطان ملكشاه أنها قد اتسعت اتساعاً عظيماً، أطاعته البلاد جميعها، وملكها، وخطب له من حدود الصين إلى أرض الشام، وخضع له اليمن والحجاز، وكان يأخذ الخراج كل سنة من امبراطور القسطنطينية، وخضع له أيضاً صاحب طراز⁽¹⁾، وكاشغر⁽²⁾ وغيرها⁽³⁾، وتحدّث عن أعمال السلطان ملكشاه العمرانية أنّه بنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة⁽⁴⁾.

ومن الملفت للنظر في كتابه أيضاً ذكر شيء عن الخلفاء العباسيين، كذكره لنسب المستظهر بالله واستفاض بالحديث عن نسبه⁽⁵⁾، إضافة إلى بعض الخلفاء العباسيين، وقد اكتفى بالحديث عن الخلافة العباسية بأنّه كان ينوّه عندما يتولى خليفة عباسي جديد، وعندما يتوفى خليفة آخر فكان يكتفي بهذا القدر من المعلومات ليحيط القارئ علماً بالقوى السياسية التي كانت موجودة أثناء سير الأحداث، فذكر وفاة الخليفة المقتدي، وولاية المستظهر⁽⁶⁾، ووفاته⁽⁷⁾، ومقتل الخليفة المسترشد وخلافة الراشد⁽⁸⁾.

وأتى على ذكر الصدام بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي والخليفة المسترشد بالله سنة 519هـ/1125م، وحصار الخليفة المسترشد لبغداد⁽⁹⁾.

(1) طراز: في آخر الإقليم الخامس، طولها مائة درجة ونصف، وعرضها أربعون درجة وخمس وعشرون دقيقة. بلد قريب من اسبيحان من ثغور الترك وقد نسب إليه قوم من العلماء مثل علي بن أبي علي الطرازي. وهي أيضاً محلة بأصيهان. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص27.

(2) كاشغر: وهي مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك، وأهلها مسلمون. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص430.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص121.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص121.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص125.

(6) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص134.

(7) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص134.

(8) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص167.

(9) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص165.

والدور الذي كان لعماد الدين زنكي في هذه الأحداث، وحصول عماد الدين زنكي على وظائف إدارية أيام السلاجقة في واسط⁽¹⁾، والبصرة⁽²⁾، وبغداد⁽³⁾، وتطرق لبعض الحوادث المهمة من خلال ذكره لأبرز الأحداث في كل سنة فمثلاً ذكر حروب الزنكيين مع القوى المجاورة كحروب زنكي مع الأرتقة⁽⁴⁾،

وصدامه الأول مع الفرنج في حصن الأثارب⁽⁵⁾، وفتح زنكي للرها⁽⁶⁾، وحروبه مع الفرنج وفتوحاته، ودوره في الجهاد ضد الروم البيزنطيين والفرنج⁽⁷⁾، وتفاصيل عن سياسته العامة. وعن خطط الموصل وحالتها العمرانية وأوضاعها الاقتصادية في فترة حكم زنكي وقبلها، واقتسام أبنائه المملكة بعد مقتله⁽⁸⁾، وجهود نور الدين محمود في محاربة الفرنج⁽⁹⁾، وتوحيده لبلاد الجزيرة والشام ومصر، وجهود الدولة الأيوبية أسد الدين شيركوه ونجم الدين في خدمة الزنكيين⁽¹⁰⁾ وحملات أسد الدين شيركوه الأولى والثانية، والثالثة على مصر⁽¹¹⁾.

وأعطى بعض الإشارات إلى بعض تدابير الدولة المتعلقة بالأراضي، والضرائب، وتفاصيل عن أعمال نور الدين الخاصة بمصالح الشعب، كبناء الأسوار والجوامع والمدارس و البيمارستانات⁽¹²⁾.

2- الموضوعات التي تناولها ابن الأثير في الباهر:

وللتعمق في محتوى كتاب الباهر ودراسة هذا المحتوى دراسة دقيقة، جاءت الدراسة بشيء من التصنيف والترتيب لهذا المحتوى، وفق الموضوعات التي تحدّث فيها ابن الأثير في الكتاب وذلك الأمر الذي يساعد على فهم المحتوى، وفهم المنهجية التي اتبعها ابن الأثير في كتابه، فبعد القراءة المتعمقة للكتاب، تمت ملاحظة الموضوعات الآتية التي كانت محور حديث ابن الأثير في الباهر، والتي لم يتطرق لغيرها فيه. والتي كانت تهدف لتسليط الضوء على إنجازات الزنكيين، وعلى أعمالهم في كافة المجالات فهو لم يأت على ذكر المثالب بقدر ذكره للمحاسن والإيجابيات. فتنوعت نواحي

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص138.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص143.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص143.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص155.

(5) الأثارب: هي قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، وهذه القلعة الآن خراب، وتحت جبلها قرية تسمى باسمها فيقال لها الأثارب. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص89.

(6) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص156.

(7) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص179.

(8) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص341.

(9) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص179.

(10) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص272.

(11) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص277. ص270. ص275.

(12) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص310.

اهتمام ابن الأثير، ومع أنَّ المادة التي قدمها كانت ذات طابع سياسي وعسكري في خطوطها العامة، إلا أنَّ هناك قسم منها اشتمل على نواح اقتصادية وثقافية واجتماعية، واشتمل على معلومات عن بعض الظواهر الطبيعية والكوارث و صورة عن الحياة العامة في بلاد المسلمين آنذاك.

أ- النهضة العلمية:

كان الحديث عن هذه النهضة العلمية في عصر الأمراء الزنكيين، متمثلاً بذكره للعديد من المدارس التي قاموا ببنائها، و لربما كانت غاية ابن الأثير من هذا الذكر تصوير الدولة الزنكية وأمرائها على أنَّهم دعاة علم و رؤاد نهضة فلو حظ ذكره للعديد من المدارس التي بناها الأمراء الزنكيين، فذكر ما بناه نور الدين محمود من مدارس فقال: "من محاسن أعماله المدرسة التي أنشأها بباطن الموصل مقابل دار المملكة، وهي أحسن المدارس ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وجعلها وقفاً على ستين فقيهاً من الشافعية⁽¹⁾. وفي ذكره لوفاة مجاهد الدين قايماز ذكر أنَّه من بين أعماله بناؤه للمدارس⁽²⁾، وأيضاً ذكر المدرسة الغربية التي بناها المولى السعيد عز الدين؛ حيث ذكر أنَّه بنى المدرسة الغربية بباب دار المملكة، وهي مدرسة حسنة، جعلها لفريقين الحنفية والشافعية، وقرَّر للفقهاء ما ليس بمدرسة أخرى من الفواكه و الحلوى، والدعوات في المواسم⁽³⁾. وذكر من أعمال نور الدين بناءه المدارس⁽⁴⁾.

ب- الإنجازات العمرانية:

ومن المواضيع التي تضمنها الباهر، الإنجازات العمرانية للدولة الزنكية، حيث أتى في ذكره لأعمال سيف الدين غازي، على بنائه الأربطة للصوفية في الموصل⁽⁵⁾، وفي ذكر شيء من أخبار الوزير جمال الدين، كتب أنَّه "من أعظم الأعمال التي عملها نفعاً، أنَّه بنى سوراً على مدينة النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم فأنها كانت بغير سور، تنهبها الأعراب وكان أهلها في ضنك وضرٍّ معهم وأنَّه بنى الربط بالموصل، وسنجار، ونصيبين، وغيرها"⁽⁶⁾.

وذكر في أعمال الملك العادل نور الدين محمود أنَّه "بنى الجوامع في جميع البلاد، فجامعه في الموصل في غاية الحسن والإتقان، ومن أحسن ما عمل فيه أنَّه فوَّض أمر عمارته والخرج عليه إلى

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص350

(2) لم يرد تعداد لهذه المدارس. ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص361

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص335.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص320.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص220.

(6) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص267.

الشيخ عمر الملاً رحمه الله....⁽¹⁾ وذكر بناؤه لدار العدل، فكان أوّل من بنى داراً لكشف المظالم، وسمّاها دار العدل⁽²⁾، و بنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق والذي سمي بالبيمارستان النوري، فإنّه عظيم كثير الخرج، لم يجعله وقفاً على الفقراء فقط بلا كان لكافة المسلمين من غنيّ وفقير، و بنى أيضاً الخانات في الطرق، فأمن الناس، وحفظت أموالهم، و بنى أيضاً الأبراج على الطرق بين بلاد المسلمين⁽³⁾ و بنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، و بنى بدمشق داراً للحديث⁽⁴⁾، و بنى في كثير من بلاده مكاتب للأيتام، ومساجد كثيرة⁽⁵⁾.

ج- الإنجازات العسكرية ضد الفرنج:

ذكر ابن الأثير إنجازات الزنكيين الحربية وابتدأها مع فتح عماد الدين لخصن الأتارب من الفرنج بقوله: "صمّم العزم على الجهاد، وإجلاء أهل الزيغ والعناد، وإعلاء كلمة الله تعالى، وإدحاض كلمة الشيطان، وتسليط أهل الحق، على عباد الطاغوت وأتباع الصلبان، وقصد إلى حصن الأتارب ونزله، وأنزل بأهله البلاء، وعمّ بلادهم بالنهب والإحراق والتخريب، وكان هذا الحصن أضّرّ شيء على أهل حلب، وكانوا مع من فيه من الفرنج ما بين حزب وحرب، وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج، وذوي البأس، كل معروف بشدة المراس، إذ هو أخطر ثغورهم وهو من المسلمين في نحورهم، وأدمن نزالهم، وصبّ عليهم العذاب من كلّ مكان، ولأذ من به من سطوته، وبأسه بالجران، وعمّهم الرعب، فصاروا يحسبون كلّ صيحة أنى يسلكون، وسقط في أيديهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون"⁽⁶⁾ فيلاحظ أنّه أتى على ذكر التفاصيل التي جرت في المعركة رافعاً من شأن وقوة الزنكيين في المعركة، ناهجاً أسلوب السجع في كتابته التاريخية.

كما تحدّث عن حصار دمشق وبعليك من قبل عماد الدين زنكي⁽⁷⁾ وذكر فتحه لخصن بارين وهزيمة الفرنج آنذاك⁽⁸⁾، وفتح عماد الدين زنكي لمدينة الرها⁽⁹⁾، واسترداده لها في ما بعد. ونزول الفرنج على دمشق وحصارها، وما فعله سيف الدين بن زنكي حتى رحلوا عنها⁽¹⁰⁾، وغزو الفرنج ليغرى وما جرى

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص317.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص318.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص320.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص321.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص322.

(6) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص165.

(7) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص178.

(8) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص180.

(9) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص187.

(10) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص214.

لهم فيها، وذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية⁽¹⁾، والحرب بين نور الدين و جوسلين والتي انتهت بأسر جوسلين⁽²⁾

وكلها حوادث أتى على ذكرها بالترتيب.

د - الأوضاع الاقتصادية:

أيضاً من الجوانب التي تحدّث عنها ابن الأثير في كتابه الباهر، هي الجوانب الاقتصادية، من حيث الأزمات من غلاء وأوبئة، و كوارث طبيعية، وما ترتب عليها من أزمات اقتصادية. فذكرها في عدّة مواضع من كتابه كحديثه عن الزلازل في الشام؛ حيث أتى على ذكر الزلزلة التي جرت في الشام ونواحيها سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة فقال أنّه "كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة، أخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدّها بحماة وحسن شيزر، فإنّهما خربتا بمرة، وكذلك ما جاورهما كحصن بارين، والمعرة وغيرها من البلاد و القرى و هلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلّا الله تعالى، وتهدّمت الأسوار والدور والقلاع، ولولا أنّ الله منّ على المسلمين بنور الدين، جمع العساكر وحفظ البلاد وإلّا كان دخلها الفرنج بغير قتال و لا حصار ، ولقد بلغني من كثرة الهلكى، أنّ بعض المعلمين بحماة، ذكر أنّه فارق المكتب لمهم عرض له، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب، وأشبه هذه الحكاية من الأخبار الدالة على أنّ كثرة الهلكى كثيرة جداً"⁽³⁾.

يستطيع القارئ أن يستشفّ من رواية ابن الأثير عن الأوضاع المريعة التي عانتها الشام في تلك المرحلة وعن الفقر، والضعف اللذين حلّا بها وأن يستنتج ما هي الأوضاع الاقتصادية التي آلت وراء مثل هذه الزلزلة التي فتكت بالعباد آنذاك. فرصد ابن الأثير في هذا المجال من خلال كتاباته فترات الرخاء والغلاء وغيرها

كما أنّه أتى على ذكر زلزلة جرت بالشام في سنة خمس وستين وخمسمائة، حيث ذكر أنها كانت زلزلة عظيمة لم يرَ الناس مثلاً عمّت أكثر البلاد من الشام، ومصر، وديار الجزيرة، والموصل، والعراق وغيرها، إلّا أنّ أشدّها وأعظمها كان بالشام، فخربت بعلبك، وحمص، و شيزر، وبعرين، و حلب وغيرها من البلاد وذكر هنا في هذه الحادثة ما فعله نور الدين للحد من آثار الزلزلة على الشعب ، فكتب أنّه سار إلى بعلبك ليعمّر ما هُدمَ من أسوارها وخلوها من أهلها، فرتب ببعلبك من يحميها

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص226.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص231.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص243.

ويعمرها، وسار إلى حمص ففعل⁽¹⁾ مثل ذلك، ثم إلى حماة ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بارين فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير.....⁽²⁾.

يُلاحظ من كتاب الباهر اهتمام ابن الأثير وتركيزه على النواحي الاقتصادية لما لها أثر كبير على باقي النواحي من سياسية واجتماعية وغيرها وانعكاسات عليها، وليبين في بعض المواضع منها فضل الأمراء الزنكيين في التخلص من هذه الكوارث أو الأزمات وما السياسة التي اتبعوها في هذه الأحوال. وكل ذلك بدون شك للرفع من مكانتهم وإظهار الإزدهار والرخاء الذي نعمت بهما البلاد بعهدهم.

3- منهج ابن الأثير في التأليف:

أ- مقدمة الكتاب ومحتواها:

لم تغب ثقافة ابن الأثير الدينية على أسلوبه في الكتابة التاريخية، وتجلّى ذلك في توظيف الكثير من المفردات الدينية والقرآنية في التعبير عن ما يراوده من أفكار وتصورات، ومما يعزز هذا القول المقدمة التي استهلها بقوله أن: "الحمد لله ذي النعم الباهرة والآلاء الظاهرة.....ونصلي على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه"⁽³⁾.

كما يلاحظ مدى ثقافته الدينية في دعائه للدولة الأتابكية، والأمراء الزنكيين بقوله مثلاً: "كان المولى السعيد نور الدين - قدس الله روحه كما نور ضريحه- قد عهد إلى ولده المولى القاهر العالم المؤيد المنصور المجاهد المرابط سلطان الإسلام والمسلمين أبي المظفر مسعود أعز الله سلطانه وأعلى شأنه ونصر جنده وأعوانه وخذل عدو دولته وأهانته"⁽⁴⁾. وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على موقفه الواضح والصريح من السياسة الزنكية التي كانت متبعة وعلى قناعته بها وأنه كان راضياً بالحكم السياسي لها. فأتضحت منفعة منهم، وكرمهم عليه وعلى أسرته في قوله: "وكان أكثر الموالى السعداء - قدس الله أرواحهم- إنعاماً علينا وإحساناً إلينا. المولى السعيد الملك العادل نور الدين أسلان شاه رضي الله عنه وأرضاه وأكرم له في الآخرة نزله ومثواه، وكتب بيتين من الشعر يمتدحه بهما، وتابع قوله: "فأنه طال ما أنعم علينا وأعطانا ووصلنا وحبانا وقرّبنا واصطفانا وإلى أعلى مراتب الكرامة أعلننا مازال يوالينا الجميل، ويولينا الجليل، ويقربنا إلى حضرته العلية، ويدنينا من سدّته

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص287.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص287.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص310.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص310.

السنية، وبأسراره يخصنا ولمشورته يستخلصنا... وكان ما يمدنا به من طول بحرًا يقذف بالغنى. ويجود بما لا يبلغه المنى، فلهذا كانت حياتنا من سيب أنعمه غدق الحياض، مونقة الرياض، ولم نزل نقابل قديم إنعامهم وحديثه بإخلاص الدعاء، وصدق العبودية والولاء، وإظهار الشكر والغناء، وكنت عازماً على أن أدون أخبارهم، وأجمع آثارهم، وذكر ما من الله سبحانه على الإسلام والمسلمين، و ما حفظ من ثغورهم بجلادهم، وما صب على الفرنج من العذاب بأيديهم وأخلد محاسن أعمالهم على مَرِّ الدهور، وتعاقب السنين والشهور، جزاء لإحسانهم المستمر، وكانت الأعذار تحول بيني وبين ما أؤمله من هذا الغرض، والعوائق تحيل جواهر إمكاني.....⁽¹⁾.

يوضح ابن الأثير في هذا الجزء من المقدمة مدى الاهتمام والرعاية التي أولاها الزنكيون لابن الأثير وأسرته، وإغداق الأموال عليهم، وأن هدفه من تأليف الكتاب كما سلف هو تخليد ذكر هذه الأسرة وإنجازاتها في صد الفرنج وخطرهم وأعمالهم وأفعالهم، فهو يوضح أسلوبه ومنهجه في عرض المادة؛ وهي تخليد محاسن الزنكيين على مَرِّ الدهور ويحدد فترة تدوين مؤلفه وهو بعد وفاة نور الدين زنكي سنة 607هـ/1210م. فبهذه المقدمة اعتراف واضح من ابن الأثير بفضل الملوك والأمراء الزنكيين عليه، فأنت المقدمة أشبه بخطبة سياسية على أحد منابر حكمهم، ممَّا يترتب عليه فهم القارئ بشكل صحيح للأحداث والأخبار التي أتى ابن الأثير على ذكرها، وتحليلها، الأمر الذي يجعل القارئ في حصن عن الوقوع في الغلو الذي لربما وقع فيه ابن الأثير في كتابه.

ذكر ابن الأثير في مقدمة كتابه سبب تأليفه له فقال أنه ألّفه لإظهار الدور العظيم الذي أدّاه الزنكيون في الجهاد ضدّ الصليبيين، وفي السياسة الداخلية لهم، وذلك وفاءً منه لهم ولكي تكون سيرتهم دستوراً يهتدي به الملك القاهر مسعود الذي خلف أباه على حكم الموصل سنة 607هـ/1210م، والذي أهدى الكتاب له، ليسير على نهج أسلافه في عدالة الحكم وحسنه⁽²⁾.

قدّم ابن الأثير لكتابه بمقدمة أظهر فيها علاقة أسرته الوثيقة بملوك الموصل و ما شمله منهم من إحسان، والعناية التي أولوه بها هو وأسرته، ولخص فيها جهادهم ضدّ الصليبيين، وأشاد بعدالتهم في حكمهم.

فابتدأ الكتاب بحمد الله على تولي الأمراء الزنكيين للحكم، والذي كما ذكرهم كانوا مُسوِّغاً في تحقيق العدل، بكفهم القوي عن الضعيف، وبالغ في مدحهم وثنائهم، فلا تكاد مقدمة الكتاب تخلو من كلمات المدح، وعبارات الثناء، مستخدماً فيها الكثير من التشبيهات التي تظهر فصاحته اللغوية، وطلاقته في التعبير.

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص310.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص310.

قد بين ابن الأثير المنهج في مُستَهَلِّ كتابه المنهج الذي اتبعه في تأليف كتابه الباهر مشيراً إلى أنه اعتمد على ذاكرته حيث أشار أيضاً إلى والده الذي كان له الفضل الأكبر في جمع معلومات عن الزنكيين، والذي نقل أكثر الكتاب عنه، فهو يروي له حسنات الملوك والأمراء الزنكيين وأخبارهم وأشار إلى أن سبب اختصاره للكثير من الأخبار التي لم تكن بنظره مهمة للناس في تلك المرحلة لميلهم للاختصار، ونوه أيضاً أنه لم يكن يدون ما سمعه عن والده في ذلك الحين لذلك حيث قال في ذلك "ونقلت أكثره عن والدي رحمه الله تعالى فإنه كان راوية حسناتهم. وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم. وقد فاتني كثير مما سمعته منه، لأنني جمعت هذا القدر من حفظي بعد وفاته، ولم أثبتة بقلمي في حياته"⁽¹⁾.

وأتى على ذكر ملخص بما ابتدأه وختم به كتابه الباهر، وأنه لم يذكر أحداً في الكتاب غير ملوك البيت الزنكي، وأنه تطرّق بالذكر لوفاة خليفة عباسي، واستخلاف آخر، وموت سلطان سلجوقي وولاية غيره. فكانت مقدمة كتابه الباهر كغالبية المقدمات في مؤلفاته، حيث تأسس منهجه على التمهيد لكتبه بمقدمات وافية يشرح فيها منهجه، ويبين غرضه ومقصده، ويدون فيها مصادره التي اعتمدها في تأليف الكتاب.

أمّا بالنسبة لإسلوبه في كتابة المقدمة فاستخدم فيه لغة واضحة وسهلة وكان أسلوبه فيها أسلوباً أدبياً مميزاً حيث استخدم بعض التشبيهات التي إن دلت على شيء فهي تدل على تعمقه باللغة العربية وطلاقته اللغوية فقال: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم لا بل والله ما قاس غيرهم بهم قاس الثمد إلى البحر، والمخشلب إلى الدر، والهشيم بخضرة الربيع، والأرض الجزر بنضرة الربيع الروض المريع..."⁽²⁾.

فجاءت المفردات على قدر كبير من البلاغة يبالغ فيها بمديح الأمراء الأتابكة فشبههم بالبحر بالنسبة للثمد أي للماء القليل الذي ليس له مدد⁽³⁾ ويمكن أن ينضب في أي لحظة، وبالشجر الأخضر المثمر مقارنة بالشجرة البالية التي يأخذها الحاطب كيف يشاء⁽⁴⁾ والأرض الجذبة حين وصفها بالجزر⁽⁵⁾ مقارنة بالأرض الخضراء التي تُزرع فتأتي بثمرها وعشبتها وقصد بالمخشلب أي الخرز الأبيض الذي يشبه الدر وما هو بدر⁽⁶⁾.

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص113.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص112.

(3) مصطفى، (ابراهيم)؛ الزيات، (أحمد)؛ عبد القادر، (حامد)؛ النجار، (محمد): المعجم الوسيط، مكتبة النوري، ط3، دمشق، د. ت، ج1، ص104.

(4) ابراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط، 21، ص1026.

(5) ابراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط: ج1، ص122.

(6) إبراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط، ج2، ص1026.

ومن خلال تتبع ابن الأثير في الباهر وإيراده الأشعار في كثير من المواضيع، يلاحظ الباحث ميل ابن الأثير يلاحظ الباحث ميوله الشعرية، وذوقه الأدبي الرفيع من خلال حسن اختياره للأبيات الشعرية والتي كانت تلائم الموضوع الذي يكتب عنه وكانت الأبيات ذات معاني بليغة مؤثرة وألفاظ سهلة، بالإضافة إلى حفظه العديد من عيون الشعر وشواهد، ولا يمكن للمؤرخ أن يغوص في التاريخ جيداً إلا أن يأخذ قسطاً وافراً من الأدب وفنونه، حرص ابن الأثير في الباهر على الاعتناء باللغة العربية و أدابها، مع حرصه في بعض الأبيات أن ينسبها إلى مؤلفيها، وبذلك تكون مادته التاريخية مزيجاً جميلاً متكاملأ كتبها بأجمل الأساليب الكتابية في عصره

ويلاحظ الباحث تفضيل ابن الأثير بعض الشعراء واستحسانه أشعارهم واستعانتهم بهم أمثال ابن منير و القيسراني وغيرهما الأمر الذي ستأتي الدراسة على ذكره بشكل موسع في المبحث الرابع.

والأمثلة على إيراده الأبيات الشعرية وإغنائه لمصنفه بها كان واضحاً منذ الصفحات الأولى في كتابه القارئ ففي مقدمة ابن الأثير لكتابته الباهر أنه أغنى هذه المقدمة بأبيات شعرية يمدح فيها السلطان مسعود الذي استأثر بالحكم بعد وفاة أبيه الملك السعيد فكتب أبيات يصف فيها هذه الحادثة فكتب⁽¹⁾:

وَإِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ هَم	إِذَا زَالَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهُ
نُجُومٌ سَمَاءً كُلَّمَا غَابَ كَوَكَبٌ	بَدَا كَوَكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ
أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَ وُجُوهُهُمْ	نُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزْعُ ثَاقِبُهُ
وَمَا زَالَ فِيهِمْ حَيْثُ كَانَتْ مَهَالِكُ	تَسِيرُ الْمَنَايَا حَيْثُ سَارَتْ رِكَائِبُهُ

وفي موضع آخر لجأ إلى الشعر عندما ذكر سبب تأليفه لكتابته الباهر وأنه هدية للسلطان لمح وثناء الأتابكة فكتب⁽²⁾:

لَمْ تَحْمِلِ الْأَرْضُ مَلُوكاً مِثْلَهُمْ	وَلَا أَظْلَتَهَا السَّمَاوَاتُ الْعُلَى
مَعَادَ كُلِّ رَاغِبٍ وَرَاهِبٍ	إِذَا آتَى دِيَارَهُمْ أَلْقَى الْعَصَى
لَا يَنْطِقُ الْعَوْرَاءُ فِي نَادِيهِمْ	وَلَا يَخْلُونَ إِلَى الْجَهْلِ الْحَبَى

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص111.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص113.

لا يُصْطَلَى بِنَارِهِمْ عِنْدَ اللَّقَا	و يُصْطَلَى بِنَارِهِمْ عِنْدَ الْقَرَى
هُمْ النِّجُومُ طَالِعٌ وَأَقْلَن	يَعْلُوا لَهُمْ غَرْسٌ إِذَا غَرَسَ دَوَى
هُمْ الْجِبَالُ امْتَنَعَتْ أَنْ تَرْتَقَى	هُمْ الْبُحُورُ لَيْسَ يَغْلُوهَا الْقَدَى

هذه الأبيات على ما يبدو كانت من تأليف ابن الأثير نظمها ليلبغ غايته في تأليف الكتاب والتي إن دلت على شيء فهي تدلُّ على فصاحته وطلاقة اللغوية وخاصة أنه استخدم مفردات ليس سهلة يوضح فيها طلاقته ومخزونه اللغوي الخصب والوفير .

ب- لغة الكتاب:

ارتقى ابن الأثير بأسلوبه في كتابة الباهر إلى مستوى رفيع، وأظهر مقدرة على تأدية الخبر بلغة مباشرة وبسيطة ، وبعيدة عن التكلف والزخرفة اللفظية، فصاغ مادته التاريخية بعبارات مركزة وواضحة مع حرصه الملفت على جماليات النثر في تراكيبه وألفاظه، وهو بذلك يعطي قيمة أدبية لكتابه، ويثبت أهمية الأدب في مجال الكتابة التاريخية ويظهر هذا بشكل واضح في الصورة الحية التي يقدمها عن الحادثة ، كأن القارئ يشارك في الحادثة ويشاهدها ويمكن ملاحظة ذلك من خلال الوصف الذي قدمه لبعض المعارك كحصار نور الدين للكرك⁽¹⁾ وحصاره لحارم⁽²⁾ وإبداعه في الوصف.

جاء أسلوب ابن الأثير في الكتاب جامعاً بين أسلوبين من الكتابة وهما الكتابة التاريخية والكتابة الأدبية، فكانت لغة الكتاب مرسلة وسهلة وواضحة، كما استخدم المحسنات البديعية والعبارات المسجوعة وظهر ذلك في وضوح في مقدمة كتابه .

ويلحظ القارئ لكتاب ابن الأثير أنه ابتعد فيه عن منهج أهل الحديث في رواياته من خلال عدم استخدام سلاسل الإسناد، وعدم تكرار ذكر الروايات حيث كان حريصاً على عدم الإطالة حتى لا يخرج عن القصد من موضوع الكتاب. وبمقارنة بسيطة في منهجه وأسلوب كتابته بين كتابيه الكامل و الباهر فيلاحظ الكتاب أنه كُتِبَ بأسلوب المؤرخ الذي تهمة المادة التاريخية أكثر مما تهمة البلاغة والأساليب البيانية ولكنه في كتابه الباهر تميّز منهجه بالاختصار، وقد سلف الذكر كيف أن ابن الأثير ابتعد عن منهج أهل الحديث في استخدام سلاسل الإسناد ولم يطل في أخباره، كما استخدم المحسنات اللفظية كالسجع والكناية، والأساليب البيانية، ويلاحظ القارئ أن المقدمة جاءت وفيرة بهذه الأساليب فكتبت وكأنها نص تاريخي أدبي امتازت بكثرة المحسنات البديعية والأساليب البيانية التي أوضحت براعة ابن الأثير وأسلوبه المتميز فكانت تليق بكونها مقدمة كتاب مهدي لملك من ملوك

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص286.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص251.

الدول في تلك المرحلة. فتميزت كتابته التاريخية في الباهر بالتركيز، لذا نزع للاختصار وعدم التكرار، فلا يقرأ الباحث في الباهر روايات متكررة، أو منقولة عن أكثر من راوي فاختار للحادثة رواية واحدة ثم أكملها بمعلومات من غيرها والمتعمق بدراسة مؤلفات ابن الأثير يستشف تجنبه تكرار المعلومات التي وردت بالتفصيل في الباهر، وكذلك تجنُّبه تكرار معلوماته في الباهر من حيث إحالة القارئ في كل كتاب للكتاب الآخر.

وأسلوب ابن الأثير في الكتاب أسلوب خبرياً حيث تطرَّق إلى سرد الأحداث والمعارك بلغة سلسة قريبة إلى اللغة العامة المألوفة يألفها الصغير والكبير، يخبر بها القارئ بمجريات الأحداث، ولم يُلحَظ فيه الأسلوب الإنشائي حيث أتى الكتاب خالياً من الجمل الاستفهامية وأفعال الأمر أو النهي. كما استشهد بالأبيات الشعرية والأمثال والآيات القرآنية كما سلف ذكره فكان أسلوبه في سرد الأحداث التاريخية واضحاً بعيداً عن التكلف، تسود فيه المفردات والعبارات المتداولة عند العامة، وكثر استخدامه للمحسنات البديعية ولاسيما عندما يتحدث عن رجال الدولة وفي هذا السياق كانت الأمثلة الواردة في الكتاب أمثلة كثيرة

فأمَّا السجع فأول ما يُلحَظ هو كثرة استخدامه في المقدمة والأمثلة عنه كثيرة ومنها في قوله: "فإنَّه طال ما أنعم علينا وأعطانا، ووصلنا وحبانا، وقرَّبنا واصطفانا، وإلى أعلى مراتب الكرامة أعلننا"⁽¹⁾. فجاء هنا السجع متوازٍ لأن الوزن العروضي للسجعتين واحد ولأنَّ رويُّهما واحداً أيضاً وهذا الروي هو حرف الألف في: أعطانا، أعلننا. وفي موضع آخر من الكتاب في حديثه عن فتح الشهيد زكي للرها فكتب: "فأبى الله ألاَّ ينتقم منهم بسيف الشهيد، ويجمع في جهنم بين الغائب منهم والشهيد، وجزاء بغيهم الشنيع وقتلهم الفظيع، فصبه الله عليهم عذاباً، وساقه إليهم عقاباً وضاق عليهم نفوسهم، ونكست لشدة هيبتهم رؤوسهم"⁽²⁾. كما أنَّ ابن الأثير افتتح كتابه بمقدمة مسجوعة وختمه أيضاً بخاتمة مسجوعة فقال في حديثه عن بدر الدين لؤلؤ في آخر كتابه: "قام في خدمة المولى القاهر مقاماً يحمد عليه الداني والقاصي والمطيع والعاصي والبادي والحاضر، والمنجد والغاير ولقد جاء على حين فترة من الكرام وكثرة من اللثام، فجَدَّد من أعلام السيادة ما كان دارساً وأضحك من ثغوره المروءة ما كان عابساً واختالت الدولة من حسن تدبيره اختيال العروس ورفلت من صائب آرائه في أحسن لبوس وافتخر به دهره على سائر الدهور"⁽³⁾ كما لجأ في بعض المواضع إلى المرادفات كقوله: ".....إظهاره الشكر والتناء"⁽⁴⁾. وأيضاً من الأساليب البيانية التي احتوتها المقدمة الجناس⁽¹⁾ وكان

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص110.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص189.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص189.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص111.

نوعه ناقصاً في قوله: "..... دينية ودينية"⁽²⁾. حيث أتت كلمة دنيوية مزيدة على كلمة دينية بحرف واحد، والطَّبَاقُ⁽³⁾ في قوله: "..... قاس التمد إلى البحر"⁽⁴⁾.

واستخدم التشبيهات كقوله نضرة الروض المريع والأرض الجزر⁽⁵⁾. ولابد من الإشارة أنه في بعض المواضع استخدم لغة بليغة وعميقة تظهر من خلالها براعته اللغوية وثقافته في علوم اللغة العربية تضع القارئ أمام حيرة من أمره في معرفة معناها وتضطره للجوء إلى معاجم اللغة العربية لإيجاد المعنى. وأما عن لجوئه للاستشهاد بالأبيات الشعرية والأمثال والآيات القرآنية فقد دخر الباهر بها جميعها واستخدمها في موضعها المناسب

وهو يستخدم عبارات: قيل لي، أو حدثني، أو حكى لي، أو أخبرني، وقوله قال بعض العلماء. وهذا دليل واضح على أسلوبه الخبري المعتمد في كتابه الباهر، وتغيب الأسانيد في كتابه هذا مقارنة بباقي مؤلفاته كالتالي يلاحظها القارئ في كتابه الكامل أو كتابه أسد الغابه اللذين اعتمد بهما على الأسانيد بشكل كبير إلا أن الباهر لم يأت مثل غيره، و لربما مرجع ذلك أن الكتابة التاريخية في تلك الحقبة من الزمن تميل إلى الاختصار كما سلف الذكر. فاستخدامه لصيغة المجهول في بعض روايات الباهر ربما تشعر القارئ بتردد ابن الأثير في قبول الخبر أو عدم الاطمئنان له. ويتضح أن ابن الأثير في الباهر لجأ إلى أسلوب الانتقاء فاختر الرواية التي رأى أنها الأصح، ولم يأت على ذكر روايات متعددة وذلك كي لا يشتم القارئ.

كما أتى نقد ابن الأثير في بعض المناسبات نقداً ساخراً، كنفقه لحروب المسلمين مع الفرنجة والتي استخدم فيها بعض الأمثال التي أتت معبرة بعض الشيء عن موقفه، ضارباً المثل المناسب كقوله في ذكر نزول الفرنج على دمشق وحصرها إحدى الأمثال: "السيف أصدق أنباء من الكتب"⁽⁶⁾ اهتم ابن الأثير بتعريف القارئ ببعض المواقع التي تبدو غير معروفة، وبتحديدها جغرافياً وهذا يدل على عنايته بالجغرافية التاريخية، ففي حصار حصن فنك⁽⁷⁾ عرّفه بعض الشيء بقوله: "هذا الحصن هو

(1) الجنس: في تعريفه اللغوي تشابه لفظتين مع اختلاف المعنى، يكثر استخدام الجنس في الأدب العربي على وجه الخصوص في الشعر. هو اتفاق الكلمتين في كل الحروف أو أكثرها مع الاختلاف في المعنى إبراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط، ص252.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص112.

(3) الطَّبَاقُ: أحد المحسنات البديعية المعنوية التي تركز على المعنى، وهو الجمع بين معنيين متضادين في العبارة. إبراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط، ص123.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص112.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص112.

(6) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص214.

(7) حصن فنك: حصن منبع من ديار بكر يجاوره جزيرة ابن عمر. وهي إحدى قلاع جزيرة ابن عمر ومن أمنه القلاع الكردية، التي تحكمها الأكراد البشوية. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص278.

مجاور جزيرة ابن عمر، وهو للأكراد البشوية⁽¹⁾ إلى زماننا هذا⁽²⁾ وفي ملك نور الدين لحصن أفامية كتب ابن الأثير: "وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة سار نور الدين إلى حصن أفامية، وهو للفرنج أيضاً، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال، ومن أحصن القلاع وأمنعها"⁽³⁾ يلاحظ من أسلوب ابن الأثير في كتابته أنه جمع بين الأسلوبين التاريخي والأدبي فجاءت الكتابة المرسلة السهلة والواضحة التي يتمتع بها أسلوبه واستخدم المحسنات البديعية والعبارات المسجوعة مما أعطى جمالية لأخباره وكتابته وأسلوبه جذب القارئ لإكمال القراءة.

ج- منهجه في عرض المادة العلمية:

شرع ابن الأثير في التأريخ للزنكيين بادئاً بمؤسس الدولة الزنكية قسيم الدولة آق سنقر 479-487هـ / 1086-1093م، وعلاقته بالسلطان السلجوقي ملكشاه الأول، ومن ثم ولايته على حلب وسيرته فيها وكان قد اختصر الكثير، ثم أتى على ذكر صلح قسيم الدولة مع السلطان تاج الدولة تتش⁽⁴⁾.

وضع ابن الأثير في كتابه الباهر عناوين للحوادث تُعرب عن مضمونها وفحواها، وجمع كذلك عناصر الحادثة الواحدة التي تتصل إلى عدد من السنين ووصل بين أجزائها في سنة معينة، وعندما كان يخرج عن موضع الكتاب، كان يعتمد ذكر الحادثة بعنوان "نادرة عجيبة" كالتالي أتى على ذكرها بعد حديثه عن عصيان أهل الرها واستيلاء المسلمين عليها ثانية⁽⁵⁾، فذكر بعدها فقرة بعنوان نادرة عجيبة تحدث فيها عن أن الملك نور الدين لمّا ملك الرها وغنم منها المسلمون الشيء الكثير، فأورد أنه "أرسل من غنائمها إلى الأمراء وغيرهم ما جرت به العادة، وفي جملة ما أرسل إليه عدّة من الجوّاري فحملن إلى داره، ودخل لينظر إليهنّ، وقال لمن عنده من أصحابه: مكانكم حتى أعود إليكم، فغاب عنهم قليلاً ثم خرج، وقد اغتسل وهو يضحك فلما قعد قال: قد جرى اليوم لي أعجوبة، وهي أننا لما فتحنا الرها مع الشهيد⁽⁶⁾ رحمه الله كان في جملة ما غنمت جارية مالت نفسي إليها، فعزمت على أن أبيت معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر بإعادة السبي والغنائم، وكان مهيباً مخوفاً، فلم

(1) الأكراد البشوية: قبيلة كردية تعيش على طول الشاطئ الشرقي لنهر دجلة وكانت لها قلعتها الخاصة المعروفة باسم فنك وكانت تعتبر بمثابة المركز الإداري لهم. بولادياك، (ارشاك): الأكراد من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادي وفق المصادر العربية، دار الفارابي، ط1، لبنان، 2013م، ص137.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص195.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص230.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص111.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص113.

(6) لقب عماد الدين زنكي ونور الدين محمود كلاهما تلقياً بالشهيد، على الرغم من أن نور الدين محمود لم يستشهد

والمقصود بالرواية هنا عماد الدين زنكي

أجسر على إتيانها وأطلقتها، فلما كان الآن، أرسل إلى نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية، فوطنتها خوفاً من العود"⁽¹⁾

ونذكر حادثة أخرى عنوانها باسم "نادرة عجيبة في زماننا هذا فكتب فيها:" قد علم الناس قلة الأمانة في هذه الإغصار بل عدمها، فلما أخذ الفرنج هذين المركبين، كان لوالدي فيهما تجارة مع شخصين فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل إنسان إلا اليسير وكان يحمل المتاع إلى نور الدين ويحضر التجار، فكل من اسمه على ثوب أخذه، وكان في الناس من يأخذ ما ليس له، فكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة- وكان نصرانياً- فلم يأخذ إلا ما عليه اسمه وعلامته، فذهب من ماله ومالنا كثير بهذا السبب، وكان الذي حصل له من مالنا أكثر من الذي له فلما عاد إلينا سلم الذي له إلى والدي، فامتنع من أخذه وقال خذ أنت الجميع فإنك أحوج إليه، وأنا في غنى عنه، فلم يفعل، فلما كان بعض الأيام وإذ قد جاء ذلك الغلام ومعه عدة من الأثواب وغيرها، وقال: هذا من قماشنا قد حضر اليوم، وسبب حضوره أن إنساناً من أهل تبريز كان معنا في المركب، وقد أعادوا إليه ماله، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها، فلم يسهل عليه مردها، وسأل عني وقصدي وهي معه، وحضر عندي الساعة وسلمها إلي، وقال: قد تركت طريقي لتبرأ ذمتي، وأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد، وطلب والدي الرجل، وسأله أن يقيم عندنا ليسلم إليه ما لا يتجر فيه فلم يفعل، وعاد إلى بلده وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان"⁽²⁾ ومن الواضح في ذكره لهذه الحادثة أنه شهداها وشارك بها فهو يستخدم لنا الدالة على الفاعلين بقوله "وأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد"⁽³⁾ بالإضافة إلى اعتماده أسلوب السرد فهو يذكر الحادثة كما لو أنها قصة. وهي قصة قصد منها أن يحكي على هامش ذكره الغزوة إلى بلد أنطاكية وطرابلس الشام حادثة يبين ويثبت فيها أعمال النهب والسرقة التي قام بها الفرنج آنذاك.

وكان عند خروجه عن موضوع الكتاب كما سلف ذكره يذكر الحادثة بـ "نادرة عجيبة" أو يعنونها باسم يجذب القارئ كذكره لحادثة بعنوان "حادثة تحت على العدل" فكتب فيها: "من جملة أعمال جزيرة ابن عمر، قرية تسمى العقيمة تقابل الجزيرة، يفصل بينهما دجلة، ولها بساتين كثيرة، وبعضها تمسح أرضه وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه، وبعضها مطلق منهما فالمسموح منها لا يحصل لأصحابه إلا لقدر القريب، وكان لنا بها عدة بساتين فحكى لي والدي: جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة- وأنا أتولى حينئذ ديوانها والحكم إلي فيه على ما شهود- يأمر بأن يجعل

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 213.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 299.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 111.

بساتين العقيمة كلها ممسوحة فشق ذلك عليّ لأجل أصحابها، ففيها ناس صالحون ولي بهم أنس، وهم فقراء.....⁽¹⁾ وقد يكون خروج ابن الأثير عن السياق لضرورة إكمال الصورة العامة للأحداث

ألّف ابن الأثير كتابه على أساس الموضوعات لا السنوات والدليل على ذلك أنّه مثلاً ذكر مسير قسيم الدولة مع فخر الدولة بن جهير إلى الموصل بأمر السلطان ملكشاه وكان ذلك في سنة سبع وسبعين وأربعمائة للهجرة⁽²⁾ وأعقب هذه الحادثة بذكره لحادثة ملك قسيم الدولة مدينة حلب وغيرها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة للهجرة⁽³⁾، والأمثلة على ذلك كثيرة، ذكر أيضاً تولي عماد الدين زنكي بن آق سنقر الموصل، وديار بكر والجزيرة ونصيبين سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، و أعقبها بعدة حوادث بذكره لوفاة السلطان الملك مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه سنة خمس وعشرين وخمسمائة⁽⁴⁾ فلم تكن السنة هي التي تفرض نفسها في كتابة ابن الأثير للباهر، بل إنّ الأحداث التي جرت في هذه السنة وخاصّة منها الذي يتعلق بالأمراء الأتابكة والزنكيين هي المعنية في كتابه وسنواته. فتارة تكون أحداثه متسلسلة بالسنوات وتارة أخرى كما سلف الإشارة إليه تكون السنوات غير متسلسلة فهو بذلك لا يقصد تدوين مجريات السنوات ككل لأنه لا يتبع هذا الأسلوب، بل هو يقصد الموضوعات التي تتعلق بكتابه . وفي جانب آخر يلاحظ القارئ أنّ ابن الأثير يأتي على ذكر بعض الحوادث بالشهر والسنة كذكره لمقتل قسيم الدولة آق سنقر " في جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وأربعمائة"⁽⁵⁾ وذكر وفاة أمير المؤمنين المستظهر بالله وخلافة المسترشد " في سادس عشر شهر ربيع الآخر من سنة اثنتي عشرة وخمسمائة"⁽⁶⁾ وفي ذكر ولاية البرسقي للموصل " في صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة"⁽⁷⁾ وذكر مولد المسترشد بالله في شعبان سنة ست وثمانين وأربعمائة⁽⁸⁾، والأمثلة في هذا السياق كثيرة و وفيرة في الكتاب، ومن محاسن كتاب ابن الأثير الباهر أنّه عمد على ذكر الكوارث في نهاية كل حادثة كالزلازل والغلاء والوباء وكلّها تمّ الإشارة إليها فيما سلف ذكره.

ومّا يُلاحظ أيضاً أنّ ابن الأثير اتبع أسلوب السرد في كتابته فكانت الأحداث التاريخية تأتي كما لو أنّه يسرد قصص ويقوم بتدوينها في كتاب، عرض ابن الأثير مادته التاريخية بأسلوب سهل كما يلاحظ على مادته أنّه لجأ للتراجم لشخصيات كثيرة و في أغلب الأحيان كان يعطي معلومات بسيطة عن الشخصية التي يتحدّث عنها فيكتفي بقوله: صاحب كذا، أو أمير كذا والأمثلة على ذلك

- (1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص289.
- (2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص124.
- (3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص150.
- (4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص159.
- (5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص126.
- (6) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص134.
- (7) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص137.
- (8) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص169.

كثيرة في كتابه كقوله مثلاً عند حديثه عن مقتل قسيم الدولة ذكر مقتل بوزان واكتفى بقوله بوزان صاحب حرّان (1)

وقوله أيضاً: "اجتمع ركن الدولة داود بن سقمان صاحب الحصن وغيره" (2) وأيضاً قوله: "في ذي القعدة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، قتل نصير الدين جقر بن يعقوب، نائب الشهيد بالموصل وسائر البلاد الشرقية" (3) وفي مواضع أخرى يستقيض في الحديث عن الشخصية وترجمتها مثلاً في حديثه عن المسترشد بالله حيث كتب: "كان مولده في شعبان سنة ست وثمانين وأربعمائة وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة وأشهر، وكان شهماً، شجاعاً، مقداماً، فصيحاً" (4)، وكذلك الأمر في ترجمته للملك الصالح إسماعيل فكتب: "في رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، توفي الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد عماد الدين زنكي رضي الله عنهم بمدينة حلب ولم يبلغ عشرين سنة" (5) كان يختم حديثه عن أخبار كل ملك بترجمة له، وصف فيها أخلاقه ومآثره وذكر ما استفادته الموصل في عهده و ما نهضت به، كذلك ترجم لبعض كبار رجال الدولة من الوزراء والقوَّاد، وأبرز في هذه التراجم أثر بعضهم في نشأة الدولة وارتقائها، وأثر بعضهم الآخر في إضعافها.

يستطيع الباحث أن يستشف أيضاً أنَّ ابن الأثير قد تجنَّب في كتابه التوسع في أخبار الصراع بين الزنكيين خلفاء نور الدين وبين صلاح الدين وخلفائه و لربما كان مسوَّغ ذلك أنَّ أخبار الصراع تُظهر ضعف الزنكيين أمام صلاح الدين وخلفائه وهزائمهم في حروبهم معهم لئلا يخدش كبرياء الملك القاهر عز الدين الذي ألَّف كتابه هذا له، ولم يتطرَّق في كتابه للخلاف بين نور الدين وصلاح الدين الأيوبي بشكل واضح إنَّما اكتفى بذكر الخلاف بينهما من خلال التنويه له قبل ذكره لوفاة نور الدين محمود فكتب: ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطناً وربما قصد بقوله باطناً أنَّ هذا الخلاف كان خلافاً شخصياً بينهما ولم يتخذ مجرى الاصطدام المباشر فكتب حول هذا الأمر: "في سنة سبع وستين أيضاً جرى ما أوجب نفرةً من نور الدين من صلاح الدين وكان الحادث أنَّ نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج، والنزول على الكرك ومحاصرته ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه ويجتمعا هناك على حرب الفرنج، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم، وكتب إلى نور الدين يعرِّفه أنَّ رحيله لا يتأخر، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، و أقام ينتظر ورود خبر من صلاح الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص126.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص113.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص193.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص167.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص334.

عن الوصول إليه باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها، فلم يقبل صلاح الدين عذره⁽¹⁾ ويتابع ابن الأثير في ذكره للحادثة مظهراً أن صلاح الدين عاد إلى مصر ووصله تحذير نور الدين بأخذ مصر منه فعمل على جمع وحشد الآراء ضد نور الدين و كان انحياز ابن الأثير لنور الدين واضحاً وخاصةً أنه لم يبحث في مسوِّغات التي دفعت بصلاح الدين على التأخر بإجابة نور الدين ولم يوضِّح وجهة نظر صلاح الدين في هذه الحادثة.

ومن خلال تتبع ابن الأثير في مادته العلمية يجد القارئ أنه مزج المادة التاريخية بالأدبية بالاقتصادية والاجتماعية عندما كان يتطرَّق بالحديث عن الأزمات والأوبئة وغلاء الأسعار والكوارث فاستطاع بذلك ابن الأثير أن يرسم صورة مقربة للوضع الداخلي للمجتمع الإسلامي من خلال هذه المعلومات القيِّمة والمتنوعة التي جمعها وقد وضعها في نهاية كل سنة .

وأنه قام بتعليل بعض الحوادث واعتمد في تفسيراته على عدَّة محاور منها التفسير الإسلامي والعقلي والاستدلالي للحوادث، فمثلاً فسَّر ولاية عماد الدين زنكي على الموصل سنة 521هـ/1127م⁽²⁾ تفسيراً إسلامياً بأنَّ الله عز وجل قد انتقاه واصطفاه دوناً عن أمراء تلك الحقبة جميعهم فكثيراً ما يفسر الحوادث ويعلِّق برأيه عليها فيقول بسبب كذا، ولأنَّ كذا وهذا إن دلَّ على شيء فهو يدل على استقرار الحوادث وإعمال العقل، لاستخراج تفسيرات منطقية لهذه الأحداث والأمثلة في كتابه على ذلك كثيرة فكتب في مقتل قسيم الدولة آق سنقر: "... قتل قسيم الدولة آقسنقر وبوزان صاحب حرَّان وكان سبب قتلها أن تاج الدولة تتش لم يزل يجمع العساكر بعد عودته من أذربيجان إلى الآن فكثُر جمعه وعظم حشده وسار عن دمشق نحو حلب....."⁽³⁾ واستخدم الاستدلال مع تتبع الحوادث بغية الوصول إلى حقائق العديد من الأمور ومعرفة بدء حدوثها ومسوِّغاتها فقد استدلَّ عند مقتل السلطان قلع أرسلان الذي قتل هو وأبوه وجدَّه وجد أبيه بحادثة مقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما فقال: "يذكر أهل التواريخ أنه ليس من مشهور العرب من قتل هو وأبوه وجدَّه وجدَّ أبيه، غير عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد فإنَّ عبد الله قتله الحجاج، والزبير رضي الله عنه قتل يوم الجمل، وقتل العوام وخويلد في الجاهلية وليس مشهور الترك من هو هكذا غير قلع أرسلان فقد قتله جاولي سقاو بالخابور غريقاً وهذا سليمان قتله تاج الدولة تتش كما تمَّ ذكره وأمَّا أبوه قتلتمش بن أرسلان ييغو بن سلجق فقتله صاحب مدينة استوا⁽⁴⁾ لأنه جمع خلقاً كثيراً من الأتراك وخرج عن السلطان ألب أرسلان فلقيه صاحب استوا فقاتله....."⁽⁵⁾

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص304.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص148.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص126.

(4) مدينة استوا: ناحية من نواحي نيسابور تشتمل على نواح كثيرة وقرى جمَّة. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص175.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص118.

ومن خلال استقراء منهج ابن الأثير في عرضه للمادة العلمية في كتابه الباهر يتضح استشهاده بالآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية بالكثير من مواضع الكتاب. فقد استشهد في سورة الصافات عند نزول الفرنج على دمشق وحصرها وما فعله سيف الدين حتى رحلوا عنها وهي الآية أربع والأربعون إجماعاً عن علي سرر مقللين { (1)

كما حفل الباهر بالاقتباسات الشعرية التي تنم عن قدرة بالغة في حسن توظيفها مع ما يتماشى مع الحادثة التاريخية، فقد أوجز ابن الأثير ما دار بين الزنكيين وصلاح الدين الأيوبي من حروب ببيت من الشعر لعبد الله بن المعتز ت296هـ/861م، كي لا يجرح مشاعر الملك مسعود الثاني:

فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا قَدْ سَمِعْتُ بِهِ	فَظُنُّ خَيْرًا وَ لَا تَسْأَلُ عَنِ الْخَبَرِ (2)
---	--

استخدم ابن الأثير كثيراً من الأمثال للتعقيب على حادثة معينة فعلى سبيل المثال لا الحصر عبّر ابن الأثير عن إخفاق الفرنج في الاستيلاء على دمياط 565هـ/1170م، بقوله "ذهبت النعامة تطلب القرنين فعادت بلا أذنين" (3) والحديث عن الأمثال والآيات القرآنية ستأتي الدراسة على ذكره بأمثلة أوفر في المبحث التالي.

كما أنّ ابن الأثير لم يكن مجرد ناقلٍ للأحداث التاريخية، بل اعتمد في مؤلفه على إبداء رأيه في الأحداث بالإضافة لما عرف عنه من استقراء واستدلال واستنتاج فقد نظر للأحداث التاريخية نظرة فاحصة ناقدة محلاً إياها ومبدياً رأيه بها، فمثلاً ما كتبه عن رأيه بأعمال زنكي فقال: "ومن صائب الرأي الجيد ما فعله من نقل طائفة من التركمان إلى الشام واسكنهم بولاية حلب وأمرهم بجهاد الفرنج....." (4)

والبارز في الباهر أنّ ابن الأثير قد مال فيه إلى الاختصار في ذكر الأحداث والروايات وغيرها حيث ذكر قصيدة أوردتها في الكتاب في حادثة حصار نور الدين لقلعة حارم ولكنه لم يكملها فيقول: "وهي طويلة" (5) وفي موضع آخر من الكتاب أيضاً كتب قصيدة لابن منير ولم يكملها فأنها بتعقيب بأنها طويلة (6) تشابه الأمر كذلك في الكثير من القصائد. ويمكن أن يحيل القارئ لكتاب آخر تجنباً منه للإطالة في الحديث عن حادثة ما حيث لوحظ ذلك في الكثير من المواقع كإحالاته للقارئ في الكثير من الأحداث لكتابه المستقصى في التاريخ بتكراره لبعض الجمل كقوله وقد آتينا على ذكر

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص216.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص328.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص286.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص204.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص243.

(6) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص231.

ذلك في المستقصى في التاريخ أو " على ما ذكرناه في المستقصى في التاريخ. وفي ميله للاختصار هذا سبب أورده في المقدمة التي استهل بها كتابه أنه يميل به إلى الاختصار لأن الناس في ذلك الوقت كانت تميل لذلك ولأن الاختصار كان سمة من سمات الكتابة التاريخية في عصره كما سلف ذكره. ومن المآخذ على المنهج التاريخي الذي اتبعه ابن الأثير في كتابه الباهر نجده أشاع الغموض حول بعض الحوادث، وأغفل حوادث أخرى، وأغفل أيضاً التأريخ التام لبعضها ولم يتطابق تأريخ بعض الحوادث التي وردت في الباهر مع التواريخ التي وردت في الكامل، ومن خلال منهجه العلمي الذي سار عليه وهكذا يتضح من المنهج العلمي لابن الأثير مدى سعة علمه وإطلاعه ومزجه بين المادة التاريخية والأدبية والاقتصادية كما يتجلى أيضاً الأثر الإيجابي لرحلاته التي قام بها والتي كان لها أثرها في جمعه لمادته العلمية، ويستشف القارئ في مادته العلمية حرصه في كثير من النصوص على أن يوردها بدون إسناد، حرصاً منه على الاختصار وعدم الإطالة، كما يسند بعض الأقوال إلى أهل العلم أو يكون الإسناد لأشخاص مجهولين كقوله: "ذكر أصحاب التواريخ والمعارف"⁽¹⁾ وقوله: "و حكى لي بعض الصوفية"⁽²⁾ وقوله: "حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم"⁽³⁾ فهو لم يكتف فقط بالغموض بالموارد التي استقى منها معلوماته بل أيضاً شاع الغموض حول بعض الحوادث وأغفل أيضاً التأريخ التام لبعضها ولم يذكر في بعض الأحيان مصادره الأصلية. ومن خلال ما سلف يُدرك الباحث أن السمة الأساسية التي تميّز طريقة ابن الأثير في عرض مادته التاريخية هي استخدامه مهارات أسلوبية لغاية تنظيم مادته ، ولمساعدة القارئ على الإحاطة بالموضوع دون عناء كالعناوين التي وضعها للأحداث لتعبّر عن مضمونها، وعرضه المتناسك للمعلومات وتلخيصه للخبر واختصاره له وربطه بين الموضوعات المختلفة كما أنه حاول تجنب العرض العشوائي الذي يشتهى القارئ، لذا كان اهتمامه بالسياق التاريخي للخبر واضحاً، ويمكن للباحث أن يلاحظ سمة التنظيم في كتاب ابن الأثير الباهر في عرضه موضوعات معينة، ومحاوّر معينة لم يخرج عن سياقها.

4- أهمية الكتاب:

من أهم ما يميّز الباهر أنه سلّط الضوء على الأسرة الزنكية ودورها في مقاومة الغزو الصليبي، فكان من أهم المصادر التي يستطيع القارئ من خلالها أن يستمد معلوماته عن هذه الأسرة، إضافة إلى كونه من أهم المصادر المتعلقة بعصر عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود فضلاً عن ما فيه من معلومات مهمة عن أحوال الموصل والحياة فيها ونظم الزنكيين في الحكم، كما أن الباهر يحوي روايات دقيقة خلا منها الكامل وأي مصدر آخر معاصر، فكان مصدر لجأ له العديد من

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص221.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص267.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص264.

المؤرخين المعاصرين لابن الأثير واللاحقين له مثل أبي شامة في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية حيث تتقاطع الكثير من الروايات في كتاب الروضتين مع الباهر ويتضح من قراءة الكتابين ودراستهما أنَّ أبي شامة قد اعتمد اعتماداً رئيسياً في مصنفه هذا على كتاب الباهر لابن الأثير والأمثلة على ذلك كثيرة فمن هذه الأخبار التي نقلها أبي شامة عن ابن الأثير ولاية زنكي حيث كتب أبي شامة ما كتبه ابن الأثير نقلاً نصياً كاملاً: "كان قد جرى بين شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفره، فتهدد المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة وخمسمائة، شاكياً من المسترشد بالله، وحذر السلطان جانبه، وأعلمه أنَّه قد جمع العساكر عازماً على منعه عن العراق، وقال له: تأخرت عن العراق وازداد قوة ومنعة عن البلاد فتجهز السلطان إلى العراق، فأرسل إليه الخليفة يطلب منه أن لا يأتي بغداد هذه الدفعة لخراب البلاد والغلاء الذي بها.....، ثم أرسل الخادم في عسكر إلى واسط، و بها عماد الدين زنكي، وكان قد سار من البصرة لحفظهما والدفاع عنهما، فلما وصل الخادم، أرسل إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالعودة وقاتله قتالاً شديداً، فانهزم عسكر الخادم، وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر مثلهم ⁽¹⁾ وأيضاً هناك الكثير من الأحداث التي كان اعتماد أبي شامة فيها على الباهر اعتماداً كلياً، وفي وصفه لنور الدين محمود وخصاله الحميدة استعان أيضاً بما كتبه ابن الأثير في قول العماد الدين الكاتب فيه ⁽²⁾ وهناك بعض التفاصيل التي ذكرها أبو شامة لم ترد في كتاب الباهر لابن الأثير، وربما كان غاية تأليف ابن الأثير للباهر سبباً في تجاهله لبعض التفاصيل، فكتابه كان لتمجيد الزنكيين وإظهار صورتهم الحسنة فقط وأعمالهم المهمة وإخفاء الأمور السيئة التي أظهرها أبو شامة . اعتمد أبو شامة اعتماداً كبيراً في حديثه عن تاريخ الجزيرة وحوادثها على كتاب الباهر، وابن الأثير مصدر رئيسي للحوادث التي سجلها في الخمسين سنة الأخيرة التي شملها الكتاب، أمّا حوادث السنوات التي سلفت فقد استقاها من الثقات الذين يعتمد عليهم، كما يقول. لقي كتاب ابن الأثير ترحيباً كبيراً من المؤرخين القدامى، فقد نقل منه واعتمد عليه كثيرون فبالإضافة لأبي شامة في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين، هناك ابن واصل في كتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب وفي كتاب ابن واصل هذا يُلاحظ أنَّه على الرغم من أنَّه يتحدث عن الحقبة نفسها التي كتب بها ابن الأثير في الباهر إلا أنَّ هناك اختلاف في نقله للخبر الذي نقله ابن الأثير. فمثلاً ما كتبه عن ابتداء قسيم الدولة آق سنقر للحكم ⁽³⁾ أتى ابن واصل على ذكر هذا الخبر بصيغة استيلاء الأمير قسيم الدولة آق سنقر الحاجب على مدينة حلب ⁽⁴⁾ وفي ذكره لمقتل قسيم الدولة آق سنقر أيضاً كانت الروايتان متشابهتان إلا أنَّ ابن الأثير ذكر أنَّ بوزان الذي

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص143؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص154.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص324؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص109.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص113.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص19.

رافق قسيم الدولة كان صاحب حرّان⁽¹⁾ بينما كتب ابن واصل أنّه صاحب الرها⁽²⁾ فكان هناك تقاطعات كثيرة بين ابن الأثير في الباهر وبين ابن واصل في مفرج الكروب و كلا الكتابين اتبع الأسلوب الخبري فكانت أحداثه مجموعة أخبار أتى مؤلف الكتاب على ذكرها.

كما ترجم ابن الأثير في كتابه الباهر لشخصيات مهمة في الدولة الزنكية وترجم لشخصيات ليس لها علاقة بموضوع الكتاب أمثال نظام الملك حين قال: "في عاشر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة، قتل الوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن اسحاق، كان عالماً، فقيهاً، ديناً، متواضعاً عادلاً يحب أهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم..."⁽³⁾، ومن الأمثلة أيضاً على هذه الشخصيات التي لم يكن لها علاقة بموضوع كتابه ترجمته لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان حيث كتب: "فاطمة بنت عبد الملك بنت مروان بن الحكم، وأمّها عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان - جد أمها وأبيها - وابنه يزيد وهو جد لأمها...."⁽⁴⁾ ويلاحظ في كتاب الباهر تبايناً في ترجمة ما عن الأخرى من حيث الطول والقصر وذلك يعود إلى أمرين أساسيين، أحدهما هو أهمية ومكانة صاحب الترجمة وثانيهما وفرة المادة المعتمدة في صاحب الترجمة.

ومن مزايا كتاب الباهر لابن الأثير أنّ ابن الأثير قد أمدّ الباحثين في التاريخ من خلال الكتاب بمعلومات قيّمة لم يذكرها في الكامل فهو أعطى معلومات عن مصير عماد الدين بعد مقتل والده وتنقله في خدمة أمراء الموصل، ومعلومات عن سياسته الحازمة ومعلومات مهمة عن حياة نور الدين زنكي الخاصة والعامة⁽⁵⁾ وهي معلومات لم يأت على ذكرها في الكامل بحيث أصبحت شخصية نور الدين واضحة للباحث.

وتبرز أهمية كتاب ابن الأثير الباهر أنّه من أهم المصادر التي كتبت في الحروب الصليبية، حيث مثلت الحروب الصليبية حقبة من حقب التاريخ التي تمثّل بمجملها حلقة من حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ونظراً لما تركته هذه الحروب من آثار مختلفة في تاريخ الأمة العربية الإسلامية والغرب الأوروبي، وما ترتب عليها من نتائج. اهتمّ بها المؤرخون في الشرق والغرب، وفي هذا السياق جاء الباهر زاخراً بالمعلومات المهمة عنهم فقد حظي بسمعة طيبة وكان مرجعاً أساسياً للمعلومات عن القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حيث أرّخ فيه ابن الأثير لأهم شخصيتين أساسيتين كان لهما دور كبير في مقاومة الغزو الصليبي وهما عماد الدين زنكي 521-546هـ / 1127-1146م، وولده نور الدين محمود 541-569هـ / 1146-1173م،

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 126

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، ج 1، ص 26.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 119.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 221.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 265.

ومن خلال ذكر المعلومات الخاصة بهاتين الشخصيتين ذَكَرَ العديد من الحوادث التي تتعلّق بحروبهم ضد الفرنج في بعض مدن الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، و لا يخفى القول أنّ معظم المعلومات التي قدّمها ابن الأثير عن الفرنج كانت تأتي ضمن سياق الحديث عن الغزوات والفتوحات التي قام بها كل من عماد الدين ونور الدين، وكان يفرد فقرات خاصة بالفرنج في كتابه الباهر في حال كان الحدث ذو أثر كبير على الجانب الإسلامي، وفي هذا المجال يمكن دراسة منهج ابن الأثير في الحديث عن الفرنج في كتابه الباهر فكما تمت الإشارة إليه أنّ ابن الأثير ذكر الفرنج في الباهر من خلال حديثه عن المعارك التي كانت تدور بين الطرفين الإسلامي و الفرنجي ويلاحظ القارئ في ثنايا كتابه الباهر أنّ ابن الأثير أطلق عليهم عدّة تسميات منها النصرانية ⁽¹⁾ ولكن التسمية الأساسية التي كان يذكرها في الكتاب هي الفرنج ويُلاحظُها القارئ في أغلب مواضع الكتاب كقوله: "في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، خرج ملك الألمان من بلاد الفرنج في جيوش عظيمة لا تحصى كثرة من الافرنج إلى بلاد الشام"⁽²⁾. وقوله: "وفي جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، فتح الشهيد رضي الله عنه مدينة الرها من الفرنج"⁽³⁾ وغيرها الكثير. وتبرز أهمية الباهر في ما كان يقدمه من أوضاع المسلمين في ظل الغزو الفرنجي فكتب في أحداث سنة أربع وسبعين وخمسمائة: "عمّ أكثر البلاء: العراق والموصل وديار الجزيرة وديار بكر والشام وغير ذلك من البلاد ودام إلى أن انقضى أكثر سنة خمس وسبعين وخرج الناس في سائر البلاد يستسقون فلم يسقوا....."⁽⁴⁾ وأيضاً: "أمّا الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على من فيها"⁽⁵⁾

وكتب في أوضاع دمشق عندما دخلها الفرنج: "أكثروا القتل بها والنهب والسبي، وزاد الأمر بالمسلمين بها، ... ثمّ اشتدّ البلاء على أهلها حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم ممن أخذ من سائر بلاد النصرانية....."⁽⁶⁾ حيث أشار في كتابه إلى أوضاع المسلمين في البلاد التي كانت تحت سيطرة الفرنج من قلاع وحصون ومدن وغيرها، وخاصة إذا كان هناك استعدادات عسكرية من قبل الجيش الإسلامي فكان ابن الأثير يصف الاستعدادات بدقّة لم ترد بغيره من المصادر كوصفه ذكر حصار دمشق وبعلمك من قبل زنكي⁽⁷⁾، وذكره لفتح المسلمين حصن بارين وهزيمة الفرنج فيه: "في هذه السنة سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، سار أتابك الشهيد رضي الله عنه، إلى بلاد الفرنج وأغار عليها، واجتمع ملوك الفرنج وجنودهم وفرسانهم ورجالتهم وساروا إليه فلقاتهم بالقرب من حصن بارين

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص232.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص214.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص187.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص330.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص261.

(6) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص232.

(7) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص178.

فالتقوا عنده، فجمع عماد الدين عساكره وحثَّهم على الجهاد، ضدَّ الكفرة الأوغاد، ورتب أطلابه، وحرّض أصحابه، وحزب أحزابه وناوشهم القتال وأعملوا الرماح والنبال⁽¹⁾ وفي ثنايا الباهر كما تمت الإشارة من قبل الكثير من الأمثلة التي تعزز ذلك. وفي الواقع أنَّ ابن الأثير قد أبدع في وصفه المعارك التي دارت بين الفرنج وبين الزنكيين حيث اتضح في وصفه بلاغته وفصاحته وأسلوبه الممتع في الوصف .

كانت ميول ابن الأثير في الباهر واضحة حيث حرص باستمرار على تبيان آراءه من خلال تعليقاته على بعض الحوادث، لذا من المهم أن يُكشف عن ميوله بخصوص موضوعات تاريخية أساسية كصلته في الدولة الزنكية وموقفه من صلاح الدين الأيوبي فصلته بالأسرة الزنكية أثرت كل الأثر بكتابه. حيث أحاطهم بالكثير من مظاهر العظمة والافتخار والثناء، وكان انحيازه لهم واضحاً حيث برز هذا الانحياز في كثير من المواضع ومن أبرزها موقفه من خلافهم مع صلاح الدين الأيوبي، فهو قد أغفل إنجازات صلاح الدين المهمة والتي كان لها أثر كبير سواء أثناء توليه منصب الوزارة في مصر أو أثناء توليه الحكم في الدولة الأيوبية والتي فاقت إنجازات نور الدين وعماد الدين وصفوة القول يمكن تلخيص منهج ابن الأثير بالباهر بأنه قدَّم مادة تاريخية ممزوجة بالأدب والجغرافية، عرض فيها ابن الأثير مادته بشكل منظم، فلم يكن ابن الأثير فيه مجرد ناقل للمعلومات وإنما كان ينتقي أخباره بعناية وكان يعطي رأيه فيما ينسجم مع اهتمامه، وتتوالت نواحي اهتمام ابن الأثير في كتابه الباهر مع أنَّ المادة التي قدَّمها في الكتاب تحمل الطابع السياسي إلا أنَّ قسماً من الكتاب اشتمل على نواحي اقتصادية واجتماعية وعسكرية كما سلف ذكره واشتمل معلومات مهمة عن بعض الظواهر الطبيعية والكوارث وأخبار الحروب مع الفرنج ولعلَّها أهم ما ورد في الكتاب، واهتمامه بالفتن وارتفاع الأسعار وانعكاساتها المعيشية والأزمات السياسية كان لها نصيب ممَّا ذكر فجاءت أحداث كتابه منظمة معنونة ذات ألفاظ سهلة وواضحة ومعبرة وأسلوب مبدع.

جاء كتاب ابن الأثير أبعد من حدود الكتابة في تاريخ خاص لأسرة حاكمة، حيث رسم صورة شاملة للأحداث بتفصيلاتها الدقيقة، امتدت زمنياً لتغطي قرابة مئة وثلاثين عاماً، وجغرافياً لتشمل العراق والشام ومصر، وإن كانت الأسرة الزنكية قد نالت اهتماماً خاصاً.

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص180.

الفصل الرابع

موارد ابن الأثير في كتابه الباهر في الدولة الأتابكية

1- دراسة موارد ابن الأثير في كتابه الباهر: أ- الموارد الشفوية: 1- والده

2- أخوه مجد الدين

3- أسامة بن مرشد

4- كمال الدين الشهرزوري

5- روايات لم يصرح عن مصدرها

ب- المشاهدات الشخصية

ج- الموارد التاريخية: 1- كتب تاريخ

2- وثائق رسمية

د- الموارد الدينية: 1- آيات قرآنية

هـ- الموارد الأدبية: 1- دواوين شعرية وشعراء

2- مأخذ على ابن الأثير في كتاب الباهر

تُعَدُّ دراسة الموارد إحدى أهم الأسس في دراسة التطور الفكري، فمن خلالها يتم التعريف على النتائج الفكرية المدوّن عبر العصور المختلفة، وفي بداية الحديث عن موارد ابن الأثير في كتابه الباهر، يجب التذكير في بادئ الأمر أنّ ابن الأثير ابتعد عن الإسناد من خلال اعتماده على منهج الكتابة المرسلّة نظراً لاستقرار الأسانيد من قبله، هذا لا يعني اعتماده على الروايات جزافاً، وإنما وضع لنفسه برنامجاً محدداً سار عليه في كتابه كما أنّ المرحلة التي عاصرها ابن الأثير قد عكست عزوف المؤرّخين منذ مدّة عن سلسلة الإسناد فكان هذا منهج أهل عصره من المؤرّخين حيث وصل المنهج التاريخي في تلك المرحلة إلى حالة من الثبات والاستقرار.

وفيما يتعلّق بموارد ابن الأثير في كتابه الباهر أظهرت الدراسة أنّه هيأ لكتابه موارد موثوقة، تساعده في تكوين صورة شاملة ودقيقة للدولة الزنكية، وتتباين في أهميتها ومدى اعتماده عليها، حيث استمدّ ابن الأثير مادّته من المصادر التي وصل إليها وهي متنوعة، فقد أفاد من المصادر الشفوية وشهود العيان، واعتمد أيضاً على مشاهداته واتصالاته الشخصية، وأيضاً استمدّ الكثير من معلوماته من المصادر المكتوبة سواء أكانت كتب تاريخ، أو وثائق رسمية، وجاء اعتماده عليها بدرجات متفاوتة حسب قيمتها وقيمة المعلومات التي تقدّمها ويمكن تقسيمها إلى:

أ- الموارد الشفوية:

1- والده:

اعتمد ابن الأثير بشكل كبير على الروايات الشفوية في تصنيف كتاب الباهر، من دون أن يسوق سلاسل إسناد أمام كل رواية من رواياته، ومن دون أن يصرّح بأسماء رواته، ويلاحظ القارئ لكتاب الباهر أنّ الروايات الشفوية هي المنبع الرئيسي الذي استقى منه جُلّ معلوماته في الباهر، ولكن كما سلف الذكر لم تكن سلاسل الإسناد موجودة ولم يصرّح بأسماء الرواة عدا عن ذكره أن أكثر مادته مستقاة عن والده أثير الدين حيث أوضح ذلك في مقدمة كتابه حين قال: "نقلت أكثره عن والدي رحمه الله تعالى، فإنّه كان رواية حسناتهم وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم، وقد فاتني كثير مما سمعته منه لأنني جمعت هذا القدر من حفظي بعد وفاته، ولم أثبته بقلم في حياته"⁽¹⁾ وفي قوله هذا إشارة من ابن الأثير أنّه قد فاتته تسجيل بعض الأخبار التي سمعها عن والده وربما كان سبب ذلك أنّه نسيها لأنه لم يكتبها في حياة أبيه .

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص113.

ومن رواياته عن والده ما كتبه في الحرب بين الشهيد آتابك وبين الملوك الأرمنية وملك مدينة سرجة ودارا وما إليهما فكتب: "حكى لي والدي: قال: لما انهزموا سار ركن الدولة داود من المعركة ومن معه سلم من عسكره، فقصد بلد جزيرة ابن عمر فنهبه وأخربه، وبلغ الخبر إلى آتابك فسار نحو الجزيرة....."⁽¹⁾

كتب عن والده أيضاً حادثة ذكرها في وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان فكتب: "حكى لي والدي رحمه الله تعالى - ثم إنني رأيت ماحكاه بعد ذلك مذكوراً في كتب التاريخ قال: أن السلطان ملكشاه عتب على نظام الملك في شيء فعله بعض أولاده، وقال له في جملة عتبه: ان كنت شريكي في الملك فعرفني، وإن كنت وزيرني فاسلك مايسلكه الوزراء وإلا اطبقت دواتك وعزلتك: فقال للرسول: قل للسلطان عني: إن كنت ان كنت ماتعلم أنني شريك فاعلم، واذكر ما فعلت معك حين خرج عليك اعمامك واخوتك ونازعوك في الملك وكادوا يقهرونك ، فتوليت ردهم بنفسي، وذكر له عدة مواقف جزع فيها ملكشاه وخاف"⁽¹⁾ وفي ذكره لخبر وصول عماد الدين زنكي إلى بغداد كتب ما قاله له والده: "فحكى لي والدي عن جماعة من أصحاب الشهيد ممن حضر....."⁽²⁾

وفي موضع آخر في ذكره لتولي عماد الدين زنكي للحكم بعد وفاة أبيه قسيم الدولة آق سنقر، فأورد ابن الأثير خبراً عن والده مفاده: "فحكى لي والدي قال: كنت أراه إلى جانب المولى الشهيد لايتقدم عليه أحد من الأمراء وله عقب بالموصل إلى الآن في خدمة الدولة القاهرة. فلما استقر الأمير مودود بالموصل، واتصل به الشهيد عماد الدين عرف له ذلك، مضافاً إلى منزل أبيه....."⁽³⁾ وذكر عنه أيضاً: "فحدثني والدي رحمه الله تعالى قال: كتب ملك الفرنج إلى طغتكين يقول له: أن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها فلما قتل الأمير مودود، أقطع السلطان محمد الموصل وغيرها للأمير جيوش بك....."⁽⁴⁾ وهنا يلاحظ الباحث أن ابن الأثير نقل عن والده رواية مصدرها وثيقة رسمية لأنه ذكر أن ملك الفرنج كتب لطغتكين.

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص155.

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص121.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 163.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 129.

(4) ابن الأثير : الباهر في الدولة الأتابكية، ص131.

وفي حديثه عن عماد الدين الزنكي عندما كان في البصرة وأرسل للبرسقي يعلمه بالحال ويستدعيه ليسيّر معه للموصل كتب عن والده: "فحدثني والدي فقال: حدثني جماعة ممن كان مع الشهيد، قالوا: جمع الشهيد أصحابه وقال لهم: قد ضجرنا مما نحن فيه، وتارة بالموصل وتارة ببلاد الجزيرة، وتارة بالشام فبم تشيرون أصنع؟ فقال لهلازين الدين علي بن تبتكين: وكان أوثق أصحابه عنده، فقال: يامولانا، التركمان تقول في أمثالها: 'إذا أراد الإنسان أن يضع رأسه حجراً فليكن من جبل كبير، ولكن نحن إذا كنا لابد وأن نخدم الناس فلأن نخدم السلطان أولى، فقبل رأيه'(1)

وأيضاً أورد خبراً عن أبيه يصف فيه أخلاق البرسقي وصفاته فكتب هذه الصفات في خبره عن مقتل البرسقي: "حكى لي والدي رحمه الله تعالى. قال: حكى بعض الغلمان الذين يخدمون البرسقي، قال: كان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة، وكان يتوضأ هو بنفسه ولا يستعين بأحد، قال: فرأيت به بعض ليالي الشتاء بالموصل، وقد قام من فراشه، وعليه فرجية وبر صغيرة وبيده إبريق نحاس وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به، فلما رأيت به قمته إليه لأخذ الإبريق من يده فلم يفعل، ولم يزل حتى ردني إلى مكاني، ثم توضأ ووقف يصلي. وذكر لي من أحواله الحسنة أشياء لم أطول بذكرها"(2) وهنا ذكر ابن الأثير أنه اختصر من أقوال أبيه له عن البرسقي وأن السبب في ذلك هو عدم رغبته في الإطالة بهذا الحديث.

وفي حديثه عن ملك الملك مسعود الحكم والحروب التي حدثت إلى أن تملك كتب حادثة مأخوذة عن والده قال فيها "فحكى لي والدي عن جماعة حضروا ذلك المصاف، قال: أحضر السلطان سنجر قراجة الساقى وعاتبه على فعله ووبخه، وقال له: إذا حاربني أولاد أخي فليس يبعد أن يطلبوا السلطنة، وأما أنت فما كنت تريد حتى تجمع العساكر وتوكل الناس على قتالي، أكان يصير لك من الملك أكثر من بلاد فارس وخوزستان. قال: كنت أرجو أن أظفر بك وأقتلك ويكون أولاد أخي بحكمي، أقيم من أريد وأعزل من أريد فغضب السلطان سنجر منه وأمر بقتله، فقتل، وأمر أن يشق صدره عن فؤاده فما رأى أكبر منه فألقى عليه حجراً كبيراً فلم يبعجه، فقال: من يكون هذا فؤاده يحدث نفسه بما قال(3)

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص141.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص147.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص163.

وفي ذكر خلافة المقتفي لأمر الله ورد خبر عن أبيه أيضاً: "فحكى لي والدي عنه أنه قال: لما حضرت الديوان، قيل لي تباع أمير المؤمنين، قال: فقلت أمير المؤمنين عندنا بالموصل، وقد بايعناه نحن وانتم والناس قاطبة في شرق الأرض وغربها، وقد علمتم ما قيل في من يبايع آخر، وطال الكلام وعدت إلى منزلي، فلما كان الليل جائتني امرأة عجوز سرّاً، وأبلغتني عن المقتفي لأمر الله رسالة، مضمونها العتاب على ما كان من الامتناع عن البيعة، ومعها جملة صالحة من التحف والمال، وقيل لي في أمر البيعة فقلت: إن الراشد له في أعناقنا بيعة ولايجوز النكث إلا بما يوجب خلعه، وأنا فقيه لايجوز ليفعل ماينافي الشرع"⁽¹⁾ وذكر خبراً عن والده في ذكره لحادثة حصار الروم والافرنج مدينة حلب فكتب: "فحكى لي والدي عن كمال الدين، قال: قلت للشهيد لما أرسلني: أخاف أن تخرج من أيدينا، ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها. فقال الشهيد: إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار. قال: فلما وصلت إلى بغداد و أديت الرسالة، وعدني السلطان بانقاذ العساكر، وأنا أخطب ولا أزد على الوعد، فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم، احضرت فلاناً - وهو فقيه ينوب عنه في القضاء، وكان حاضراً عند حكاية كمال الدين هذا لوالدي - قال: فقلت له: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد و الأعاجم...."⁽²⁾ وعندما كتب ابن الأثير عن حصار قلعة جعبر ذكر فيها خبراً على لسان والده فقال: "ومن أعجب موافقة الأقوال للأقدار، ما حكى لي والدي قال: أرسل الشهيد الأمير حسان إلى صاحب القلعة لمودة بينهما في معنى تسليمها إليه، وقال له: تضمن له عني الإقطاع الوافر والعطاء الكثير، فإن أجاب إلى التسليم وإلا فقل له: والله لأقيم محاصراً لك إلى أن أملكها عنوة، ثم لا أبقي عليك، ومن الذي يمنعك مني فصعد إليه حسان وأخبره برسالة أتابك، وأشار عليه بالتسليم إليه، فامتنع، فقال له فهو يقول لك، إن سلمت وإلا فعلت وصنعت ما الذي يمنعك مني، فقال: قل له، يمنعني منه الذي منعك يا حسان من الأمير بلك، فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه وكنتم عنه هذا...."⁽³⁾

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص173.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص183.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص196.

و عن نفس الحادثة أورد ابن الأثير خبراً آخر على لسان والده فقال: "حدثني والدي عن بعض خواصه، قال: أدركته وهو في السياق فحين رأيته ظن أني أريد قتله، فأشار إلي بإصبعه السبابة، فوقفت من هيئته، وقلت له يامولانا من فعل بك هذا حتى أقتله، فلم يقدر على الكلام، وختم الله بالشهادة أعماله، وأصبح معدوماً كأن لم يغن بالأمس، وزال عنه الملك، واستولى عليه الهلك...."(1)

و ذكر عنه أيضاً في الحادثة نفسها: "فإن والدي حكى لي، قال: كان حسن الصورة أسمر اللون مليح العينين، قد وخطه الشيب ، طويلاً، وليس الطويل البائن، قال: وأشبهه من رأيته به ، حفيده السعيد عز الدين أتابك مسعود بن مودود بن زنكي، إلا أن الشهيد كان أتم قامته منه، وخلف من الأولاد: سيف الدين غازي - وهو الذي ولي الملك بعده- ونور الدين محمود الملك العادل، وقطب الدين مودود أبو الملوك الآن بالموصل...."(2) وكان هذا الوصف وصفاً لعماد الدين زنكي الذي قتل في هذه الحادثة وكتب ابن الأثير على لسان أبيه بعض من سيرة عماد الدين زنكي: "حدثني والدي رضي الله عنه، قال: قدم الشهيد إلينا بجزيرة ابن عمر بعض السنين، وكان الزمان شتاء، فنزل بالقلعة ونزل العسكر في الخيام، وكان في جملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الديبسي، وهو من أكابر أمرائه ومن ذوي الرأي عنده فدخل الديبسي البلد ونزل بدار انسان يهودي وأخرجه منها واستغاث اليهودي إلى الشهيد وهو راكب، فسأل عن حاله فأخبره به، وكان الشهيد واقفاً والديبسي إلى جانبه وليس فوقه أحد، فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الديبسي نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة، فتأخر القهقري ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد، ولم تكن الأرض تحتل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين، قال: فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته، فلما رأوا كثرتهم جعلوا على الأرض تنبأً ليقوموها وينصبوا الخيام، وخرج إليها من ساعته وناهيك بهذا سياسة وإنصافاً....."(3)

وذكر ابن الأثير وصفاً للموصل قبل تولي عماد الدين زنكي حكمها على لسان أبيه فقال: "رأيت الموصل التي هي أم البلاد في أول أيام الشهيد وأكثرها خراب، فكان الخراب من محلة الطبالين إلى القلعة وإلى دوار السلطنة، وكانت العرصة ترى من قريب مسجد التركماني، وهو قريب من الطبالين، وكان الجامع العتيق أيضاً بلا عمارة البتة، وكانت جميع المحال المجاورة للسور من سائر جهاته غير

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص197

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص199.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص200.

معمورة، وكان أدنى العمارة من السور ما يكون رمية حجر وكان الناس لا يقدرّون على المشي إلى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن العمارة وأول من بنى بالقرب من دار المملكة الأمير ناصر الدين كوري بن جكرمش فإنه طلب من الشهيد إن يأذن له ليبني داراً قريباً من خدمته فأجابه إلى ذلك وأمره أن يبني بمكان يكون بينه وبين القلعة مقدار حجر المنجنيق، فبنى داره الأولى وهي اليوم مدرسة وقفها أم الملك الصالح، ثم بنى بعد ذلك داره الأخرى أقرب إلى دار المملكة....⁽¹⁾

وذكر أيضاً: "قال والدي رحمه الله: وكان مع اشتغاله بالأمر الكليات من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير وكان يقول إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً، قال: فمن ذلك أنني وصلت إلى عسكره بقلعة جعبر قبل قتله بأيام، وقصدت خيام جمال الدين الوزير فحين وصلت أدخلني إليه، فبينما أنا عنده، وهو يسألني عن طريقي، وإذ قد جاءه مملوك تركي من عند الشهيد وقال له بالأعجوبة كلاماً لا أعلمه، فقال لي جمال الدين: متى وصلت؟ فقلت الساعة، فقال: هذا عجب تجيء الساعة ويسمع أتابك بوصولك، ولا شك قد علم بك قبل وصولك إلي، وقد أرسل يقول: سله عن فنك وحصارها وأحوال الجند عليها، وما يصل لهم من الجامكيات والسلاح وجميع الأحوال. قال: فحدثته بجلية عن الحال، كأنه يشاهده فمضى وعاد، وقال: يقول لك، إن كنت تعلم أن هناك نقصاً في شيء مما يحتاج إليه المحاصر فعرفنا حتى نزله ونفعل ما يجب؟ فقلت: ليس هناك إلا ما يحب المولى وزدته شرحاً، فانظر لي هذه الهمة، وإلا فأني محل لفنك في سعة مملكته الطويلة العريضة...⁽²⁾

ويلاحظ القارئ لكتاب الباهر أن أغلب مادة ابن الأثير عن عماد الدين زنكي كانت عن والده، فأتى على ذكرها بشيء كثير من الدقة والتفصيل من حيث صفاته وأعماله ومحاسنه وحروبه وغيرها، فكتب ابن الأثير في ذلك أيضاً عن والده: "قال والدي: كنت أرى من جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الوزير في الأيام الشهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها، والمحاورة فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية، فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ وقد تمكن زين الدين بن عيسى بن بكتكين في الدولة تمكناً عظيماً، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه، فكان جمال الدين مع تمكنه وعلو محله يهمل بعض الأمور، قال فقلت يوماً: أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام الشهيدية، ما أرى منها الآن شيئاً؟ فقال لي: الآن ما عندي

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 201.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 202.

كفاية؟ فقلت: ما هذا العمل من ذلك بشيء فقال: أنت صبي غر، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان في كل زمان ما يناسبه ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوي العزم لا يتجاسر أحد على الاعتراض علي، ولا يتلون بأقوال أصحابه فحفظناه، وكان ما فعله كفاية. وأما الآن فلنا سلطاناً غير متمكن وهو محكوم عليه بهذا الذي أفعله هو الكفاية...⁽¹⁾

وفي ذكر وفاة سيف الدين غازي بن أتابك عماد الدين زنكي كتب ابن الأثير ذكر لبعض صفاته وأخلاقه وسيرته فكتب عن والده: "حكى لي والدي: أنه كان راتبه كل يوم لسماطه مائة شاة بكرة ينزل الجند في خدمته كل يوم ويأكلون الطعام، وكان له سماط آخر النهار يذبح له كل يوم ثلاثون رأساً من الغنم الجيد، سوى الخيل والبقر، وهو أول من حمل على رأسه سنجق من أصحاب الأطراف، فإنه لم يكن فيهم من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية"⁽²⁾ وفي ذكر مسير سليمان شاه إلى همذان كتب ابن الأثير: "حكى لي والدي: قال استدعاني جمال الدين الوزير بعد مسير سليمان شاه، وقال: قد استقر الأمر كيت وكيت، فتعود إلى الجزيرة وتقطع علائقك وتقضي أشغالك فإنني أريد أن أجعلك نائباً بالعراق قال: فسرني ذلك من وجهه وساءني من آخر إلا أنني لم أر من طاعته بدا، قال: ثم استدعاني بعد ذلك وقال لي: عد إلى بلدك، فإن سليمان شاه لم ينتظم حاله ففارقته وعدت"⁽³⁾

وفي ذكر شيء من سيرة الوزير جمال الدين كتب ابن الأثير على لسان والده الذي رافق الوزير جمال الدين وروى الكثير من الأخبار التي شهداها عنه فقال: "حكى لي والدي قال: كنت يوماً عنده وقد أحضر بين يديه قنذراً بخمسة دنانير، فقال: هذا كثير اشتروا لي قنذرا بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير، قال: فارجعناه غير مرة فلم يقبل"⁽⁴⁾

وحكى لي والدي: "قال: رأيت جمال الدين بالرقعة، وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيراً وطلب شيئاً وتردد إليه عدة أيام ثم انقطع فسأل عنه فقيل أنه سافر فشق ذلك عليه، ثم قال: هكذا تتصرف الأحرار عن أبواب الكلاب، وكرر ذلك غير مرة ثم سأل عنه فقيل، أنه سار نحو ماردين

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 207.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 220.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 250.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 267.

فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت وهي ظاهرة لاحتياج لتبيان فلذلك تركنا أكثرها⁽¹⁾ ويمكن في هذه الحادثة ملاحظة أن ابن الأثير علل مسوّغ اختصاره لصفات الوزير وأعماله، رغبة منه بعدم الإطالة ولأن هذه الصفات معروفة عن الوزير جمال الدين ولايوجد حاجة لتبيانها. ومن خلال ماتقدّم يستنتج القارئ أنّ روايات ابن الأثير عن والده بمجملها كانت إمّا وصفاً لشخصيات من الأسرة الزنكية، أو وصفاً لأعمالهم، ومحاسنهم، وأقوالهم، وكان وصفاً ممتعاً دقيقاً، مفصلاً لأدق التفاصيل يجعل القارئ يعود لزمن الحادثة ويعيشها.

2- أخوه مجد الدين:

وكما سلف الذكر لم يكن والد ابن الأثير هو المعني الوحيد بالموارد الشفوية فكان أخوه مجد الدين الذي تقلّد مناصب سياسية في الدولة الزنكية حيث كان وزيراً للملك الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي، والتحق بخدمة الظاهر غازي صاحب حلب، من أبرز الموارد الشفوية بعد والد ابن الأثير فيجد القارئ أنّ ابن الأثير أخذ عن رواية أخيه في ما كتب عن سيرة المولى السعيد المرحوم عز الدين فقال: "حكى عنه أخي مجد الدين رحمه الله تعالى، أنّه ركب يوماً فقال له ولمن معه: إنني هذه الليلة ما نمت إلى السحر فقالوا له و ما سبب ذلك؟ قال: كنت سمعت أن ابن فلان مريض وذكر انساناً بائعاً بالموصل فلما كان الليلة سمعت صوت مأتم فظننت أنّه توفي فضاقت صدري وكان بلغني بأنه ليس لأبويه غيره فشق ذلك علي، وقمت من الفراش إلى أطراف السطح لعلي أعلم من هو الميت فطال الأمر إلى ثلث الليل الأخير فقلت: لم أعذب نفسي فأرسلت خادماً وفتح أبواب الدار وأرسل الأجناد من يستعلم لنا من الميت فعاد وذكر أنّه شخص لم أعرفه فحينئذ نمت فاعجب لهذه الشفقة والرقّة على الرجل من الرعية ليست له صحبة ولاخدمة قال: كان رحمه الله عليه ديناً خيراً، قد ابتنى في داره مسجداً فيخرج إليه في الليل ويصلي فيه أوراذاً كانت له، ولبس فرجية كان قد أخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي ويصلي بها، وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور وكان من الصالحين"⁽²⁾ فكانت هذه الحادثة منقولة عن مجد الدين نفسه، كما اعتمد عليه ابن الأثير في ذكره لشيء من سيرة نور الدين فكتب عن أخيه، كتب: حكى لي أخي مجد الدين

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص268.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص342.

رحمة الله تعالى - وكان غاية الخبر به - قائلاً: كنت معه في بعض أسفاره، وكان له سرداد (1) بالموصل يكون معه مفاتيح داره، فبلغه أن ولد السرداد قد سرق من داره شيئاً فأرسل إلي ليلاً يأمرني أن أكتب كتاباً إلى الموصل بقطع يده، فأعدت الجواب: إنني ما أكتب هذا الكتاب الليلة وإذا اجتمعت به غداً أعرفه ما عندي في هذا فأعاد مرة ثانية وثالثة وأنا أمتنع من ذلك فاستدعاني ، فحضرت عنده فقال لي: لم لا تكتب كتاباً؟ فقلت له: عادتي معكم أنني لا أكتب إلا ماتجيزه الشريعة فقال: هذا سارق توجب الشريعة المطهرة قطع يده، فقلت له: لا قطع عليه، لأنه من غير حرز لأن المفاتيح معه. فعفا عنه (2) وفي حديثه عن حسن آراء المولى السعيد نور الدين ذكر على لسان أخيه مجد الدين أيضاً: "سمعت أخي مجد الدين رحمه الله غير مرة يقول: ليس عند هذا المولى نور الدين مثله ، والله أعلم بالمصلحة من كل ما رأيناه، ولقد رأيت كثيراً من الملوك من أهله وغيرهم ما رأيت فيهم أسرع إدراكاً ولا أهدى إلى الصواب منه في سرعة الخاطر، ولو رمت ذكر جياذ آرائه لاحتجت إلى كثير من الأوراق، لكن المقصود التنبيه من كل خلق على بعضه" (3) وفي ذكر ما قام به نور الدين في ماردین كتب ابن الأثير خبراً عن أخيه مجد الدين: "فقال أخي للسعيد نور الدين: تقدم قليلاً ليراك الناس فيتقدموا وتتشد أنفسهم، فأخذ الرمح وحمل إلى المعركة ولم يشعر أخي به إلا وقد حمل قال أخي: ولقد ندمت حيث قلت له لينتقم حيث لم ينفعني الندم فحين رآه الناس قد حمل القوا نفوسهم على العادلة فأخذوهم باليد وانهزم الباقون مصعدين في الجبل إلى الربض وحملأسرى إلى بين يدي نور الدين ، فرأى فيهم أميراً من أعيان العسكر وهو مكشوف الرأس فقام إليه واعتقه وأخذ شيئاً كان عل رأسه فألبسه إياه بيده وأقعده إلى جانبه وأحسن إلى المأسورين جميعهم ووعدهم الإطلاق إذا فرغوا من أمر ماردین" (4)

(1) السرداد: كلمة أعجمية تعني رئيس الجند أو قائدهم. ابراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط، ص133.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص358.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص361.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص353.

وكتب عنه أيضاً في ذكر ملك السعيد نور الدين للحكم: "أرسل إلى أخي مجد الدين رحمه الله مع خادم لوالده وهو أمين الدين يمن، يطلب منه ن يشير على مجاهد الدين بتخليف الناس له وترك التواني فيه ووعدته الزيادة والاقطاع وتمليك القرايا وأرسل إليه معه خاتماً فرد الخاتم وقال: خاتم المولى إنما يعطى على بلاد وأما هذا الأمر اليسير فهو أحقر من أن يؤخذ عليه خاتمه وكان أخي هو الذي يصدر عن رأيه على ماشاهده الناس وأما مارسمت به فأنا مشدود الوسط فيه ولا يشكرني المولى على هذا فإنني أفعله خدمة لوالدك الذي أنا في خدمته إذ هو هكذا يريد"⁽¹⁾

وفي نفس الخبر أورد ابن الأثير على لسان مجد الدين: "فقال له أخي: أنت تفعل هذا جميعه بنفسك وبالذولة، معك ولو شئت لم يكن منه شيء والرأي أن تأمر بإحضار الأمراء وأرباب المناصب والمقدمين وأعيان البلد وتحلفهم لوالده كما يريد فإذا فعلت هذا حينئذ يندم شرف الدين وماعسى أن يفعل وإن يفعل وإن بدا منه ما يخالف هذا أخذناه قهراً ووكلنا به ومهما الأمر على هذه الحال بغير يمين لنور الدين وحلفوا بالنسخ التي كتبها أخي لهم وحلف مشايخ المحال وعرفاء الأسواق فسمع من جمعهم شرف الدين فخافوا وتفرقوا عنه"⁽²⁾

3 - أسامة بن مرشد:

من موارد ابن الأثير الشفوية في كتابه الباهر في الدولة الأتابكية أسامة بن مرشد وهو أسامة بن منقذ، أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكمالي ولد بقلعة شيزر سنة 488هـ/1059م، كان بطلاً شجاعاً مقداماً فاضلاً، وهو من الأمراء الفضلاء، الأدباء الشعراء الفرسان توفي سنة 584هـ/1188م، دفن شرق جبل قاسيون⁽³⁾ نقل عنه ابن الأثير

ففي حديثه عن ملك نور الدين لحصن شيزر كتب: " ما حُدِّثت به عن مؤيد الدولة أسامة بن مرشد قال: "كنت من الشجاعة والإقدام، فأخبرني أن بأرملة يقاربها، أسداً ضارياً قال: فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لأقتله، ولم أعلم أحداً من الناس لئلا أمنع من ذلك، فلما قربت

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص345.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص346.

(3) ابن العديم: بغية الطلب، ج1، ص478. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص195؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج18، ص553؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص405.

من الأسد، نزلت عن فرسي وربطته ومشيت نحوه، فلما رأي قصدي ووثب علي، فضربته بالسيف على رأسه فانفلق ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدت إلى شيزر ودخلت على والدتي وألقيت الرأس بين يديها وحدثتها الحال فقالت: يا بني تجهز للخروج من شيزر فوالله لا يمكنك عمك من المقام ولا أحداً من إخوتك وأنتم على هذه الأحوال من الإقدام والجرأة فلما كان الغد وإذا قد أمر عمي بإخراجنا من عنده والزمنا به إلزاماً لامهلة فيه فنفرقنا في البلاد فقصدوا الملك العادل نور الدين وشكوا إليه ما ألقوا من عمهم فلم يمكنه قصده والأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى وطنهم لاشتغاله بجهاد الكفار ولخوفه من أن يسلم شيزر إلى الفرنج وبقي في نفسه منه أثر مراسلة الفرنج فاشتد ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة فلما خربت القلعة بالزلزلة لم يسلم منها أحد كان في الحصن فبادر إليها وملكها وأضافها إلى بلاده وعمرها وعمر أسوارها وأعادها كأن لم تخرب وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة وكل ماخر ببالشام بهذه الزلزلة فعادت البلاد أحسن مما كانت⁽¹⁾.

4- بهاء الدين بن الشكري:

ومن الموارد التي صرح بها ابن الأثير في كتابه الباهر بهاء الدين بن الشكري فأورد خبراً عنه في ذكر شيء من سيرة الملك نور الدين محمود كتب ابن الأثير على لسان بهاء الدين بن الشكري: "وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن الشكري رحمه الله تعالى وكان خصيصاً لخدمته قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه انبساط قال: كنت معه يوماً في الميدان بالرها نسير والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا ظلنا فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا فأجرى فرسه وهو يتلفت وراءه فقال لي: اتدري لأي شيء أجزى فرسي والتفت ورأيت؟ قلت: لا، قال: قد شبعت مانحن فيه بالدنيا تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها وكان رحمه الله يصلي كثيراً من الليل ويدعو ويستغفر ويقرأ ولا يزال كذلك إلى أن يركب، وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة وليس عنده تعصب بل الانصاف سجيته في كل شيء وسمع الحديث واسمعه طلباً للأجر وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك أتباع سنة العدل والانصاف وترك المحرمات من المأكَل والملبس وغير ذلك فانهم كانوا قبله كالجاهلية"⁽²⁾

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 247.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 313.

5- روايات لم يصرح عن مصدرها:

يلاحظ المتمعن لكتاب ابن الأثير أنه اعتمد في الكثير من المواضع على الروايات الشفوية لكن يؤخذ عليه أنه لم يصرح عن هذه الموارد و ربما تعمّد عدم الإفصاح عنها، والملفت للنظر أيضاً أنّ الموارد الشفوية التي صرح بها قليلة جداً باستثناء أبيه وأخيه مجد الدين، والأمثلة على هذا كثيرة فمنها على سبيل المثال حين كتب عن عدل الملك نور الدين كتب فكتب ابن الأثير "وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال فرأى فيها مالا أذكره فسأل عنه فقيل: ان القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا فقال أنّ هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه فأرسله متولي الخزانة مرة أخرى وقال: إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني، أنه له، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب، وقال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه، فذكروا له قول كمال الدين فردّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين: أنت تقدر على حمل هذا المال أمّا أنا فرقتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى، يعاد قولاً واحداً فأعاده"⁽¹⁾

واكتفى بهذا الذكر ولم يوضح من هي الشخصية التي يثق بها وأخذ عنها وفي مواضع أخرى من الكتاب. "⁽²⁾ وقوله: "حكي لي أنّ إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر الزهد والنسك وقد كثر أتباعه أظهر شيئاً من التشبيه فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفحه وظيف به في البلد جميعه ونودي عليه: هذا جزاء من أظهر في الدين البدع ثم نفاه من دمشق فسار عنها قاصداً حران وأقام بها إلى أن مات ويسوق الله القصار الأعمار إلى البلاد الوخمة"⁽³⁾

وفي ذكره لحادثة فتح عماد الدين زنكي للرها كتب ابن الأثير خبراً لم يكن واضحاً في ذكر مورده فذكر: "حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي وكان من العلماء العاملين، والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يوم ذلك ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور عنده من الارتياح ما لم يروه أبداً فلما قعد معهم قال لهم: حدثني بعض أخواننا أن أتابك زنكي فتح مدينة الرها وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا ثم قال: ما يضرك يا زنكي ما فعلت بعد

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص315.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص311.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص323.

اليوم فكان يوم الفتح ثم إن نفرا من الأجناد حضروا عند الشيخ وقالوا: منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح، وهو ينكر حضوره وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً⁽¹⁾

وفي نفس الحادثة ذكر ابن الأثير خبراً أيضاً قال فيه: حكى لي أيضاً بعض العلماء بالأخبار والأنساب وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها وكان بها بعض العلماء الصالحين من المغاربة من المسلمين ذكر اسمه وأنسيته وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرها قد سير هذا ملك الفرنج جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس وهو شبه النائم فأيقظه الملك وقال له: يافقيه قد غل أصحابنا بالمسلمين كيت كيت، أين كان محمد عن نصرهم؟ فقال: كان قد حضر فتح الرها فتضاحك من عنده من الفرنج فقال لهم الملك لاتضحكوا فوالله ما قال عن غير علم واشتد هذا على الملك فلم يمض غير قليل⁽²⁾ في هذه الحادثة وعلى الرغم تأكيد ابن الأثير أن العلماء الذين أخذ عن روايتهم هم أهل للثقة وأنهم أعلم من رأى بهذا العلم إلا أنه لم يقم بذكر أسمائهم.

وفي حديثه عن سيرة عماد الدين زنكي بعد أن أورد خبر مقتله كتب رواية لم يصرح عن مصدرها بصيغة حكي لي فكتب: "حكي لي أنه ركب يوماً فعثرت به دابته فكاد يسقط عنها فاستدعى أميراً كان معه اسمه بليمان فقال له كلاماً لم يفهمه بليمان، ولم يتجاسر على أن يستقهم منه، فعاد عنه إلى بيتهفودع أهله عازماً على الهرب فقالت له زوجته: ماذنبك وما الذي حملك على هذا الهرب؟ فنذكر لها الحال فقالت له: إن نصير الدين له بك عناية فأذكر له قصتك وأفعل ما يأمر بك به فقال: أخاف أن يمنعني عن الهرب وأهلك فلم تزل زوجته تراجع وتقوي عزمه على القول لنصير الدين فرجع إلى قولها وقصد نصير الدين وعرفه حاله فضحك وقال: خذ هذه صرة الدنانير وأحملها إليه فهي التي أراد⁽³⁾

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 191.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 192.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 206.

والأمثلة على أخباره التي لم يصرح عن مصدرها في كتاب الباهر كثيرة جداً، فجاء أيضاً في ذكره لفاطمة بنت عبد الملك خبراً لم يورد مصدره فكتب عنها قائلاً: "قد ذكر أصحاب التواريخ والمعارف، أن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان بن الحكم وأمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان جد أمها وأبيها وإبنه يزيد وهو جدها لأمها ومعاوية بن يزيد وهو خالها ومروان بن الحكم وهو جدها لأبيها....."⁽¹⁾ وهنا أتى الخبر عن ذكر نسب فاطمة بنت عبد الملك بالتفصيل دون معرفة من هم أصحاب التواريخ والمعارف اللذين أخذ عنهم ابن الأثير نسبها .

و كتب أيضاً في ذكره للزلزال الذي جرى في الشام ونواحيها سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة: "قد بلغني من كثرة الهلكى، أن بعض المعلمين بحماة ذكر أنه فارق المكتب لمهم عرض له، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور وسقط المكتب على الصبيان جميعهم، قال المعلم فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب، وأشبه هذه الحكاية من الأخبار الدالة على أن الهلكى كثيرة جداً"⁽²⁾

وفي ذكر بعض الأخبار عن الوزير جمال الدين بعد وفاته كتب: "وحكى لي بعض الصوفية، ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ في الموصل، قال: أحضرني الشيخ وقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير، وهو بظاهر الموصل واقعد هناك، وإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن احضر عندك، ففعلت، وإذ قد أقبل جمع كثيراً من الحمالين يحملون أحمالاً من النصافي والخام، وإذا جاء نائب جمال الدين مع الشيخ، ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدد كثير من الجمال، فقال لي: تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة، فتوصل هذه الرزمة، وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا حضر لك فلاناً العربي توصل إليه هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه، فإذا أوصلك إلى فلان العربي توصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب، وهكذا إلى المدينة على ساكنها السلام"⁽³⁾ يصر ابن الأثير على التكتّم عن بعض مصادره في هذه الرواية بعدم ذكره للصوفية الذين أخذ عنهم.

(1) ابن الأثير : الباهر في الدولة الأتابكية ، ص221

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص243.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص268.

وفي ذكره لأمثلة عن أعمال نور الدين محمود كتب: "بلغني من عارف بأعمال دمشق، ان وقوف نور الدين في وقتنا هذا وهو سنة ثمان وستمئة كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها ملك غير صحيح شرعي ظاهراً وباطناً فإنه وقف ما انتقل إليه وورث ثمنه أو من ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه"⁽¹⁾

ومن خلال التمعن في قراءة الباهر يلاحظ الباحث أن الكتاب يحتوي على الكثير من الأخبار التي لم يصرح ابن الأثير عن مصدره فيها، فهو تكتم على الكثير من موارده ولم تعرف الغاية الدقيقة من هذا التكتم هل لأن ابن الأثير أراد الاختصار وعدم التوسع في تعريف موارده؟ أم أنه أخفى هذه المصادر لغاية أخرى عن القارئ؟

مما سلف يستنتج القارئ أن ابن الأثير استطاع بإسلوبه المتميز أن يخفي مصادره عن القارئ حيث استخدم مصطلحات أهل الحديث في سرد رواياته وأخباره كقوله: "حدثني"⁽²⁾، "بلغني"⁽³⁾ ومن جانب آخر هناك روايات كتب ابن الأثير عن مصدرها فمنها ما نقله عن الطبيب الرحبي⁽⁴⁾ فكتب في ذكره لوفاة الملك نور الدين: "حكى لي طبيب دمشقي يعرف بالرحبي - وهو من حدّاق الأطباء وذكر الخبر عنه قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق - وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته، فكان يخلو فيه للتعب في أكثر أوقاته فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه، فلما دخلنا إليه ورأينا ما به، قلت له: كان ينبغي أن تنتقل عن أن تنتقل عن هذا الموضع إلى مكان فسيح فله أثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء، ومات عن قريب رضي الله عنه"⁽⁵⁾

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص322.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص311.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص243.

(4) الطبيب الرحبي: أبو الحسن علي بن يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي، ولد 583هـ/1187م، حكيم، إمام، عالم، كان مولده في دمشق، توفي شرف الدين بن الرحبي في دمشق ودفن في جبل قاسيون، وكانت وفاته في الليلة التي صباحها يوم الجمعة حادي عشر المحرم، ومن كتبه كتاب في خلق الإنسان وهيئة أعضائه ومنفعتاتها. لم يسبق إلى مثله، وكتاب اختصار كتاب المسائل لحنين بن اسحاق، وتهذيب شرح ابن الطيب لكتاب =الفصول لسقراط. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1، ص320. الصفي: الوافي بالوفيات، ج22، ص419.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص308.

ومن خلال تتبع موارد ابن الأثير الشفوية يلفت نظر الباحث في كتابه الغموض الذي كان واضحاً، فهو لم يُشر بوضوح سوى لوالده وأخيه، فيلاحظ أنه يكتب روايات أخذها عن طبيب أو عن شيخ أو عن بعض الصوفية، كقوله: "حكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ النسائي" (1)، فهو هنا أتى على ذكر النسائي وعرفه ولم يأت على ذكر الصوفية الذي كان يرافق النسائي، وفي الواقع هناك الكثير من هذه الأمثلة التي تثير القارئ وتجعله يطرح تساؤلات كثيرة حول مسوغات هذا الغموض في ما تبقى من رواياته الشفوية . علاوة على ذلك كتب في مواضع أخرى أنه نقل عن من يثق به دون التعريف بشخصية هذا الشخص كقوله: "وحكى له من أثق به: أنه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى فيها مالاً أنكره فسأله عنه فقيل: أن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا" (2).

لم يعرف القارئ في هذه الحادثة ما إذا كان هذا الراوي أهلاً للثقة التي منحه إيّاها ابن الأثير أم لا.

حدّثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون (3). ابنة معين الدين أنر (4). لم يوضح من هو الصديق لكن كما سلف أشار للشخصية البارزة وأغفل الراوي الحقيقي، وأمّا في ذكره لولاية الصالح إسماعيل فلجأ للنقل عن شخصية كتب عنها: "حكى لي البقة قتلغ الكمال (5)، قال لمّا

(1) النسائي: قصد به عمر النسائي شيخ الشيوخ في مدينة الموصل ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص315؛ أبي شامة: الروضتين في تاريخ الدولتين، ج1، ص149.

(2) ابن لأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص315.

(3) الخاتون: هي عصمة الدين خاتون، ابنة معين الدين أنر حاكم دمشق وزوجة نور الدين محمود بن زنكي والتي تزوجها صلاح الدين الأيوبي بعد وفاة نور الدين، في صفر تزوج صلاح الدين بالست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر وكانت زوجة الملك نور الدين وولي تزويجها أخوها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، ثم ذكر ابن كثير محبة صلاح الدين لها، وأنه كان يكتب لها أثناء مرضه في حرّان كل يوم كتاباً طويلاً. ولها مدرسة بدمشق اسمها المدرسة الخاتونية البرانية. توفيت سنة 581هـ/1186م. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص150؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ص285؛ النعماني: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص217.

(4) معين الدين أنر: مقدم عسكر دمشق ومدير الدولة، أمير دمشق وكان مملوكاً في جيش ظهير الدين طغتكين مؤسس الأسرة البورية. معين الدين الطغتكيني، أمير، رئيس شجاع. كان حسن السيرة اشتهر بالشجاعة ومجاهدة الصليبيين، وقد ضم جهوده إلى جهود نور الدين محمود. توفي بمرض في كبده ودفن في إيوان الدار الأتابكية ثم نقلت رفاته إلى المدرسة التي عمّرها. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج20، ص229.

(5) البقة قتلغ الكمال: لم يتم العثور على ترجمة لهذه الشخصية .

توفي نور الدين قال صاحبي كمال الدين (محمد الشهرزوري) للأمراء ومنهم شمس الدين بن المقدم وحسام الدين بن عيسى الجراحي وغيرهما من أكابر الأمراء....." (1) ،

والملفت للنظر في أسلوب ابن الأثير أنه كان يثق بمكانته بين مؤرخي عصره للدرجة التي تجعله يأخذ في مواضع عدّة من الكتاب أخبار عن أشخاص يكتفي هو بذكره أنه يثق بهم، أو أنهم من أصحابه أو ممن يعرف صلاحهم دون أن يصريح عنهم (2). ربما لم يكن هذا مقصوداً منه أي أن غايته لم تكن عدم الإفصاح عن موارده الشفوية، وربما كانت الغاية أنه لا يريد الإطالة وأنه بظنه ينقل عن مصادر يثق هو بها وأنه مدرك لمكانته بين مؤرخي عصره الأمر الذي سيجعلهم حتماً يثقون بما يكتب خاصة أنه بالعودة للعديد من مؤرخي عصره ممن كتب في نفس المجال والمرحلة التاريخية يُلاحظ الباحث أنهم فعلاً نقلوا عنه حرفياً دون الشك بمادته كأبي شامة مثلاً في كتابه تاريخ الروضتين وغيره.... فكان يكتفي بتقييمه هو للشخصية التي يأخذ عنها وكان ذلك واضحاً عندما كتب: حكى لي أيضاً بعض العلماء بالأخبار والأنساب - وهو أعلم من رأيت بها - (3)، يُلاحظ وضعه لملاحظة بين معترضتين وجهة نظره بالشخصية التي أخذ عنها بأنها أعلم من رأى بعلم الأخبار والأنساب .

وبهذا إضاءة شاملة ومفصلة بعض الشيء عن روايات ابن الأثير الشفوية والموارد التي استقى هذه الروايات منها.

ب-المشاهدات الشخصية:

لاشك في أن أكثر ما يدعم المؤرخ في كتاباته هي معاصرته للأحداث التي يؤرخ عنها، وهذا ما أعطى ابن الأثير في كتاب الباهر ثقة مؤرخي عصره وما لحقه من مؤرخين، فهو عاصر أحداث كثيرة في عصره وفي عصر الزنكيين، وكان في بعض الأحيان جزء من هذه الأحداث فأغنى كتابه الباهر بمجموعة لا بأس بها من مشاهداته الشخصية أعطت الكتاب قيمة أكبر ومصادقية

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 309.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 191.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 192.

بعد دراسة روايات ابن الأثير الشفوية وموارده بها لأبَد من دراسة الأحداث التي حضرها وكان بها شاهد عيان، والأمثلة عن هذا كثيرة كونه عاصر المرحلة التي كتب عنها وكان على احتكاك مباشر بقاتتها ورجالها، فاستعان ابن الأثير في كتابه الباهر بما شهده وحضره من أحداث تدعم موضوع كتابه فكان شاهد عيان لكثير من المواقع العمرانية داخل مدينة الموصل والأحداث والمعارك ولهذه المعلومات أهمية خاصة كونه قد شاهدها وعاينها بنفسه ومن الأحداث التي شهدها كانت أحداث سنة 574هـ/1178م، حين وصف الغلاء الذي عمَّ أكثر البلاد، وكتب عن مدرسة قصدها فقال: "ومن عجب ما رأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة، وقد قصدت مدرسة بها أسمع على مدرستها شيئاً من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما أنا جالس عند فقيه في بيته أنتظر مدرستها، وإذا قد أقبل إنسان تركماني قد أثر عليه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر، فبكى وشكا الجوع، فأرسلت من اشتري له خبزاً فتأخَّر إحضاره لعدمه وهو يبكي ويتمرغ على الأرض فتغميمت السماء، وجاءت تنقط المطر متفرقة، وضج الناس ثم جاء فأكل ذلك التركماني وأخذ الباقي معه ومشى واشتد المطر ودام من تلك الساعة فرخصت الأسعار ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير وكان مرض الناس شيئاً واحداً وهو برسام فمات فيه من كل بلد أمم لا يحصون كثرة ولقي الناس منه ما أعجزهم حمله ثم ان الله تعالى رفعه عنهم في سنة ست وسبعين وخمسائة وقد ضعزع العالم"⁽¹⁾. وكتب ابن الأثير في خبر آخر كان عنوانه. وأما حسن عهده ومراعاته لحقوق خدمه ومماليكه في حياته: "فأنا أذكر ما رأيته منه فمن ذلك أنَّ أخي مجد الدين - رحمه الله - توفي سلخ ذي الحجة من سنة ست وستمائة، فأرسل المولى المرحوم نور الدين - رضي الله عنه - إليَّ ذلك اليوم عدة مرات يقول: لا تخرجه إلى الجامع للصلاة عليه حتَّى أقول لك، فإنني أريد أصلي عليه - وكان الزمان صيفاً - وكان رضي الله عنه ذلك اليوم غير طيب النفس وهو مدعوك البدن - فلما كان العصر وفتّر الحر - أرسل إليَّ يأمرني بحمله إلى الجامع، وانحدر هو فسبقنا، فلمَّا رأى الجنازة، بلغني عنه أنه بكى كثيراً وأظهر التأسف، ولمَّا قصدنا خدمته بعد ذلك أظهر لنا من الهم بسببه شيئاً كثيراً وأظهر التأسف ولما قصدنا خدمته بعد ذلك أظهر لنا من الهم بسببه شيئاً كثيراً وحملنا له ماجرت العادة وفيه سجادة للصلاة فردّه وسألني عن شيء كان بلائه بنفسه فأومأت إلى السجادة فمد يده وأخذها حدث هذا

(1) ابن لأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص330.

جميعه وهو شديد الوعك ولم يزل بعد ذلك يزداد مرضاً إلى أن توفي بعده بسبعة أشهر رضي الله عنه (1).

وهذا الخبر بيّن أن ابن الأثير كان شاهد عيان لوفاة أخيه وللجامع الذي تمّ الصلاة فيه عليه، ويوضّح مكانة أخيه لدى نور الدين زنكي حيث أمر أن لا يدفن قبل أن يحضر ويصلّ عليه.

وكتب في ذكره لوفاه الوزير جمال الدين يصف أعماله: "ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعاً، أنّه بنى سوراً على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فإنّها كانت بغير سور تنهبها الأعراب، وكان أهلها في ضنك وضّرّ معهم، رأيت بالمدينة إنساناً يصلي الجمعة، فلما فرغ ترّحم على جمال الدين ودعا له، فسألناه عن سبب ذلك، فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له، لأننا كنا في ضّرّ وضيق، ونكد عيش مع العرب، لا يتركون لأحدنا ما يوارى عورته، ولا ما يشبع جوعته، فبنى علينا سوراً احتميناً به ممن يريدنا بسوء فاستغنيا فكيف لاتدعو له وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته: اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن علي بن أبي منصور فلو لم يكن له إلا هذه المكّمة لكفاه فخراً فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها" (2) وكتب أيضاً: "سمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء قال: كان له كل يوم مائة دينار يتصدق بها على باب داره" (3).

ومن أبنيته العجيبة التي لم يرَ الناس مثلاً، الجسر الذي بناه على الدجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس، إلّا أنّه لم يفرغ لأتّه قبض قبل فراغه وبنى أيضاً جسراً على نهر الياريار عند الجزيرة أيضاً (4) وفي ذكره لملك نور الدين حصن شيزر كتب يصف الحصن: "هذا الحصن قريب من حماة، بينهما نحو نصف نهار، وهو من أمنع القلاع وأحصنها، على حجر عالٍ له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 361.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 266.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 266.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 267.

مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي مرهف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي⁽¹⁾

وفي ذكره لوفاة صلاح الدين الأيوبي و المولى عز الدين: "توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب في السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة بدمشق. فلما وصل خبر وفاته إلى الموصل، إلى المولى المرحوم عز الدين. جمع من يرجع إلى رأيه واستشارهم في الذي يفعله، فأشار أخي مجد الدين أبو السعادات رحمة الله عليه، بالإسراع في الحركة وقصد البلاد الجزرية فإنها لا مانع لها منه.⁽²⁾ وفي ذكره لشيء من سيرة عز الدين كتب: ".... فنصبت خيمة أخي بزواية الميدان من داخله، ولم يدخل الموصل، فخرجت أنا إليه أبصره، فركب المرحوم عز الدين رضي الله عنه فرأى الخيمة، فاستدعى أخي وقال له: أرى خيمتك هنا؟ قال: لأنك رسمت أن لا يدخل أحد قال: إلا أنت، فإن والدك آثر الدين له مدة ما رآك ، ولا شك أنه اشتاكك.....⁽³⁾

وكتب حادثة جرت معه لجأ فيها للطبيب في بيمارستان بناه نور الدين محمود: "قدمت من زيارة من بيت المقدس -بعد أن فتحه المسلمون- مريضاً، فسألت عن طبيب فدلوني على مغربي فأتيته ووصفت له مرضي، فوصف لي وصفة لم يرضني قوله، فعاودته القول فتركني ومضى، فأنفست نفسي وضاقَت الدنيا في عيني، وعزمت على أن لا أعالج نفسي إلا بما تنتهي إليه معرفتي، واشتدَّ مرضي لما نالني من الغيظ، فلما كان الغد، قوي عزمي على قصد طبيب يعالجني، فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب، فدللت على هذا البيمارستان، فأتيته فيه وهو يكتب نسخاً للمرضى الذين به فلما رأيته قد قاربته أقبل على بوجه منبسط وسايلني عن حالتي فوصفته له فكتب لي نسخة وقال لي: يحمل غلامك مافي هذه النسخة فقلت لأحاجة بي إلى ذلك فقد أغناني الله عن مزاحمة الفقراء فقال: يامولاي لا أشك في أنك في غنى عن هذا ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وأنعامه⁽⁴⁾.

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 243.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 338.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 341.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 320.

وفي ذكره لنادره غريبة بعد الحديث عن غزوة إلى أنطاكية وطرابلس والشام كتب: " قد علم الناس قلة الأمانة في هذه الأمصار بل عدمها فلما أخذ الفرنج هذين المركبين، كان لوالدي فيهما تجارة مع شخصين فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إل كل إنسان إلا اليسير⁽¹⁾

ج- الموارد التاريخية:

أ- كتب التاريخ:

اعتمد ابن الأثير في تصنيف كتابه الباهر على عدد من المؤلفات فنلاحظ أنه يصرّح أحياناً عن اسم المؤلف والكتاب، وأحياناً يكتفي باسم المؤلف فقط، ومن موارده التاريخية التي أخذ عنها في الباهر تمّ ترتيبها حسب أهميتها:

- كمال الدين بن العديم (660هـ/1262م):

هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، يعرف بابن العديم العقيلي ويكنى بأبا القاسم ويلقب بكمال الدين

ولد في مدينة حلب سنة 588هـ/1192م⁽²⁾. كان سليل أسرة عربية مرموقة جداً في حلب عرفت باسم آل بني جرادة، ترك ابن العديم مؤلفات عديدة منها كتاب زبدة الحلب في تاريخ حلب، وبغية الطلب في تاريخ حلب، وكتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجزي عن أبي العلاء المعري، وكتاب الدراري في معرفة الزراري⁽³⁾.

أخذ ابن الأثير عن كمال الدين في كتابه الباهر فابن العديم كان مؤرخاً محدثاً من الكتاب وكان له رحلات كثيرة في طلب العلم وأهلاً للثقة فأخذ عنه ابن الأثير مشيراً لذلك بوضوح في ذكره لخبر الوقعة التي جرت في حرب قلعة حارم بقوله: "... ومن عجائب الاتفاق ما حكاها كمال

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص299.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7، ص183؛ الحموي: إرشاد الأريب في معرفة الأديب (معجم الأدباء)، ج5، ص2068؛ الحنبلي: شذرات الذهب، ج5، ص303؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج3، ص126؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص249؛ الزركلي: الأعلام، ج5، ص40.
(3) الحموي: إرشاد الأريب (معجم الأدباء)، ج5، ص2068. الزركلي: الأعلام، ج5، ص40.

الدين بن العديم في كتاب أخبار حلب أن الزكي أحمد بن مسعود الموصللي المقرئ أخبرني، قال: كنت أُلِم بعلم الدين سليمان بن جندر، قال: فاتفقنا أن خرجت معه إلى حرب حارم في سنة تسع وخمسين وخمسمائة وجلست معه تحت شجرة هناك ومجد الدين أبو بكر بن الداية وصلاح الدين يوسف بن أيوب تحت هذه الشجرة نتحدث ونور الدين الشهيد يحاصر حارم وهي بيد الأفرنج فقال مجد الدين: أتمنى أن يفتح نور الدين الشهيد مصر ويعطيني إياها، فقال صلاح الدين الأيوبي: أتمنى على الله تبارك وتعالى أن يفتح نور الدين الشهيد حارم ويعطيني إياها، ثم قال: تمن أنت أيضاً بما تريد قلت: يامولاي، إذا كنت أنت صاحب مصر ومجد الدين صاحب حارم ما أضيع بينكما، فقال لا بد أن تتمنى شيء، فقلت: إذا كان ولا د فأتمنى عم، وبينما نحن في الكلام والله تعالى قاض بما أراد في حكمه فقدّر الله عز وجل أن نور الدين كسر الإفرنج وفتح حارم وأعطاهما مجد الدين بن الداية وأعطاني قلعة عم، وقدّر الله أن أرسل نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى أسد الدين شيركوه إلى مصر وفتح مصر على يده ثم آل الأمر إلى أن ملكها صلاح الدين الأيوبي على ما نذكر إن شاء الله الرحمن في وقته وتملك مصر والشام والشرق والكرك واليمن وبلاد الشرق وعارض الملوك والسلطين وحاصر القلاع وفتح البلاد وجند الأجناد وهذه الجراكسة التي هي اليوم ملوك مصر والشام ومحامي الحرمين الشريفين مماليك نسل وذرية الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل أبي المعالي ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب أبو الملوك الأيوبية⁽¹⁾ وأشار في كلامه هنا للمؤلف الذي استعان به وهو كتاب أخبار حلب فيكون قد أشار للمؤرخ وكتابه الذي أخذ عنهما هنا.

– الحافظ أبو القاسم بن عساكر (571هـ/1176م):

اعتمد ابن الأثير على ابن عساكر في مادته التي أوردها عن دمشق، فكتابه تاريخ دمشق بوصفة مصدراً متخصصاً في تاريخ دمشق والشام عموماً، إضافة إلى قيمته في المادة التاريخية والجغرافية التي قدمها عن دمشق. و ابن عساكر هو علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، أبو القاسم بن أبي محمد بن أبي الحسن بن أبي محمد بن أبي علي الشافعي⁽²⁾، ولد

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 263.

(2) الحموي: إرشاد الأريب (معجم الأدباء)، ج 13، ص 73. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 3، ص 309، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 2، ص 554، السبكي: طبقات الشافعية، ج 7، ص 215. ابن كثير: البداية والنهاية، ج 12، ص 294.

سنة 499هـ/1105م، نشأ في بيت علمي⁽¹⁾، ألف ابن عساكر عدداً كبيراً من الكتب تناولت الحديث والرجال والتاريخ، ووصفت بأنها حسنة ومفيدة⁽²⁾.

أشار ابن الأثير إلى أنه أخذ عن ابن عساكر من كتابه تاريخ دمشق فكتب في ذكره لخبر نزول الفرنج على دمشق وحصرها و ما فعله سيف الدين حتى رحلوا عنها: " ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق، قال: حكى لي بعض الأئمة العلماء، أنه رأى الفندلاوي⁽³⁾ في المنام، فقال له أين أنت. قال: { فِي جَنَاتٍ عَذْنٍ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ }⁽⁴⁾.

- صاحب التاريخ :

ورد في كتاب الباهر لابن الأثير الكثير من الأخبار التي أوردها بعد قوله صاحب التاريخ وهذه الأخبار كثيرة رجح الأستاذ الدكتور سهيل زكار في النسخة التي حققها ونشرها في موسوعته أن المقصود بصاحب التاريخ ربما يكون صاحب ملك نام⁽⁵⁾.

أما الباحث المصري عبد القادر طليمات والذي قام بتحقيق المخطوط أيضاً ونشره لم تقف الدراسة التي أوردها شيء عن التعريف بصاحب التاريخ الذي أورده ابن الأثير في كثير من مواضع كتابه، ولو كان ابن الأثير آتى على ذكر الكتاب الذي أخذ عنه لكان الأمر أسهل بالنسبة للباحث ومن الأخبار التي ذكرها عنه خبر ابتداء قسيم الدولة آق سنقر للحكم، كتب: " قال صاحب التاريخ. كان قسيم الدولة تركياً من أصحاب السلطان جلال الدولة ركن الدين"⁽⁶⁾. وأخذ عنه أيضاً في ذكره للوقعة التي جرت في حرب قلعة حارم فكتب: " قال صاحب التاريخ: و حكى أن السلطان نور الدين الشهيد لما كسرت ميسرة عسكره، نزل عن فرسه وكشف رأسه وسجد لله عز وجل فسمع يقول: يا إلهي وسيدي ومولاي من محمود عبد ابن زكي بن اق سنقر حتى لاتخذله إن تنصره تنصر دينك الذي أظهرته لنبييك الذي أرسلته ، استجب دعائي واحسن

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج2، ص544.

(2) الحموي: إرشاد الأريب، ج13، ص76. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج2، ص558. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص309.

(3) الفندلاوي: الإمام ابو الحجاج يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي المالكي كان حسن المفاكية، حلو المحاضرة، شديد التعصب لمذهب أهل السنة، كريماً ، توفي في ربيع الأول سنة ثلاثة وأربعين وخمسمائة بالنيرب في حرب الفرنج ومنازلتهم في دمشق، ودفن في باب صغير. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج20، ص209.

(4) ابن لأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص216.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص310.

(6) ابن لأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص114.

منقلبي ومثوأي ولا تشمت بي أعدائي ولم يزل متضرعاً باكياً ويقلب وجهه على التراب ودموعه تجري على خديه إلى أن بلغه الله مراده من خذلانهم ونصره عليهم⁽¹⁾.

– عماد الدين الأصفهاني (597هـ / 1201م):

هو الكاتب المشهور المعروف بالعماد الكاتب الأصبهاني المنشئ، ولد بأصبهان قدم بغداد مع أبيه وبها تفقه واشتغل بالأدب، وبرع بالإنشاء، وخدم الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة، وكان أحد كتّابه، ثم قدم دمشق أيام نور الدين واتصل به وخدمه وكان فاضلاً، حافظاً لدواوين العرب وله عدة مصنفات منها خريدة القصر في شعراء العصر⁽²⁾. فكتب نقلاً عنه: "قال العماد محمد بن حامد الكاتب – وقد ذكر نور الدين في بعض مصنفاته فقال: "كان ملك بلاد الشام ومالكها، والذي بيده ممالكها، الملك العادل نور الدين أعف الملوك وأتقاهم، وأتقبهم رأياً وأتقاهم وأعدلهم وأعبدهم وأزهدهم وأجهدهم، وأظهرهم وأظهرهم، وأقواهم وأقدرهم وأصلحهم عملاً، و أنجحهم أملاً وأرجحهم رأياً، وأصدقهم قولاً، وأقصدهم طولاً، وكان عصره فاضلاً، ونصره واصلًا، وحكمه عدلاً، وفضله شاملاً، وزمانه طيباً، وإحسانه صيباً، والقلوب بمهابته ومحبتة ممتلية، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية، وأموره مقتبلة وأوامره ممتثلة، وجده منزّه عن الهزل، ونوابه في أمن من العزل ودولته مأمولة مأمونة، وروضته مصوبة مصونة والرياسة كاملة والسياسة شاملة والزيادة زائدة والسعادة مساعدة والعيشة ناضرة والشيعة ناصرة والانصاف صاف والاسعاف عاف، وأزر الدين قوي وظماً الإسلام روي وزند النجح وري والشرع متبوع والحكم مسموع والعدل متلى والظلم معزول والتوحيد منصور والشرك مخذول وللتقي شروق وما للفسوق سوق وهو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام وقد غلب الكفر وبلغ الضرر فاستفتح مغالقتها واستخلص معاقلها واستخلص عقائلها وأشاع بها شعار للشرع في جميع الحل والعقد والإبرام والنقض والبسط والقبض والوضع والرفع وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الشام قطائع فقطعها وعفى رسومها سلوكهم وصان الثغور منهم وحماها عنهم وأحيا معالم الصوفية وكبرها في كل بلد وكثر وقوفها ووفر معروفها وأدنى للوافدين من جنان دنابه قطوفها وأجد الأسوار والخنادق وأنمى المرافق وحوى الحقائق وأمر في الطرقات ببناء الربط والخانات فضاقت ضيوف الفضائل وفاضت

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 263.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 6، ص 159؛ النويري: نهاية الأرب، ج 29، ص 17.

فيوض الفواضل وهو الذي فتح مصر وأعمالها وأنشأ دولتها ورجالها⁽¹⁾. أخذ ابن الأثير في وصف نور الدين عن العماد الأصفهاني الكثير وأورد أخباره عنه تحت فصل من كلام عماد الدين الكاتب فيه رحمه الله تعالى ونفس الوصف هذا قد كتبه أبو شامة في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين. (48).

– المستقصى في التاريخ:

المستقصى في التاريخ يرجح أنه كتاب ابن الأثير الكامل في التاريخ نفسه، لأن وبالعودة للمصادر والمراجع لم يرد ذكر لمصنف من مصنفاته بهذا الاسم ولذلك كما سلف ذكره يرجح أن المستقصى في التاريخ هو الكامل في التاريخ نفسه، وجب التنويه إلى هذا المصنف لأن ابن الأثير أحال القارئ في الكثير من مواضع الكتاب بالعودة الى كتابه المستقصى وكان عندما يختصر في ذكر حادثة من الحوادث بتفاصيلها، يحيل القارئ إلى المستقصى في التاريخ ففي ذكره لشيء من سيرة المسترشد بالله أنهى حديثه عنه بقوله: "ولقد آتينا على ذكر ذلك في المستقصى في التاريخ"⁽²⁾ وفي موضع آخر أتى على ذكر المستقصى في التاريخ عندما أحال القارئ في نهاية كتابه الباهر لقراءة كتابه المستقصى في التاريخ للتوسع في سيرة الملك القاهر قائلًا: " هذه نبذة بسيرة محاسنه تليق بهذا المختصر، وقطره من بحر مكارمه تناسب هذا المعتصر، ولو أوردتها مفصلة لخرجنا عما اعتمدناه، وتركنا ما قصدناه، ونحن إن شاء الله تعالى نأتي على كثير من ذلك في المستقصى في التاريخ، والله الموفق للصواب"⁽³⁾ لا يجب أن يعد كتابه الكامل – في حال كان هو المقصود – مورداً من موارد كتابه، والسبب في ذلك أن الكامل نفسه مؤلف من مؤلفات ابن الأثير والذي اعتمد في تأليفه وتصنيفه على الكثير من الموارد الشفوية والتاريخية والأدبية وغيرها الكثير ولو أتت الدراسة في ذكرها لكان وجب البحث في موارد ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ وهو عنوان شامل يتسع لدراسة كاملة.

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 324.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 170.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 366.

كانت هذه الموارد المكتوبة من كتب التاريخ، التي استمدَّ منها معلوماته وأوردها بشكل واضح في كتابه الباهر، لكن يستطيع المتمعن في الباهر وعناوينه وأخباره أن يلاحظ أنَّ ابن الأثير لم يذكر كل المصادر التي استعان بها في جميع رواياته ويمكن ملاحظة هذا من خلال مقارنة بعض الأخبار التي وردت في كتابه الكامل وأعاد ذكرها في الباهر فبالعودة لهذه الأخبار في الكامل يُلاحظ القارئ أنَّه ذكر موارد عن هذه الأخبار ولم يخفها بالكامل، ولكنَّه أتى على ذكر هذه الحوادث في الباهر بدون أن التطرَّق لمصادره فيها فمثلاً خبره عن فتح عماد الدين الزنكي للرها سنة 539هـ/1144م، أورد في كتابه الكامل أنَّه استمدَّ معلوماته عن هذه الحادثة من كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، لكنَّه في الباهر لم يتطرَّق لذكر هذه المعلومة⁽¹⁾ وبختم الحديث عن موارد ابن الأثير التي أخذها عن كتب التاريخ وجب التنويه إلى بعض العبارات التي أشارت الدراسة لبعضها ولكن أحاطها ابن الأثير بشيء من الغموض كبعض موارد الشفوية التي سلفت دراستها فكان يشير لهم كقوله " قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز، ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريماً للعدل والإنصاف منه"⁽²⁾. وهنا يشير ابن الأثير إلى كتب التاريخ التي تحدث مؤرخيها عن بداية الخلق وربما كانت إشارة لتاريخ الطبري. وبهذا القدر تكون الدراسة أعطت لمحة مقبولة بعض الشيء عن موارد ابن الأثير المأخوذة عن كتب التاريخ.

2- وثائق رسمية:

كان اعتماد ابن الأثير على الوثائق والرسائل ونصوص العهود والخطب والتقارير الرسمية في كتابه الباهر اعتماداً واضحاً، وهو ليس بالأمر الغريب لأنَّ مكانة ابن الأثير في الدولة الأتابكية كانت تخوِّله للإطلاع على مثل هذه النصوص وخاصة الصادرة عن الأتابكة أنفسهم، حيث أنَّه ذكر في كتابه رسالة سيف الدين زنكي إلى معين الدين أنر المتحكم بدمشق فاستجد به عندما حاصر الفرنج دمشق "قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي، فأنا إن جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة علينا، لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردت أن ألقاهم وأقاتلهم، فتسلم البلد إلى من

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص187.

(2) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ص109.

أثق إليه، وأنا أحلف لك، إن كانت النصر لنا على الفرنج إنني لا آخذ دمشق، ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي، فمأمله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج⁽¹⁾ وفي نفس الحادثة ذكر ابن الأثير نص رسالة وجهها سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهذدهم، ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا فكتب "قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلمت البلد إليه، وحينئذ لا تطمعون في السلامة منه"⁽²⁾، وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم، ويقول لهم: "أنتم بين أمرين مدمومين، إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء بدمشق لا ييقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون إنكم تقدرعون على منعه عن بيت المقدس، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الألمان عن دمشق فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه واجتمعوا بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع امداده وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق وسار عنها ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقي حصن بانياس مع الفرنج حتى فتحه نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى"⁽³⁾.

ومن الرسائل التي أرفقها ابن الأثير في كتاب الباهر رسالة نور الدين زنكي إلى عز الدين قلج أرسلان حين قصد بلاده: "إنني أريد منك أموراً وقواعد، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدهما أنك تجدد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي إقرارك على بلاد الإسلام، فإنني لا أعتقدك مؤمناً - وكان قلج أرسلان يتهم باعتقاد مذهب الفلاسفة - والثاني إذ طلبت عسكرياً إلى الغزاة تسيره، فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنهم فأما أن تتجدني بعسكري لأقاتل بهم الإفرنج وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم. والثالث أن تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخي وذكر أمرا غيرها فلما سمع قلج أرسلان الرسالة قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة وقد أحبته إلى ما طلب أنا أجدد

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 215.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 215.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 215.

اسلامي على يد رسوله واستقر ذي النون فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين فرحل العسكر عنها وعاد قلج أرسلان وملكها ⁽¹⁾.

وفي ذكره لخبر حصار نور الدين قلعة حارم كتب ابن الأثير ما نقله عين من عيون الإفرنج بالحصن: "فأرسل اليهم يعرفهم قوتهم، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاوله وترك اللقاء. وقال لهم: "إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها، وإن حفظتكم أنفسكم منه أطلقنا الامتناع ليه. ففعلوا ما أمرهم به وأشار عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصه من أعمال حارم فأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية فأجابوه إلى ذلك فصالحهم ⁽²⁾،

وفي ذكره لملك السعيد نور الدين بن عز الدين بن قطب الدين مودود بن زنكي ، ذكر ابن الأثير ما ورد في وصية المولى عز الدين فكتب " كان في جملة الوصية أنه أوصى بالملك لولده المولى نور الدين أرسلان شاه قدس الله روحه وأوصى بغير ذلك وكان الوصي فيها جاهد الدين قايماز فلما وصل إلى الموصل وهو مريض ⁽³⁾

وفي ذكره لملك السعيد نور الدين لمدينة نصيبين كتب نص رسالة كانت بين مجاهد الدين وعماد الدين فقال: " فرد مجاهد الدين برسالة ثانية قول له: ماتساوي هذه وأضعافها أن تخرج ولدك نور الدين عن يدك فإنه إلى الآن ما خالفك في شيء وما أعلمته بهذه الحال لعلمي أنه لا يصبر عليها وليس هو مثل والده إن علم يخرج الأمر عن يدي ولا أقدر أمنعه فلم يلتفت عماد الدين فحينئذ أنهى مجاهد الدين الحال إلى السعيد نور الدين ... ⁽⁴⁾

وفي موضع آخر ذكر ابن الأثير نصاً فيه حلف يمين لجماعة من الأمراء المصريين فكتب: " نسخة اليمين المحلوف بها مضمونها: إني من وقتي هذا صفيت نيتي وأخلصت طويتي للملك الناصر مدة حياته وإني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 307.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 241.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 344.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 348.

ممتثلاً أمره واقفاً عند مرضيه ثم من بعده لولده الأفضل علي ووريثه ووالله إنني في طاعته وأذب عن دولته وبلاده بنفسه ومالي وسيفي ورجالي وأمتثل أمره ونهيه وباطني وظاهري في ذلك سواء والله على ما أقول وكيل¹

على ما يبدو أن ابن الأثير اطلع بنفسه على هذه الوثائق حيث كتب "ورأيت منشوره بذلك"⁽²⁾ وقصد بهذا المنشور الذي أقطع فيه السلطان سنجر ابن أخيه السلطان محمود لهماذان وأصفهان... وبلاد كرمان وفارس.... والعراق، والموصل وغيرها

كانت هذه أبرز المراسلات التي وردت في الكتاب وإن عمد الباحث على التدقيق والتعمق أكثر لربما استخرج أكثر من هذه النصوص.

د - الموارد الدينية:

1 - آيات قرآنية:

كانت الصبغة الدينية في أسلوب ابن الأثير في كتابته واضحة كل الوضوح فيجده القارئ في ثنايا الكتاب قد استشهد بالآيات القرآنية الكريمة التي كانت تعطي جمالية لإسلوبه وتجذب القارئ، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على مدى تشبعه بالثقافة الدينية وتأثيرها القوي على أسلوبه في الكتابة التاريخية والأمثلة على ذلك كثيرة في كتابه الباهر، فاستعان بالاستشهاد من آيات القرآن الكريم في حديثه عن فتح عماد الدين الزنكي لمدينة الرها واسترداده لها من يد الفرنج فكتب: **لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لِنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ⁽³⁾ وفي موضع آخر ذكر عندما ذكر ملك نور الدين لقلعة جعبر من صاحبها استعان بقوله تعالى: **تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ** ⁽⁴⁾ وأيضاً قوله تعالى: **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ⁽⁵⁾ وفي حديثه عن مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر للمرة الثالثة

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص352.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص134.

(3) سورة الأعراف، الآية 149.

(4) سورة آل عمران، الآية 26.

(5) سورة الرعد، الآية 39.

وملكه لها وقتل الوزير الفاطمي شاور وتملك أسد الدين سلطنة مصر ذكر قوله تعالى: **وَمَكَرُوا** **وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** (1). وعندما ذكر وفاة أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين بدأ ذكره للخبر بقوله تعالى: **حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً** (2). وفي الخبر نفسه استشهد أيضاً بقوله تعالى: **لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا** (3). وعندما حاصر الإفرنج مدينة دمياط في ذكر ابن الأثير قوله تعالى: **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا** (4).

و من خلال التمعن في معنى الآيات القرآنية التي أوردها عقب كل حادثة أو ضمن ذكره للحوادث أو في بداية حديثه، يلاحظ أن ذكره لهذه الآيات لم يكن عبثياً أو مجرد استعراض لثقافته الدينية في الكتاب، لكن كان للأمر أبعاد أكبر من ذلك فهو استطاع الاستشهاد بالآيات القرآنية التي من شأنها أن تعطي تلميحاً عن رأيه في ما يكتبه من حوادث فيستطيع القارئ أن يستخلص رأي ابن الأثير في كل حادثة قام بالاستشهاد بآيات القرآن الكريم فيها، فقد أحسن توظيفها واستخدامها، هذا إن دلَّ على شيء فهو يدل على ذكائه و ثقافته الدينية، وعلى مدى تأثيرها في كتاباته.

هـ - الموارد الأدبية:

1 - دوواوين شعرية وشعراء :

في هذا المجال إنَّ كتاب ابن الأثير الباهر مملوء بالأبيات والقطع الشعرية التي كان يستشهد بها وكانت تفي بالغرض فكانت القصائد وأبيات الشعر تتعلق بالأحداث العامة منها أبيات لم يأت على ذكر قائلها مثل الأبيات التي أوردها لدرجة أن الباحث يحار بأمره ما إذا كانت هذه الأبيات من نظم ابن الأثير أو أخذها من شاعر من شعراء عصره مثل الأبيات الآتية التي تصف شجاعة الأمير مودود :

(1) سورة آل عمران، الآية 54.

(2) سورة الأنعام، الآية 44.

(3) سورة الأنفال، الآية 142.

(4) سورة الأحزاب، الآية 25.

فَاسْتَوْضَحْتُ سُبُلَ الْأَمَالِ حَايِدَةً	عَنِ الْمُلُوكِ إِلَى أَعْلَاهُمْ حَسَبًا
أَبْهَرَهُمْ فَضْلًا، أَغْمَرَهُمْ بَذْلًا	أَفْخَرَهُمْ أَبَدًا فِعْلًا وَمُنْتَسَبًا
أَشْثِمُ أَشْوَسَ مَضْرُوبًا سُرَادِقُهُ	عَلَى الْمَمَالِكِ مُرَخًى دُونَهَا الْخُجْبَا(1).

وهناك أبيات أيضاً لم يصرح عن قائلها فكتبها بعد قوله: "كما يقول القائل " يصف فيها بطولة عماد الدين زنكي:

رَمَاهَا بِحَرْبٍ مِنْهُ حَتَّى كَانَمَا	بِدَعْوَةِ نُوحٍ فِي الْعَصَاةِ رَمَاهَا
أَخِي الْحَرْبُ يَضْلِيهَا بِنَفْسٍ كَانَمَا	تَرَاخَمَ فِي صَنْكَ الْوَعَى بِسِوَاهَا
كَتَائِبُ تَزْهَى بِالْفُتُوحِ كَانَمَا	تُبَارِي النُّجُومَ الطَّالِعَاتِ قِنَاهَا(2)

- الشاعر المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي:

: هو مسلم بن الخضر بن مسلم بن قسيم أبو المجد الحموي، شاعر له مدائح في زنكي وولده نور الدين محمود مات شاباً سنة 542هـ/1184م، ولد في مدينة حماة في الشام وإليها ينسب، وله ديوان شعر. وهو من الشعراء الذين ذكر ابن الأثير أسمائهم الشاعر المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي(3) الذي كتب قصيدة يمدح فيها عماد الدين زنكي:

بِعِزِّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ	تَذِلُّ الصِّعَابَ وَتَسْتَقِيمُ(4)
أَلَمْ تَرَ أَنَّ كُلَّبَ الرُّومِ لَمَّا	تَبَيَّنَ أَنَّكَ الْمَلِكُ الرَّحِيمُ
فَجَاءَ يَطْبِقُ الْقُلُوبَاتِ حَيَلًا	كَأَنَّ الْجَحْفَلَ اللَّيْلَ الْبَهِيمُ
وَقَدْ نَزَلَ الزَّمَانُ عَلَى رِضَاهِ	وَدَانَ لِحَظْبِهِ الْخَطْبُ الْجَسِيمُ

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص129.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص210، ص320.

(3) الزركلي: الأعلام، ج6، ص222. كحالة، (عمر): معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج12، ص233.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص176.

فحينَ رمتهُ بكَ في خميسٍ	تيقنَ أنَ ذلكَ لايدومُ
وأبصرَ في المفاضةِ منكَ جيشاً	فأحرنَ لايسيرُ ولايقمُ
كأنك في العجاج شراب نور	توقد وهو شيطان رجيم
أرادَ بقاءَ مهجتهِ فولى	وليس سوى الحمامَ له حميمُ

-ديوان أبو تمام:

ومن الدواوين التي عاد إليها ابن الأثير استعان ببعض أبياته التي يمدح بها عماد الدين زنكي عندما ملك حصن الأثارب من الفرنج⁽¹⁾:

مَا رُبُعَ مِيَّةٍ مَعْمُورًا يَطِيفُ بِهِ	غِيلَانُ أَبْهَى رَيْيَ مَنْ رُبْعَهَا الْخَرَبُ
وَلَا الْخُدُودَ وَ إِنِ أَدْمَيْنَ مِنْ حَجَلٍ	أَشْهَى إِلَى نَاطِرِيٍّ مِنْ خَدَّهَا التَّرَبُ ⁽²⁾ .

وأخذ عنه أيضاً: مطلع قصيدته في مدح أمير المؤمنين المعتصم بالله حين قال: السيف أصدق أنباء من الكتب⁽³⁾.

- المتنبي:

المتنبي: أبو الطيب المتنبي أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي، ولد بالكوفة 303هـ/915م، ونظم أول أشعاره وهو في التاسعة من عمره اشتهر بحدّة ذكائه واجتهاده وظهرت موهبته الشعرية مبكراً توفي في النعمانية في العراق سنة 354هـ/965م.

حضرت أبيات المتنبي⁽⁴⁾ في كتاب الباهر لابن الأثير حيث كتب بعض منها وصف في إحدى أبياته الشعرية شجاعة عماد الدين زنكي فكتب:

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الاتابكية، ص159.
 (2) الطائي، (أبو تمام. ت: 231هـ): ديوان الحماسة، دار القلم، ط1، بيروت، ج1، ص9.
 (3) الطائي: ديوان الحماسة، ج1، ص4. ابن الأثير: الباهر في الدولة الاتابكية، ص188.
 (4) العباس، (اسماعيل): الأمثال السائرة في شعر المتنبي، مطبعة الحجازي، القاهرة، ص5.

وَالرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْمَحَلِّ الثَّانِي⁽¹⁾.

والواضح من الأبيات التي اختارها ابن الأثير في كتابه ومن الشعراء الذين أخذ عنهم أنه كان متذوقاً للشعر والأدب.

كتب ابن الأثير في ذكره لحادثة فتح عماد الدين زنكي للرها بيتاً لم يصريح عن مصدره فأورده بالصياغة الآتية: " .. يتهافون إلى القتال تهافت الفراش في النار ، وأخذوا بقول (من) يقول :

تَأَخَّرْتُ اسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ⁽²⁾.

وبعد البحث عن قائل هذا البيت اتضح أنه للحصين بن الحمام المري⁽³⁾ وهو شاعر من شعراء الجاهلية

- القيسراني:

ومن الشعراء الذين أخذ ابن الأثير من قصائدهم ودواوينهم الشاعر القيسراني⁽⁴⁾ الذي كتب قصيدة في وقعة يغرى التي جرت بين العرب المسلمين و الفرنج قال في أولها:

إِلَى مَتَى يُعْرِضُ عَنْ مُغْرَمٍ	فِي حَذِّهِ لِلْدَّمْعِ أُخْدُودَ
وَكَيْفَ لَأَنْتَنِي عَلَى عَيْشِنَا أَل	مَحْمُودِ وَالسُّلْطَانُ مَحْمُودَ
وَصَارَ الْإِسْلَامُ لَأَيْتَنِي	إِلَّا وَشَلَوِ الْكُفْرَ مَقْدُودَ
مَنَاقِبٌ لَمْ تَكُ مَوْجُودَةً	إِلَّا وَنُورُ الدِّينِ مَوْجُودَ ⁽⁵⁾

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص188.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص190.

(3) الحصين بن الحمام: هو الحصين بن ربيعة بن مساب بن حرام بن وائلة بن سهم بن مرة بن عوف كان سيد بني سهم بن مرة وفارسها وقائدهم ورائدهم كان يقال له مانع الضيم. وهو شاعر من شعراء الجاهلية له ديوان شعر. . ابن الأثير: أسد الغابة، ص24؛ الصفي: الوافي بالوفيات، ج13، ص57

(4) القيسراني: محمد بن نصر صغير بن داغر المخزومي الخالدي، أبو عبد الله شرف الدين بن القيسراني، شاعر مجيد له ديوان شعر صغير، أصله من حلب، ولد بعلقة، وتوفي بدمشق 548هـ/1153م، والقيساري نسبة إلى قيسارية في ساحل سورية نزل بها فنسب إليها وهو من شعراء الخريدة. الحموي: إرشاد الأريب، ج2، ص112. أبو شامة: الروضتين، ج1، ص91. الزركلي: الاعلام، ج7، ص125.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص218.

ومن الواضح أنَّ ابن الأثير أخذ من أبيات القيسراني الكثير، فقد وردت بعض أبياته في ذكر
حادثة قتل البرنس صاحب أنطاكية كتب ابن الأثير فيها : " و من ما قال فيه: القيسراني
الشاعر قصيدته المشهورة التي أولها الأبيات:

هَذِي الْعَرَائِمُ لَا مَا تَدْعِي الْقَضْبُ	وَذِي الْمَكَارِمِ لَا مَا قَالَتْ الْكُتُبُ
وَهَذِهِ الْهُمَمُ اللَّاتِي مَتَى خُطِبَتْ	تَعَنَّرَتْ خَلْفَهَا الْأَشْعَارُ وَالْخُطْبُ
صَافَحَتْ يَا بَنَ عِمَادِ الدِّينِ ذُرُوتَهَا	بِرَاحَةٍ لِلْمَسَاعِي دُونَهَا تَعَبٌ ⁽¹⁾

ومنهم أيضاً ابن المنقذ⁽²⁾ الذي كتب في ذكر حصار نور الدين لقلعة حارم:

لَكَ الْحَمْدُ يَا مَوْلَايَ كَمْ لَكَ مِنْةٌ	عَلَيَّ، وَفَضْلٌ لَا يُحِيطُ بِهِ شُكْرِي
نَزَلْتُ بِهَذَا الْمَسْجِدِ الْعَامِ قَافِلاً	مِنَ الْغَزْوِ مَوْفُورُ النَّصِيبِ مِنَ الْآجِرِ ⁽³⁾

- ابن منير الطرابلسي:

وفي جملة الحديث عن الأبيات الشعرية والدواوين التي أغنى بها ابن الأثير مادته التاريخية ما
أخذه عن ابن منير الطرابلسي⁽⁴⁾ في ذكره لأسر جوسلين وملك بلاده:

طَلَعْتُ عَلَيْكَ بِجُوسَلِينَ ذَرِيعَةً	لَا سَخْلَ أَنْشَأَهَا وَلَا أَمْرَاراً
فَأَرَتَكَ مَا يُخْنِي الْوَفِيَّ وَفَاؤُهُ	وَأَرَتْهُ كَيْفَ يَحِينُ الْغَدَارُ ⁽⁵⁾
دعا ما ادعى من غرة النهى والأمر	فما الملك إلا محابك به القهر

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص227.

(2) ابن المنقذ: مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن منقذ الكنانى ولد 488هـ/1095م، من أمراء بني منقذ.
قضى تسعة أعوام في جيش عماد الدين زنكي، كان شاعراً ومحارباً توفي في دمشق زمن صلاح الدين الأيوبي
سنة 584هـ/1188م. له تصانيف في الأدب والتاريخ منها لباب الآداب والاعتبار. ابن خلكان : وفيات الأعيان،
ج1، ص195؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج20، ص166؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص405.

(3) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص252.

(4) ابن منير الطرابلسي: أبو الحسين مهذب الدين أحمد بن منير بن أحمد الطرابلسي ولد سنة 473هـ/1080م،
يلقب بعين الزمان وهو شاعر ولغوي من طرابلس رحل عنها عندما حاصرها الفرنج قاصداً دمشق، بدأ نظم
شعره في صغره واشتهر بهجائه اللاذع فكاد تاج الملوك بوري صاحب دمشق أن يأمر بقطع لسانه، تدرج ابن
منير في شهرته إلى أن غدا من أفضل شعراء الشام. الزركلي: الأعلام، ج1، ص255.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص227.

ومن تثنى الدنيا إليه عنانها	تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر
كما أهدت الأقدار للقمص أسرهِ	وأسعدَ قرَنَ من حواه لك الأسرُ
طغى وبغى عدوا على غلوائهِ	فأوثقه الكفرانُ عداوه والكفرُ
وأمسَتْ عزازٍ كإسمها بك عزهُ	تشقُّ على النسرين لو أنها وكرُ
فسرَّ و إملأ الدنيا ضياءً وبهجة	فبالأفقِ الداجي إلى ذا السنا فقرُ
كأنني بهذا العزم لا فلَّ حدُهُ	وأقصاه بالأقصى وقد قُضي الأمرُ

إلى جانب الوثائق والرسائل استعان ابن الأثير بعدد كبير من القصائد والأبيات الشعرية ذات العلاقة بالأحداث التي كانت على الساحة السياسية كمدح الشاعر مسلم بن الخضر بن قسيم الحموي لعماد الدين زنكي بعد هزيمته للإفرنج في بلاد الشام وقد ورد ذكرها فيما سلف.

- مآخذ على كتاب ابن الأثير في الباهر:

يستطيع الباحث بعد الإطلاع على محتوى كتاب الباهر ودراسته وتحليله، أن يخلص إلى سلبيات هذا الكتاب، أو أن يضع مأخذاً عليه لربما في بادئ الأمر يطرح على نفسه العديد من التساؤلات منها، ما هي دوافع ابن الأثير من تأليف الباهر؟ وهل كان موضوعياً في كتابته أم لا؟ وهل يا ترى انحاز إلى طرفٍ دون طرف؟ أم أنه قام بإخفاء دور أشخاص معينين وأبرز دور الزنكيين على حسابهم، والأهم من هذا هل صرَّح بالشكل الكافي عن موارده التي استقى عنها أخباره ومعلوماته؟ وغيرها الكثير من الأسئلة التي وبالإجابة الموضوعية عنها يكون الباحث استطاع التوصل إلى المآخذ التي يمكن أن يضعها على كتاب الباهر، وبعد الدراسة والتحليل والبحث في موارد الكتاب خلصت الدراسة الى بعض المآخذ الموضوعية عليه:

ترجم ابن الأثير في كتابه الباهر لشخصيات لا تمس موضوع الكتاب إلا قليلاً مثل ترجمته للطغرائي، وسليمان بن قتلمش، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان وغيرهم.

ممّا يؤخذ عليه أيضاً في كتاب الباهر أنه ذكر أبياتاً من الشعر عند مقتل عماد الدين زنكي كتب قائلاً: "كما قال فيه بعض الشعراء، حيث يقول":

فَأَعْجَبُ لِمَنْ قَادَ الْجُيُوشَ وَنَفْسُهُ	قِسْمَانِ بَيْنَ الْكَرِّ وَالْإِقْدَامِ
يَلْقَى الْكَتَائِبَ مَقْرَدًا بِكَتَائِبِ	مِنْ نَفْسِهِ وَلِيَوْمٍ يَكْذُرُ حَامِي
لَا يَرْعَوِي عَنْ أَنْ يُقَارِعُ وَحْدَهُ	أَلْفًا بِأَبْيَضٍ صَارِمٍ صَمْصَامِ
يَأْتِي الْفُتُوحَ عَلَى الْفُتُوحِ بِسَيْفِهِ	وَبِرَأْيِهِ وَبِعَزْمِهِ الْمِقْدَامِ (1)

وقوله هذا يعني أنَّ شاعر هذه الأبيات قد عاصر الحادثة في حين أنَّ الأبيات ترجع إلى هانئ بن محمد⁽²⁾ الذي كان يرثي بها أبا عثمان سعيد بن المنذر الوزير الأموي الأندلسي⁽³⁾، وأرجع أيضاً إلى ابن منير الطرابلسي (ت 548هـ/1154م) بمناسبة عثور نور الدين محمود على خاتمه الذي سقط من يده في أثناء حصار قلعة بانياس⁽⁴⁾ سنة 560هـ/1153م، في حين أنَّ ابن منير الطرابلسي قد مات منذ سنة 448هـ/1153م، وكذلك قال عند وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه سنة 607هـ/1210م: "وأكثر الشعراء من مراثيه وتأبينه⁽⁵⁾ وذكر بيتين، ويفهم من هذا أنَّ الشاعر الذي قال البيتين كان معاصراً لحادثة الوفاة ولكن تبين بالعودة لقائل البيتين أنَّهما لأبي البيداء الرياحي⁽⁶⁾ المعاصر لأبي نؤاس⁽⁷⁾ والذي لم يعاصر هذه الحادثة على الإطلاق، ولعلَّ الأبيات الوحيدة التي هي من شعر ابن الأثير هي ما أورده في مقدمة الكتاب.

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 197.

(2) هانئ بن محمد: هو أبو القاسم الأزدي الأندلسي، محمد بن هانئ الشاعر، المشهور، ولد في قرية من قرى إشبيلية، ونشأ بها سنة 320هـ/932م، واشتغل باشبيلية وكان له حظ وافر من الأدب وعمل الشعر فمهر فيه، وكان حافظاً لأشعار العرب وأخبارهم، وكان يسلك في أشعاره مسلك المعري، ارتحل عن إشبيلية في عمر لسابعة والعشرون رحل إلى المغرب ومدح جوهر الصقلي ثم ارتحل إلى الزاب وله قصائد في مدح المعز لدين الله الفاطمي. توفي في مدينة برقة سنة 362هـ/973م، الحموي: معجم الأدباء، ج 1، ص 126؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 4، ص 421.

(3) أبا عثمان سعيد بن المنذر: الإمام المحدث المتقن الورع مولى الناصر لدين الله الأموي صاحب الأندلس. الزركلي: الأعلام، ج 17، ص 70.

(4) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 269.

(5) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 308.

(6) أبو البيداء الرياحي: أسعد بن عصمة أبو البيداء الرياحي، أعرابي نزل البصرة، وكان يعلم الصبيان بالبصرة، أقام بها أيام عمره يؤخذ عنه العلم، وكان شاعراً. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج 9، ص 30.

(7) أبو نؤاس: هو أبو علي الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح الحكمي المذحجي، من أب عربي دمشقي و أم أحوازية، ولد في مدينة الأحواز من بلاد عربستان سنة 145هـ/762م، دفن في مقبرة الشونيزية في الجانب الغربي من بغداد عند تل يسمى تل اليهود سنة 199هـ/813م، له ديوان شعري مشهور جمعه في عشرة فصول. البغدادى: تاريخ بغداد، ج 7، ص 448؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج 13، ص 407 الزركلي: الأعلام، ج 2، ص 225.

ويتضح أنَّ ابن الأثير في كتابه الباهر لم يتحلَّ بما هو معروف عنه من الموضوعية والحيادية في كتابه الكامل، فرواياته في الباهر عن الزنكيين أتت أكثر تفصيلاً، إلّا أنَّها أقل موضوعية عمّا في الكامل، فعلى الرغم من وجود محاسن لكتاب الباهر إلّا أنَّ هناك مثالب يمكن توجيهها إليه، لعلَّ من أبرزها عدم إنصافه في نظريته لصالح الدين ومبالغته في تمجيد الزنكيين، وإسرافه في الإشادة بهم، وإضفاء هالة برّاقة على أعمالهم، كنوعٍ من الاعتراف بفضلهم عليه وعلى بيته وأسرته فربما دفعه هذا الولاء للزنكيين إلى التغاضي عن بعض أخطائهم مكتفياً بذكر محاسنهم ومآثرهم فلم يستطع أن يخفي تحامله على صلاح الدين وحاول أن يشوّه بعض أعماله ويسيء فهم تصرفاته. و يُرجح سبب هذا الموقف السلبي الذي اتخذه ابن الأثير من صلاح الدين الأيوبي، علاقة صلاح الدين بنور الدين محمود فلا بدَّ من التطرُّق لطبيعة العلاقة بينهما لفهم وتبرير موقف ابن الأثير من صلاح الدين فقد ذكر ابن الأثير أسباب الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين التي ابتدأت عندما اتفقا على حصار الكرك، ورجع صلاح الدين الأيوبي إلى مصر، قبل أن يلتقي بنور الدين فكتب ابن الأثير في كتابه الباهر يتحدث عن هذا الخلاف بين صلاح الدين ونور الدين قال: "وفي سنة سبع وستين أيضاً، جرى ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين وكان لحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها البلد إلى بلد الفرنج، والنزول على الكرك ومحاصرته، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر وورد الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو، فلمّا أتاه الخبر بذلك، رحل عن دمشق عازماً على قصد الكرك فوصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه باختلال البلاد، وأنّه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها، فلم يقبل نور الدين عذره"⁽¹⁾ هنا ينتهي الخبر الذي أورده ابن الأثير عن الحادثة التاريخية التي سُجِّلَت بين صلاح الدين ونور الدين، لكن يتابع القول مُبدئاً رأيه ومقدِّماً المسوغات التي يراها سبباً لتقاعس صلاح الدين عن إجابة نور الدين فيقول: "وكان سبب تقاعده أنَّ أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع فحيث لم يمثل أمر نور الدين شق ذلك

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 304.

عليه وعظم عنده، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين قصده وأخذ مصر منه، فاستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام تقي الدين عمر - ابن أخي صلاح الدين - وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله فشتهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه - وكان ذا رأي ومكر وعقل - وقال لتقي الدين: اقعد وسبه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين خالك، انتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلاً؟⁽¹⁾ ويكمل ابن الأثير ويذكر توبيخ أيوب بابنه صلاح الدين ومقاله له بعد أن جمع هذا الجمع الكثير لنور الدين فيقول: "لما خلا أيوب بابنه صلاح الدين، قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا المجمع الكثير وتطلعه على مافي نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد، جعلك أهم الأمور إليه وأولاهها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر، وكانوا سلموك إليه....."⁽²⁾ من خلال التمعن في طريقة السرد التي قام بها ابن الأثير يتضح موقفه من صلاح الدين فلا يمكن أن تؤخذ وجهة نظره بعين الاعتبار وأن يكون المصدر الرئيسي والوحيد عن هذه الحادثة، فيلاحظ أن ابن الأثير يلتمس المناسبات أحياناً لنقد صلاح الدين فهو قد استفاض في التعليق عن الحادثة وإبداء رأيه بها، فهو وبميله للزنكيين لن يأت على ذكر شيء لا يناسب أهوائهم، فهو عمل على إبراز صلاح الدين على أنه لم يكن وفيّاً لسيده نور الدين وأنه سعى للانقلاب والتمرد والاستقلال عنه. وربما لم يكن نور الدين راضياً تمام الرضا عن انفراد صلاح الدين بحكم مصر. وهناك حادثة أخرى أوردها ابن الأثير في الباهر بطريقة توحى للقارئ بموقفه السلبي من صلاح الدين فيذكره لسقوط الخلافة الفاطمية في مصر وإقامة الخطبة العباسية فيها ذكر قائلاً: "ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره، اختار منه ما أراد ووهب أهله وأمراءه وباع منه كثيراً وكان فيه من الجوهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك. قد جمع على طول السنين وممر الدهور، فمنه: القضيبي الزمرد وطوله نحو قبضة ونصف، والجبل الياقوت وغيرهما، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 305.

(2) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 305.

الجيدة نحو مائة ألف مجلد⁽¹⁾ وتحليل هذه الحادثة كما وردت يُلاحظ أنَّ ابن الأثير استخدم مفردات يقصد منها أن يظهر صلاح الدين بمظهر غير لائق فكتب: استولى، اختار ما أراد، و باع منه كثيراً. وكلها عبارات توحى أنَّ صلاح الدين لم يكن بالشخصية التاريخية وبالصورة المأخوذة عنه. وهذا ما أراد ابن الأثير تصويره للقارئ

(1) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص 303.

الخاتمة

لا بدّ للمقدمات الصحيحة أن تؤدّي في نهاية المطاف إلى نتائج صحيحة هذه هي القاعدة الأساسية في كافة الأبحاث وكافة المجالات والتخصصات، فمن خلال ما تطرّقت له الدراسة من مقدمات ومعلومات، ومعطياتٍ قد أثمرت في نهايتها للوصول إلى النتائج المرجوة بإذن الله.

فبعد البحث والدراسة في المنهج التاريخي الذي كان متّبع في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وهو القرن الذي عاش فيه ابن الأثير المؤرّخ الذي بحثت الدراسة في حياته، ومؤلفاته وركّزت الضوء على مؤلفه الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، وعلى منهجه وموارده به، حيث اتضح من البحث في المؤلفات التاريخية لهذا العصر، أنّ أغلب المصنفات التي ظهرت في هذا العصر كانت نتيجة تحديات ثقافية، اقتضتها الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي خاصة في العراق والشام، الذين شهدوا حروباً جديدة لا هوادة فيها على منطقة الشرق الإسلامي، لتنتهي هذه الحروب بالاستيطان من أجزاء كبيرة من بلاد الشام الساحلية وشمال العراق، الأمر الذي استدعى بالضرورة ظهور قوى سياسية في العالم الإسلامي تقف بوجه هذا الاستيطان، فكانت الدولة الزنكية والايوبية وغيرها، وهناك الكثير من المؤرّخين الذين عاصروا هذه المرحلة التاريخية المهمة في بداياتها أو حتّى نهاياتها، وكان منهم ابن الأثير الذي احتلّ مكانة مرموقة، ورفيعة في الفكر البشري عموماً، والتاريخ الإسلامي خصوصاً. فقد كرّس جُلّ حياته للتاريخ والسير، وقد تعددت مصادر ترجمته، واعتناء القدامى والمحدثين بتتبع حياته بالدراسة والتدوين، وتنوعت علومه، وكثر شيوخه، وتلامذته، واعتنى بالرحلة وطلب العلم، ونأى بنفسه عن المناصب السياسية الرسمية، ممّا انعكس على كتاباته التاريخية وصبغها بالصبغة الشمولية.

كان ظهور الدولة الزنكية حافزاً على تأليف ابن الأثير كتابه الباهر، فقد سرد فيه أمجادهم وميزاتهم، وتغنّى بأعمالهم، وتوصلت الدراسة إلى أنّ تاريخ شروع ابن الأثير في تأليف كتابه الباهر، كان بعد وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه الأول 589-607هـ/ 1193-1210م، وحكم ابنه عزّ الدين مسعود الثاني سنة 607-615هـ/ 1210-1218م، أمّا عن تاريخ فراغ ابن الأثير من كتابه الباهر لم يذكر، وانتهاءه بتأليف الكتاب عند حوادث سنة 608هـ/ 1211م، أحدث لبساً حول تاريخ الفراغ من تأليفه، تبيّن أنّ ابن الأثير استطاع بكتابته هذا الذي أهده للملك عز الدين

مسعود الثاني، أن يحثه على الاقتداء بأجداده أخلاقياً، لأنه لم يقتفي أثر أجداده في النواحي السياسية فقد كان ضعيف الشخصية بسبب استحواذ نائبه لؤلؤ على جميع سلطات الدولة.

كما أوضحت هذه الدراسة أن ابن الأثير لم يكن المؤرخ الوحيد الذي كتب عن تاريخ الزنكيين، فقد أرخ لهذه الدولة ولسنواتها الأولى مؤرخون سابقون له كابن القلانسي، والعظيمي، وابن عساكر، كما أرخ لها حتى زوالها معاصرون له كابن العديم، ابن شداد، وابن واصل، لكنه كان أول من أفرد للزنكيين كتاباً كاملاً مخصصاً لها، ولم يسبقه على ذلك غيره من المؤرخين. فكان لابد من دراسة موارده ومنهجه في هذا الكتاب، ومن هنا تأتي أهمية دراسة المصادر فهي من أهم الأسس في دراسة التطور الفكري والحضاري فمن خلالها يتم التعرف على النتاج الفكري والثقافي والاجتماعي والاقتصادي المدون في مختلف العصور وبينت الدراسة منهج ابن الأثير في الكتابة التاريخية في كتابه الباهر، فقد شرع في التأريخ للزنكيين بادئاً باصل البيت الزنكي، آق سنقر الملقب بقسيم الدولة، وعلاقته الوطيدة بملكشاه، ثم ولايته على حلب، وسيره فيها، باختصار شديد، ثم عرج على الصراع بين أبناء ملكشاه بعد وفاته، وصلاح قسيم الدولة مع السلطان تاج الدولة تتش، فامتاز كتاب ابن الأثير من خلال ماتوصلت له الدراسة أنه كان يختم الأحداث لتاريخية لأي ملك زنكي بترجمة عن سيرته، وصفاته الشخصية وأخلاقه، ومآثره، وسنوات حكمه، واتسم منهجه في الكتاب بالعرض الدقيق المحكم الذي ينم عن نكاه مبدع، وتظهر فيه براعته كمؤرخ، كما اتضح من خلال الدراسة أن ابن الأثير اتبع في الكتاب المنهج الحولي القائم على التسلسل الزمني في الكتاب، في رصد الحوادث والوقائع، لكن لم يكن مراعيًا للتوازن الزمني، فالجزء المخصص بحكم عماد الدين وأبنائه سيف الدين، ونور الدين، وقطب الدين، من سنة 512-569هـ/1127-1174م، جاءت فيه الأخبار والحوادث مفصلة ومطولة بنسبة كبيرة من إجمالي عدد صفحات الكتاب مقارنةً بباقي الحوادث التي كانت زمنياً أطول منها.

وفيما يتعلق بموارد ابن الأثير في كتابه الباهر فقد وضحت الدراسة أنه هياً لكتابة موارد موثوقة، تساعده في تكوين صورة شاملة ودقيقة للدولة الزنكية وتتباين في أهميتها ومدى اعتماده عليها، ويمكن تقسيمها إلى مصادر شفوية ممن عاصر الزنكيين أو من أشخاص آخرين، كانوا مشاركين في تلك الأحداث عن طريق السماع والمساءلة، بالإضافة إلى النقل عن المصادر المكتوبة أو

المؤلفات السالفة، كدواوين شعر، وأمثال قديمة وطريفة. وقد كان في كتابه قد صرّح عن أهم موارده الشفوية وهما والده، وأخوه مجد الدين، ولا يخفى على القارئ لكتابته كمية الحوادث التي نقلها عن والده، ممّا يجعله من أهم مصادره الشفوية في الكتاب.

وأما عن نقله عن المصادر التاريخية، فقد تمكن ابن الأثير من استيعاب العديد من مؤلفات سالفه ومعاصريه، واستفاد منها في كتابه الباهر، كأحسن ماتكون الاستفادة، وقد ساعد في ذلك انكبابه التام على العلم، وذكره، وقوة حافظته، وقيامه باختصار بعض الكتب السالفة وجمعه للعديد منها ضمن كتاب واحد، وحاول أن يستفيد من جميع مؤلفات سالفه من المؤرخين لجمع مادة كتابه، وأتى كتابه الكامل في التاريخ في مقدمة المؤلفات التي اعتمد عليها، وفي كثير من صفحات الكتاب يحيل القارئ لكتابته الباهر أن يعود للكامل، وهذا في نظره منعاً للإطالة، وابتعاداً عن الخروج عن الموضوع. فكان يفيد القارئ بالعودة له للاستفادة والاستزادة حول الموضوع.

كما يتضح أيضاً أنّ ابن الأثير في كتابته عن الزنكيين قد حاد عن الموضوعية، التي لطالما تحلّى بها في الكامل، فرواياته عن الزنكيين جاءت في الباهر أكثر تفصيلاً إلا أنّها أقلّ موضوعية، وهناك مثالب يمكن توجيهها إليه لعلّ أبرزها عدم إنصافه لصالح الدين ومبالغته في تمجيد الزنكيين، فجاء كتابه الباهر خالياً من أي نقد أو مُسائلة للزنكيين فقد تغاضى عن تقلص نفوذهم بعد وفاة نور الدين.

ومن النتائج المهمة التي توصلت لها الدراسة، أنّ ابن الأثير ابتعد في كتابه الباهر عن منهج أهل الحديث في السند، وإطالته، فامتاز كتابه بالاختصار، واستخدام المحسنات اللفظية كالسجع والكناية، والأساليب البيانية.

ويستدلّ مما سلف أنّ ابن الأثير لم يستطع في كتابه الباهر أن يفصل علاقته وعلاقة أسرته، عن كتابه الباهر، فكانت مبالغته في مديحهم، وثناؤه عليهم وتمجيدهم وتعظيمهم واضحة ، وربما دفعه هذا الولاء للزنكيين إلى التغاضي عن بعض أخطائهم ، مكتفياً بذكر أعمالهم وتمجيدها. فرغم محاولته أن يبقى محايداً فيما ينقله من أخبار، لكنّ ميوله للزنكيين قد كان لها أثر في دقته.

وهناك اختلاف بين كتابيه الكامل والباهر في بعض التواريخ لبعض الأحداث فقد وردت بالكامل بغير ما وردت به بالباهر فمثلاً يأتي فتح حصن أفاميا في الباهر سنة 544هـ، وفي الكامل يأتي سنة 545هـ، وحدد الكامل المدة التي استغرقتها الخلافة الفاطمية بمائتين واثنين وسبعين سنة وشهراً، بينما استغرقت في الباهر مائتين وست وستين سنة، و أورد إضافات في الباهر لم ترد في كتابه الكامل.

وعلى الرغم من كل ما سلف يمكن القول أن ابن الأثير قدّم مادّة تاريخية متوازنة زمنياً، وجغرافياً، وعرضها بشكل منظم، وأعطى فيه صورة شاملة ودقيقة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والنشاط العسكري وتحركات الجيوش في هذه المرحلة، في كل من الشام والعراق، وإلى حدّ ما في مصر. وهكذا ذهب ابن الأثير أبعد من حدود الكتابة في تاريخ أسرة حاكمة، فرسم صورة شاملة للأحداث، امتدت زمنياً لتغطي مائة وثلاثين عاماً تقريباً.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير (علي بن محمد ت 630هـ/1232م):
 1. الكامل في التاريخ، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 2012م.
 - أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار صادر، بيروت، 1400هـ/1980م.
 2. اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، 1400هـ/1980م.
 3. الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليعات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963م.
- ابن الأثير (نصر الله بن ابي الكرم ت 637هـ/1240م):
 4. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي، دار النهضة، ط1، القاهرة، د.ت، ج1.
- الادريسي (محمد بن عبد الله ت 560هـ/1166م):
 5. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الحديثة، القاهرة، 1422هـ/2002م.
- الأسنوي (عبد الرحمن ت 772هـ/1370م):
 6. طبقات الشافعية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1407هـ/1987م، ج1.
- الأصفهاني (عماد الدين محمد ت 597هـ/1651م):
 7. تاريخ دولة آل سلجوق، دار الافاق، ط2، بيروت، 1978م.
 - ابن ايبك الداوداري (عبد الله ت 736هـ/1335م):
 8. الدرّة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق: جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1953م.
- البغدادى (اسماعيل بن محمد ت 748هـ/1374م):
 9. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1955م، ج2.
- البغدادى (عبد اللطيف ت 629هـ/1231م):
 10. الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، تحقيق: أحمد اسبانو، دار قتيبة، ط1، 1403هـ/1983م.
- البكري (أبو عبد الله ت 487هـ/1094م):
 11. المسالك والممالك، تحقيق: ادريان فان ليوفرو اندري فرين، بيت الحكمه، فرنسا، 1992م.

- البنداري (الفتح بن علي ت 597 هـ/ 1201 م):
- 12. سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979 م.
- ابن تغري بردي (جمال الدين ت 813 هـ/ 874 م):
- 13. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، القاهرة، د.ت، ج 6.
- ابن جببر (الحسين بن محمد ت 614 هـ/ 1217 م):
- 14. رحلة ابن جببر، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن الجوزي (شمس الدين ت 581 هـ/ 654 م):
- 15. مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق إبراهيم زبيق، دار الرسالة العلمية، ط 1، دمشق، 1434 هـ/ 2013 م.
- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي ت 852 هـ/ 1448 م):
- 16. لسان الميزان، الأعلمي للمطبوعات، ط 2، بيروت، 1390 هـ/ 1971 م.
- الحسيني (صدر الدين علي بن الناصر ت 622 هـ/ 1225 م):
- 17. زبدة التواريخ في اخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق محمد نور الدين، دار اقرأ، ط 1، بيروت، 1405 هـ/ 1985 م.
- الحموي (ياقوت بن عبد الله ت 626 هـ/ 1229 م):
- 18. معجم البلدان، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، د.ت.
- 19. معجم الأدباء، دار المأمون، القاهرة، 1355 هـ/ 1936 م.
- الحنبلي (عبد الحي بن أحمد ت 1089 هـ/ 1678 م):
- 20. الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط 1، بيروت، د.ت.
- ابن حوقل (محمد بن علي ت 367 هـ/ 977 م):
- 21. صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، 1992 م.
- ابن خلكان (أحمد بن محمد ت 681 هـ/ 1282 م):
- 22. وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968 م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت 808 هـ/ 1406 م):
- 23. مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 4، د.ت.
- 24. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر وما عاصروهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، ط 1، بيروت، 2001 م.
- الذهبي (محمد بن أحمد ت 748 هـ/ 1348 م):
- 25. العبر في خبر من غبر، تحقيق أبوهاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، د.ت.
- الزبيدي (محمد بن محمد ت 1205 هـ/ 1790 م):

26. تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي مشيري، دار الفكر العربي، ط1، بيروت، 1414هـ، ج1.
- السبكي(عبد الوهاب بن علي ت771هـ/1369م):
 - 27. طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.
 - السخاوي(شمس الدين902هـ/1497م):
 - 28. الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دار الجيل، ط1، بيروت، 1413هـ/1992م.
 - السمعاني(عبد الكريم محمد ت562هـ/1133م):
 - 29. الأنساب، تحقيق عبد الرحمن المعلمي، دار المعارف العثمانية، ط1، حيدر آباد، 1328هـ/1980م، ج3.
 - السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن ت911هـ/1505م):
 - 30. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، دار احياء الكتب العربية، ط1، القاهرة، 1387هـ/1968م.
 - أبوشامة(شهاب الدين ت665هـ/1268م):
 - 31. الذيل على الروضتين تراجم القرنين السادس والسابع الهجري، تحقيق محمد الكوثري، دار الجيل، ط2، بيروت.
 - 32. الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1422هـ/2002م.
 - ابن شداد(محمد بن علي بن ابراهيم ت684هـ/1285م):
 - 33. الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، تحقيق: زكريا عبارة، احياء التراث العربي، دم، 1978م.
 - ابن شداد (بهاء الدين 632هـ/1235م):
 - 34. سيرة صلاح الدين، تحقيق: سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون، الاسكندرية، د.ت.
 - شيخ الربوة(شمس الدين أبي عبد الله ت727هـ/1237م):
 - 35. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، الاكاديمية الامبراطورية، بطربورغ، د.ت.
 - الصفدي(صلاح الدين خليل ت674هـ/1262م):
 - 36. الوافي بالوفيات، دار احياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1420هـ/2001م.
 - الطائي(أبو تمام ت231هـ/845م):
 - 37. ديوان الحماسة، دار القلم، ط1، بيروت، د.ت.

- ابن طولون (شمس الدين محمد بن علي ت342هـ/953م)
38. القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، تحقيق: محمد دهمان، مجمع اللغة العربية، ط2، دمشق، د.ت.
- ابن العديم (كمال الدين ت660هـ/1261م):
39. زبدة الحلب من تاريخ حلب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1417هـ/1263م.
40. بغية الطلب في أخبار حلب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1417هـ/1263م.
- العلمي (عبد الباسط بن موسى بن محمد ت981هـ/1573م):
41. مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمساجد والمدارس، تحقيق: صلاح المنجد، مديرية الآثار القديمة، دمشق، 1947م.
- أبو الفداء (إسماعيل بن علي ت732هـ/1331م):
42. المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.
- ابن الفوطي (كمال الدين ت723هـ/1323م):
43. تلخيص مجمع الآداب في مجمع الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1962م.
- ابن قاضي شهبه (أبو بكر بن أحمد ت851هـ/1447م):
44. طبقات الشافعية، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1407هـ/1987م.
- القفطي (جمال الدين علي بن يوسف ت646هـ/1247م):
45. أنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط1، د.ت.
46. أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1426هـ/2005م.
- ابن القلانسي (حمزة بن أسد بن علي بن محمد ت555هـ/1160م):
47. تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان، دمشق، 1403هـ/1983م.
- القلقشندي (شهاب الدين أحمد ت821هـ/1418م):
48. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1340هـ/1922م.
- الكتبي (محمد بن شاكر ت724هـ/1363م):
49. فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن كثير (عماد الدين إسماعيل بن عمر ت776هـ/1374م):
50. طبقات الشافعية تحقيق عبد الحفيظ منصور، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط4، 2001م.
51. البداية والنهاية، دار المعارف، ط1، بيروت، 1410هـ/1990م.
- ليون الأفريقي (الحسن بن محمد لوزان الفاسي ت962هـ/1554م):

- 52. وصف افريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد الاخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983م
- الماوردي (علي بن محمد ت 450 هـ/ 1058 م):
- 53. الاحكام السلطانية، تحقيق: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، 1427 هـ/ 2004 م.
- ابن المبرد (يوسف عبد الهادي ت 909 هـ/ 1503 م):
- 54. الذيل على ثمار المقاصد في ذكر المساجد، تحقيق: محمد طلس، المعهد الافرنسي، بيروت، 1943 م.
- ابن المستوفي (أبو البركات شرف الدين ت 637 هـ/ 1239 م):
- 55. تاريخ اربل، تحقيق: سامي بن السيد، دار الرشيد، بغداد، 1980 م.
- المقرئزي (تقي الدين ت 845 هـ/ 1442 م):
- 56. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين، القاهرة، 1416 هـ/ 1996 م.
- المقدسي (محمد بن أحمد ت 380 هـ/ 990 م):
- 57. أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، مطبعة بريل، ط2، ليدن، 1909 م.
- ابن مماتي (أسعد ت 606 هـ/ 1209 م):
- 58. قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مكتبة الدبولي، القاهرة، د.ت.
- المنذري (زكي الدين عبد العظيم ت 656 هـ/ 1285 م):
- 59. التكملة لوفيات النقلة، تحقيق: عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط3، القاهرة، 1405 هـ/ 1984 م.
- ابن منظور (محمد بن مكرم ت 711 هـ/ 1312 م):
- 60. مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: ابراهيم صالح، دار الفكر، ط1، دمشق، 1408 هـ/ 1988 م.
- النويري (أحمد بن عبد الوهاب ت 733 هـ/ 1332 م):
- 61. نهاية الارب في فنون الادب، تحقيق: مفيد قمحة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1424 هـ/ 2004 م.
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت 697 هـ/ 1298 م):
- 62. مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1953 م.
- ابن الوردي (زين الدين عمر بن مظفر ت 749 هـ/ 1348 م):
- 63. تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1417 هـ/ 1996 م.
- الوهراني (ركن الدين محمد بن محمد ت 575 هـ/ 1179 م):

64. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: ابراهيم شعلان ومحمد نغش، مؤسسة الجمل، ط1، المانيا، 1998م.

• اليافعي (عبد الله بن اسعد ت 768هـ/ 1366م):

65. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1417هـ/ 1997م.

المراجع العربية:

- 1- البدور (جودت): المساجد الأيوبية في دمشق، الجامعة الأردنية، الأردن، 1996م.
- 2- حسنين (عبد المنعم): قاموس الفارسي، دار الكاتب اللبناني، ط1، بيروت، د.ت.
- 3- الحويري (محمود): الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، القاهرة، 1979م.
- 4- ابن الحسين (اسحاق): آكام المرجان في ذكر المدن المشهورة في كل مكان، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1408هـ/1988م.
- 5- حسين (كامل): دراسات في الشعر الأيوبي، دار الفكر العربي، القاهرة 1957م.
- 6- الخطيب (حنيفة): الطب عند العرب، الأهلية للنشر، ط1، بيروت، 1986م.
- 7- خليل (عماد الدين): الامارات الارتقية في حلب وبلاد الشام، مؤسسة الرسالة، لبنان.
- 8- الدوري (عبد العزيز): مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، د.ت.
- 9- الزركلي (خير الدين): الأعلام قاموس تراجم أشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، ط14، بيروت، 1992م.
- 10- زكار (سهيل)، عبد الله المحمد (أنس): تاريخ العصر العباسي الثالث من السلاجقة إلى سقوط بغداد، دمشق، 1437هـ/2016م.
- 11- زكار (سهيل): مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، 1415هـ/1995م.
- 12- زكار (سهيل)، بيطار (امينة): تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتى سقوط بغداد، ابن حيان، ط8، دمشق، 1428هـ/2007م.
- 13- سعداوي (نظير): المؤرخون المعاصرون لصالح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1969م.
- 14- شاكر (محمود): التاريخ الاسلامي الدولة العباسية، المكتب الاسلامي، ط6، بيروت، 1421هـ/2000م

- 15- الشامي(أحمد): صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، مكتبة النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1993م.
- 16- شتا(ابراهيم الدسوقي): المعجم الفارسي الكبير، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1992م.
- 17- شلبي(أحمد): التربية والتعليم في الفكر الاسلامي، النهضة المصرية، ط1، القاهرة، 1999م.
- 18- شميساني(حسن): عز الدين المؤرخ الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ/1990م.
- 19- الصلابي(علي): الدولة الزنكية، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1428هـ/2007م.
- 20- الصلابي(علي): السلطان الشهيد عماد الدين زنكي شخصيته وعصره، مؤسسة اقرأ، ط1، القاهرة، د.ت.
- 21- طرخان(ابراهيم): النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1388هـ/1968م.
- 22- طقوش(سهيل): تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام 521-630هـ/1127-1232م، دار النفائس، ط2، بيروت، 1431هـ/2010م.
- 23- طليمات(عبد القادر): ابن الاثير الجزري المؤرخ، دار الكتاب العربي، مصر، 1962م
- 24- عاشور(سعيد): الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الطالب، ط1، 1963م.
- 25- عبد الغني(يسري): معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1411هـ/1991م.
- 26- عبد الفتاح(علي): اعلام المبدعين من علماء العرب والمسلمين، دار ابن كثير، ط1، الكويت، 1431هـ/2010م.
- 27- العريني(السيد الباز): مؤرخو الحروب الصليبية، دار النهضة، القاهرة، 1381هـ/1962م.
- 28- العريني(السيد الباز) الشرق الأدنى في العصور الوسطى، بيروت، 1386هـ/1967م.
- 29- العريني(السيد الباز): الشرق الاوسط والحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، 1415هـ/1995م.
- 30- العلبي(أكرم): خطط دمشق، دار الطباع، دمشق، 1979م.
- 31- عكاوي(رحاب): موسوعة عباقرة الاسلام في الطب والجغرافية والتاريخ والفلسفة، دار الفكر العربي، ط1، بيروت، 1993م.
- 32- عوض(محمد مؤنس): في الصراع الاسلامي الصليبي - السياسة الخارجية للدولة النورية، عين للدراسات والبحوث الانسانية، ط1، القاهرة، 1998م.

- 33- عوض (محمد مؤنس): دراسات في الصراع الاسلامي معركة آرسوف 587هـ/1191م، عين للدراسات والبحوث، ط1، القاهرة، د.ت.
- 34- عيسى (أحمد): تاريخ البيمارستانات في الاسلام، المطبعة الهاشمية، ط1، دمشق، 1337هـ/1993م.
- 35- غندور (محمد يوسف): تاريخ جزيرة ابن عمر، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990م.
- 36- غنيم (اسمت): الدولة الايوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1991م.
- 37- ماجد (عبد المنعم): ظهور الخلافة وسقوطها في مصر التاريخ الاسلامي، دار الفكر العربي، ط4، القاهرة، 1998م.
- 38- المزيني (ابراهيم): الحياة العلمية في العهد الزنكي، الخرطوم، 1424هـ/2003م.
- مصطفى (ابراهيم)، وآخرون: المعجم الوسيط، مكتبة النوري، ط3، دمشق، د.ت.
- 39- محمد (بهاء الدين): تاريخ طبرستان، تر: أحمد بن محمد بن نادي، المجلس الاعلى للثقافة، ط1، د.م، 2002م.
- 40- محمود (اسماعيل): سيوسولوجيا الفكر الاسلامي، الانتشار العربي، ط1، بيروت، 2000م.
- 41- هياجنة (سهيل علي): البيمارستان في العصر الايوبي والمملوكي في بلاد الشام 570-922هـ/1174-1517م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، الاردن، 2002م.

المراجع المعربة:

- 1- باركر (آرنست): الحروب الصليبية، دار النهضة، ط2، بيروت، د.ت.
- 2- جب (هاملتون): صلاح الدين الأيوبي دراسات في التاريخ الإسلامي، بيسان، ط2، بيروت، 1996م.
- 3- رنسيما (ستيفن): تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1402هـ/1997م.
- 4- روزنثال (فرانز): علم التاريخ عند المسلمين، تر: صالح العلي، مكتبة المثنى، بغداد، 1963م.
- 5- زابروف (مخائيل): الصليبيون في الشرق، تر: الياس شاهين، دار متقدم، موسكو، 1986م.
- 6- هايد (ف): تاريخ التجارة في الشرق الادنى في العصور الوسطى، تر: أحمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م.

فهرس المحتويات

	ملخص الرسالة
1	المقدمة
4	دراسة المصادر والمراجع
	القسم الأول: الفصل الأول: عصر ابن الأثير: سياسياً، ثقافياً، اقتصادياً و اجتماعياً (555-630هـ / 1160-1233م)
	1 أولاً: الأوضاع السياسية:
	1- الأوضاع السياسية في بلاد الشام قبيل قيام الدولة الزنكية:
11	أ- الخلافة العبّاسيّة.
1 4	ب - الخلافة الفاطميّة.
15	ج- السلاجقة.
18	2- الدولة الزنكية :
18	أ- تأسيس الدولة الزنكية.
24	ب- العلاقات الزنكية- البورية.
29	ج- المواجهات الزنكية- الصليبية.
32	- الأيوبيون :
32	أ- تأسيس الدولة الأيوبية
34	ب- صلاح الدين الأيوبي والصليبيين
	ثانياً: الأوضاع الاقتصادية:
	1- الأوضاع لأقتصادية في المشرق الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين:
	أ- الأوضاع الاقتصادية في العصر الزنكي:
37	- الاقطاع في العصر الزنكي:
39	-الزراعة
39	- الصناعة
39	- التجارة
	ب- الأوضاع الاقتصادية في العصر الأيوبي:
	- الاقطاع في العصر الايوبي:
40	-الزراعة

فهرس المحتويات

43	-الصناعة
45	- التجارة
	ثالثاً: الحياة العلمية:
	- منهج الكتابة التاريخية في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين
49	- العلوم
52	-المدارس في العصرين الزنكي والأيوبي
	رابعاً: الأوضاع الاجتماعية:
56	أ- الأوضاع الاجتماعية في الموصل وبلاد الشام في العصر الزنكي
58	ب- الأوضاع الاجتماعية في مصر وبلاد الشام في العصر الأيوبي
	خامساً: الحركة العمرانية:
60	1-المساجد
61	2- البيمارستانات
	الفصل الثاني: ابن الأثير: حياته، وثقافته، ومؤلفاته(555/630هـ / 1160-1233م)
	1- حياة ابن الأثير:
65	أ- اسمه وكنيته ونسبه
65	ب- ولادته
65	ج- أسرته
71	د- نشأته وعلومه الأولى
72	هـ- رحلات ابن الأثير: رحلاته إلى الحج
72	- رحلاته في طلب العلم
73	و- وفاته
75	2- ثقافته: أ- أثر أسرته
77	ب- شيوخه
83	ج- تلاميذه
	3- مؤلفاته:
85	أ- اللباب في تهذيب الأنساب
86	ب- أسد الغابة في معرفة أخبار الصحابة
88	ج- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية
90	د- الكامل في التاريخ
92	4- علاقته بعلماء عصره
95	5- مكانته العلمية وآراء العلماء فيه

فهرس المحتويات

	القسم الثاني: الفصل الأول: منهج ابن الأثير في تأليف كتابه الباهر في الدولة الأتابكية
98	1- وصف الكتاب ومحتواه
102	2- الموضوعات التي تناولها ابن الأثير في الباهر: أ- النهضة العلمية
103	ب- الانجازات العمرانية
104	ج- الانجازات العسكرية ضد الفرنج
105	د- الأوضاع الاقتصادية
106	3- منهج ابن الأثير في التأليف: أ- مقدمة الكتاب ومحتواها
110	ب- لغة الكتاب
113	ج- منهجه في عرض المادة العلمية
119	4- أهمية الكتاب
	الفصل الثاني: موارد ابن الأثير في كتابه الباهر في الدولة الأتابكية
124	- دراسة موارد ابن الأثير في كتابه الباهر: أ- الروايات الشفوية
129	ب- ابن الأثير شاهد عيان
131	ج- الموارد المكتوبة 1- كتب تاريخ
135	2- أبيات شعرية
139	3- الوثائق الرسمية
140	4- آيات قرآنية
141	- مأخذ على ابن الأثير في كتاب الباهر
145	الخاتمة
149	قائمة المصادر والمراجع

The summery

The sources of (Iben Al–Atheer) of Al–Baher's book in the Attabic's state contains detailed explanation about the period that the historian (Iben AlAtheer) and his family lived in. Also contains specified image about the political ,economical, social and practical life in that ages based on the most important sources and references that covers this important phase of the Arabic and Islamic history. And i mentioned here the story of Iben Al–Atheer the historian since he was born, grew up and his family with thier role of creating his culture also his father that he was serving in AlZenki royal court passing by his cultural and scientific life. Then his quest for knowledge and some stops of his most important writing in the history that he left behind. Highlighting these writing and thier importance by taking them as method for most of the modern historians by avoiding prolongation and attribution that has been common in the previous time The second part contains a study of Iben Al–Atheer's book (Albaher in the Attabic state) this book is the subject of this dissertation by identifying the method that Iben Al–Atheer followed in his book and the sources that he got his informations from, The dissertation is in two part

The first part is about Iben Al–Atheer's method in his book Albaher by speeking about the importance of this book in the Arabic and Islamic history.

Also the importance of this book for being a reference for most of the historians who lived in the same ages of Iben Al–Atheer or who came after

And highlighting in this chapter the reasons why Iben Al–Atheer wrote this book by sorting and gathering most of them and analyze them and Iben Al–Atheer's way of writing in general and especially his book Al baher and

his lingual creativity with his featured way of writing and his literature art was an obvious proof of his knowledge

The last chapter of my dissertation is about the sources that he used to get his informations and his which has been divided into oral sources and written sources

The presence of his father was obvious because the majority of the book's material was taken from him by his good contacts with the royal family (Al-Zinki) and his service in the royal court so he and his family occupied high possitions made him close to Al-Zinki princes

Syrian Arab Republic

Damascus University

Faculty of Literature and Humanities

Department of History- Arab and Islam



Ibn AlAtheer' resources In his amazing book in the
Atabeck state from (555-630 /1160-1233C)

Thesis submitted for the degree of Master in Islamic History

By:

Lana Khawanda

Supervisor:

Dr: halema Abdul Hadi

1440/2019

